



رشيد بو جدرة



رشيد بوجدرة



رواية



بيروت - لبنان - كورنيش المزرعة - بناية موسى - ب ٣٠٠٣١١

الطبعة الاولى
١٩٨٢ م

الفصـــل الأول

لم يكن ليحمل بطاقة تعريف ولا أي شيء آخـر يعرّف الى هويته فكان يشعر بنوع من الخفة تصعد من جيوبه الخاوية متناسيا تلك الصورة الشمسية التي كانت في جيبه لا يحسب لهـا بالا ولا حسـابا وفجأة تسقط أمامه حمامة سمينة تسترق حركة بطيئـة متمايلة فينسى الصورة التي لا يحمل سواها ويتساءل عن سـر وجود مثل هذه الطيور المتكرشة في مدينة ان هي شكت من شيء فمن قلة الغذاء والتغذية ويلتفت وراءه فاذا بحمامة أخرى أضخم من الاولى حجما تمشـــي وراءه الهوينا تقـــرع الارض بمنقارها وتجعد - من حين الى آخر - ريشها الذي طغى عليه لـون غريب يمازجه الازرق الفاتر والخزامى مما كان يزيد من تثاقلها وحجمهـا (ولعله كان يبالغ في وصفها وهو يحدث نفسه مؤكدا انهـا لولا حركتها الآلية المتكلفة المتقطعة لظنها قطعة من الخزف أو دمية من حرير ويعتريه العجب لمشاهدته هذا الحشد الغفير من الناس المارين منهم ذهابا وايابا والواقفين وقوف من رسخت أقدامهم في أسفلت الحافة فظلوا ماكثين رابضين مكانهم يربطهم فيه حبل هيولى لا يتسنى له رؤيته رغم ما بذل من محاولات وتحديقـات شتى ما لبثت أن تسببت في استفزاز أولئك المتشبثين كالاوتـاد على أرضية الشـــوارع (واشبي يمـاك روح تعطـي ... ورواح تحاسبني) ولا يرد عليهم : انهم صبية مثله تائهون ... ولكن الامر لا يغني عن الجوع فيعود يحدق في الحمامة الثانية وقد أخذت ترسم على صفيحة الارض نخاريب ما كان ليراها أحد غيره وما كان ليفيق لها أحد وقد بدت له الحمامة وكأنها خزف حريري هو مزيج من الخزامى والرمادي والازرق الفاتر وقد زادت الشمس من بريق ريشها المرقش هنا وهناك (قـــرب العنـق وعلـى الجناح الايسر) بفولاذ رخو وما كان منه أن وقف مشدوها بعض الشيء يحرك رأسه من الخلف الى الامام ودواليك في محـاولة منهكة لئلا تفوته أية حركة من تلك الحركات المجهرية التي كانت تقوم بها هذه الحمامات الضخمة وما يلبث أن يصارح نفسه متسائلا عما

يحدو بهم الى تركهم اياها هكذا تتبختر وتنقر تطـــير وتعود الى نفس المكان حيث تناثر فتات من الخبز او بصقة احد المسلولـــين أو رضاب ماضغ تبغ أو ٠٠٠ لماذا يتركونها هكـذا طليقة حرة لا يختطفونها فيعودون بها الى ديارهم يطهونها فيأكلونها ، الا انه سرعان ما كان يندم على قولته هذه الشنيعة ويتذكر أنه لا يحمل أية ورقة رسمية تعرّف اليه ٠ أما الصورة فيتناساها ويشـعر بخفة غريبة تسـوده وكأنه أصبح بمقدوره أن يطـــير في الهواء كالحمامات (من يدري لعلها من خزف أو شنب ؟) وبحركة آلية لا شعورية يمد ذراعيه نحو احداها فتفلت من يديه وتطير تاركة وراءها دوامة من الغبار طلتها الشمس بلونها البرتقالي فغرقت في بحر من الضباب الكثيف فينظر المارة اليه نظرة استنكار غير راضين عن تصرفه هذا الصبياني ويحوم حوله الاطفال فيصطدم بهم ويتذكـر اذاك الصورة ويبتعد مهرولا حذرا نادما علـى عملته هذه ويخرج الصورة خلسة من جيبه (انها مستطيلة الشكل بنيّة اللون بالية الورق) وقد رسم الزمن عليها أنواعا من التجـاعيد مثلها مثل عجوز مبهرجة بأوشام وقحة مثلومة تتهاطل عليهـا أشكال من الرقاقات تكاد تكون نوعا من الخشب أو من الاسلاك أو ليفا حريرية أو خثيا من الحمامـــات السمينة ترذرذه من أعلى مؤخراتها وكأنها راحت تهزأ به وبمحاولته السخيفة التي لا معنى لها البتة او كأنها افاريز ملولبة تثقب الورق المقوى الذي فقد لمعانهمنذ زمن طويل طويل فأصبح يتصوره في رأسه المفلفل بشيب الشباب الملولب كفتاحة زجاجات البيرة البريمية الشكل وقد تآكلها الصدأ مثلما أكل التهرؤ قلبه وهو يجوب المدينة طولا وعرضا عاملا على محو ماضيه خائفا من حاضره ضاربا مستقبله بتأشيرة اللامبالاة المهربة من بلاد ما زارها قط ولو في الحلم ، ينظـر الى الصورة الشمسية البالية البنية اللون وقد شوهتها أنواع من الخدشـــات بصمتها عليها أظافر عاهرة صبغتها حمرة طمثها أو ٠٠) يحدق فيها برهة ٠ أهو هو ؟ أم لا ؟ وهذا الذي بجانبه ؟ وذاك الذي على يساره ؟ فمن هما يا ترى ؟ وأولئك من ورائه وكأن المصوّر التقطهم وقد أصابتهم نوبة من الضحك لا يمكن كبتها فقطبوا

لها جبهاتهم امام الآلة فظهروا ـ على كل حال ـ وكأنهم مبهورون مشدوهون مذهولون ومعتوهون معا وفي آن واحد ثم يعيدها بسرعة الى الجيب الايسر من سترته الرثة فتخلّف في قلبه بصمة ذات الخطوط الملتوية ويشعر بخنة ووداعة لا مثيل لهما ٠ لكن الصورة ٠٠٠ لكن الحمامات ٠٠٠ لكن المدينة ٠٠٠ لكن الميناء ٠٠٠

والميناء أيضا : يسقط اليه مرارا وتكرارا وكلما مر بالقرب منه شعر وكأنه يشرنقه بخيوطه الحديدية المتشابكة المتقاطعة والملونة بألوان لا يمكن تحديدها حيث يتمازج الازرق والاصفر والاحمر معا ولعل الاحمر قد سيطر على كل ما في الالوان الاخرى من درجات مختلفة الامر الذي يكلفه عناء شديدا فيتيه هائما على وجهه بين الحاملات والرافعات والجرارات والبواخر وقد فتحت هذه بطونها وقدّمت أحشاءها فرجة للمتفرجين لمجرد التمظهر لا أكثر ولا أقل فيهيم في الشوارع ويتشبع جسمه من العياء حتى التخمة ويتشرب جسمه من العرق حتى الغرق فيسيطر عليه شعور غريب ويحس وكأنه أصبح هكذا بين الفينة والفينة نشافا فاغما بصنان عبق لا علاقة له البتة بأصيص الحبق المسترق الذي يتدلى في وسط غرفته الفريدة وقد غرس في تربة الحبقة شمعة ضخمة كان قد سرقها يوم الجمعة من زاوية سيدي عبد الرحمان وقد اكتظت بالنسوة المطلقات اللواتي جئن في محاولة يائسة للتبرك بالولي الصالح والتضرع اليه فيعود الزوج المارد كما انها اكتظت بالعذارى اللواتي أتين لقضاء العشية دردشة وثرثرة فتسيل فروجهن وتريل لعابا بنفسجيا يزيد من عتمته زغب الحرمان ولوعة العزلة وقد اعتاد هو الاتيان الى هنا من حين الى آخر يسترق النظرة ويلتقط صورة ذهنية لاحدى الفتيات أجملهن أو احدى النساء المطلقات أسمنهن ذوات النهدين المهفهفين فيعريها بعد اللجوء الى غرفته القصديرية التي كان قد خيطها بأسلاك حديدية وحبال بحرية مقطرنة ولا ينسى كلما زار سيدي عبد الرحمان أن يتزود بايماءات وميضية بين فخذ أملس وثدي منتفخ ولا ينسى التزود أيضا بشمعة حمراء سمينة يختلسها في لحظة خاطفة سريعة كالبرق وقد ذهب المولى يرتل طلاسمه على جبين أحد الاطفال المشلولين ولا يعتم

أن يرجع صاحبنا الى بيته المنفرد المعزول والمشرف على المدينة وعلى الميناء وعلى السيلان البشري المتدفق وعلى قوافل السيارات المنسابة على اختلاف أنواعها وطرازها ويغرس الشمعة كقضيب فخم مستطيل ويرفعها في العزلة شراعا ويمارس العادة السرية قابضا على فحله فيما كانت رائحة النعناع تمتزج برائحة الانثى وقد امتلأ فرجها منيا واكتظ صدرها حليبا تقطره في اناء بلوري وتتصدق به لقطط الجوار ويغفو ثم يعيد الكرة ذهابا وايابا . يا انثى يا سيدي عبد الرحمان يا تعاسة البؤساء هلموا فشمعتي مغروسة قربانا لمن يموتون في البحر وقد اخضرت أعشابه المتأصلة عمقا والمتجذرة صلابة كالنشاف المتحجر في قعر رئتيه المعشوشبتين بحشيش السرطان وتطفو رائحة البخور على سائر الروائح وهو على هذه الحالة المتهلوسة فيتفرقع الجاوي في رأسه ويموت شبقا وجوعا . أما الميناء فلا يترك له مجالا ولا هدنة مهما كان موقعه سواء أكان فوق الهضاب حيث بنى عرينه أو تحت النفق في وسط المدينة حيث اعتاد الجلوس فيهطل عليه بوابل من أنواع الالوان وأشكال التراكمات والاكداس والعلب الضخمة والمصدقات المبهرجة المتفتقة تلك التي تبتلع الحمالين وتلفظهم في حركة سرمدية لا مناص منها ولا حيلة له عليها فيما ينقض النورس الطفيلي على كل ما يتحرك في الماء فيخال الظل سمكة والسمكة ظلا .

وكلما اجتاح هذا المركب المزوج والملفق اعترته نزوة من الشك فتوترت أعصابه جرائة ويخيل اليه أن جسمه أصبح باخرة وتحولت شرايينه الى حبال حديدية ضخمة تجابه السماوات والارض بين حاب ولوب فتأكله البوغاء ويتغلغل السوس في شرائح نخاعه على أنه ، ورغم كل هذا الحذر والتخوف ، يشعر بقلبه يذوب مرحا وغمرة لا سيما اذا ما ر اح المطر ينكح الارض وتغشي الضبابة أرصفة الميناء وقد توغل بعيدا داخل أعماق البحر المصفر من فرط الفتور عندما يختمر الصيف ويبلل القيظ المدينة فيخضبها بتلوث حديدي ويغوص صاحبنا في الحرارة ويأبى تصديق نفسه اذا ما ظهرت ـ على الشاشة الشهباء التي تحركها ذاكرته أمام عينيه ـ سيارة عسكرية تهتز وتنتفض وكأنها جعران فضي قد استلقى على

ظهره بعنجهية صاخبة ملتويا على نفسه ملتفا على ذاته فتأخذ فجأة حركة فوضوية منه مأخذها لا يعرف كيف يتحكم بها فتثقل مشيته وتجعلها مشية متكلفة الى حد الوقوف التام وهو - الطاهر انغمري - يتقوقع على ذاته وينطح السماء برأسه كأنه ذلك الاعمى الذي يبغي الخروج من دوامة متشعبة بمجرد استعمال عصاه البيضاء ويبحث بتردد ويتحسس الاشياء والاشخاص جاهدا في الخروج من المأزق الذي يتراءى له ثم يختفي كانتحاء قصديري لماع باهر ولكنه يعرف علم اليقين أنه سقط في قعر مصيدة شرنقتها له المدينة كلها من جهة والميناء من جهة اخــرى بوزره وسلـعه وعلبـه المهربـة وجماركه التي اشتهــرت بتأسيس الرشـوة على قـاعدة علميـة وقد فهـم كــون أنه أصــبح سجـين فـخ نصـبه لنفسه فتمخضه الايــام وتتعته فيتحول الى شــيء أشبه ما يكـون بالصدفيات التي فقدت عمودها الفقري منذ ما قبل التاريخ ويذهب هائما على وجه الارض متناسيا تلك الصورة وهي تنبض تحت قماش لباسه داخل من الشمس ومن كدمات الآلات وكأنها حواجز صنعت لارهابه ومقته وهو لا يفهم منها شيئا فينبجس من بين ضلوعه كرب بنفسجي يدبغ بشرته بلون ثوبه البالي الضيق فتشرئب ذراعاه وكأنهما ملقطـان كهربائيان يغمزان للافق عندما يطلى بحمرة الشفق ويضرب العـزلة بأضعاف الاضعاف فتسكن السكينة وتخبو الضجة ويتقلص الصخب شيئا فشيئا حتى تهدأ المدينة ويتوارى الميناء ويتلاشى هدير البحر ذاك الذي طوقه بحديده وآلياته ويبقى هو لوحده مصرعا للهواجس ومصبا للهموم والمشاكل فيعتريه الخوف ويرتبك ويأبى الرجوع الى بيته خشية الانفراد بالصورة دون سواها في رهبة العزلة ..

لقد فقدت الصورة البنية لونها ولم يبق له شيء سواها وقد دارت البلاد ألف مرة ومرة على محورها وسيسانها ودارت المدينة نفسها تلك التي لا يسكنها الا منذ فترة قصيرة ولقـد فتحت الان على مصراعيها مائة مرة ومرة وبقرت صباحا ومساء فتشققت مبانيها وتصدعت محلاتها وبقيت القضبان الحديدية ثابتة من حواليها واعوجت

الاشجار النحيفة اعوجاجا مخيفا اما الارض فتفككت تربتها وتلاشت امعاؤها والجذام راح ينهش المواد الخام بعد ان فترت وقد غطى الزنجار الطرق زاحفا عليها زحفا الى حد انه لم يعد يعرف اي شارع من شوارعها ومن ازقتها وسلالمها ومن جسورها وقد كان غائبا مختفيا بين طيات الحبال التي ابتلعته وأصبح اسطورة تتحدث عنه الجرائد وأصبح فزاعة يخاف منه الاطفال قبيل النوم وذئبا تطارده الشرطة فتدفع في اثره الكلاب التي الفت رائحة «شاشه» ذاك الذي تركه من ورائه وكأنه حدس لنفسه انه سوف يعيش منذئذ عاري الرأس مكشوفا فراح يريش ويبرى بين حر الصيف وقر الشتاء فلا يعرف الا الاندلاج ولا يشرب الا من الضحضاح ودخل اللعبة مع أعدائه وأصحابه وقيل أنه خان ثم انه انتحر ثم انه سجن ثم انه اعدم ثم انه مات بعد أن امتلأ جسمه بخراج الوباء وهو لا يدري شيئا عما يدور عنه من حكايات ومن قصص فيعمل على نصب الكمين للجيش الاجنبي بدون أمر سلطة أو استشارة أحد وما أن ينقصه السلاح حتى يهاجم احدى الدوريات يروح يخزن تحت الارض البنادق والقنابل فلا يتورع من استعمالها ضد أولئك الذين اختلسها منهم قائلا في نفسه انني أنا من الذين يسددون ديونهم حتى اذا افتقر الى العتاد الحربي صنع هو منه بيديه ما يكفيه لتحطيم فيالق العدو تمشيا مع علمه الالماني فيما لقنه من تعاليم : علبة سردين وفتيلة وقليل من المسحوق وكفى ولكن أين الالماني الآن ؟ لا بد أنه لقي حتفه وأين بو علي طالب ذاك الذي قدم له في يوم من الايام هذا الالماني ؟ لا بد أنه قتل هو أيضا ! وأين الدكتور كنيون ؟ مات هو الآخر وقد أعلمه المذياع بذلك يا للخسارة لقد كان طبيبا ماهرا شفاه من السل ومما طغى على عقله في آخر الامر من هواجس حول معه ولو تكلم لقيل انه في حال من الهذيان وبدأت ذاكرته تمتلىء بالكتين كأن دمه يغلي على غلاية الشاي تلك التي لم تفارقه قط وقد كان يطوف البلاد راجلا يحملها اما على ظهره أو فوق نار قلبه المتأججة وأخذ الازل يدب في جفنيه بخطى حثيثة وباتت صورة الحمامات السمينة لا تفارقه

حتى في النوم متسائلا «ولم لا يذبحونها» ؟ هي الاخرى تمشي بخطى حثيثة تارة ومتباطئة طورا وترسم متـاهات على أرضية الحديقة كزئبق مبلول يتقاطر لعابا ويتريل هو الآخر عندما يتذكر عذارى سيدي عبد الرحمان والشمعدان النحاسي الضخم الذي يسيل ويسير كالمعقوم الذي لا يعرف للاسهاب معنى وقد محا من ذاكرته الجمـل والصور والكلمات والسفاهات كلها (أزبي !) ثم راح يزيد ويبالغ مستخرجا من شدقيه الكلمات على ألوانها نادفا من بين أسنانه الحروف علـى أشكالها وما توصل الى ذلك الا بعد تجربة طويلة تعلم فيها كيف يحاور نفسه تحاورا داخليا وكيف يغضب على نفسه ساخطا فيقرر انه لن يتحدث مع ذاته طيلة أشهر طوال (ثـم يفرض على نفسه التسامح فيفتح الحوار الداخلي من جديد بعد صمت طال أمده ويحدث أنه ما ان حاول بادىء الامر خاصة أن ينطق بحروف النوم والغيبوبـة وقد اعتاد الحذر والالتباس والعزلة حتـى أصبـح يسارع الكلمـات فيخدعها قبل أن تخدعه فراح يستغني عن الاوراق الادارية فلا بطاقة الهوية يحمل ولا شيئا آخر يمتلك ما عدا تلك الصورة الملعونة المشققة الذابلة المجروحة الى حد انها صارت لحمة الورق البراق تظهر من خلال الخطوط المتعرجة فتشكل رسوما مجردة لا يفقهها ولا يحاول فهمها وقد قرر منذ زمن طويل حرقها ولكنه لم يجرؤ على ذلك وما ان يفكر في محوها من ذاكرته المرهقة وا لمثقلة بالذكريات حتى ينصب في قلبه كرب جارف لا معنى له قط كرب مغلـق لا يخلـو مـن الابـواب الا أن مفاتيحها أهملت وزحف الصدأ والقيىء والمدة عليها فاصطدم بالابواب الموصـدة فخاف في الحقيقة أن يفتحها ولماذا فتح كل هذه الابواب المخفية وراء الكلمات ؟ خاف أن يجد وراءها الاقزام يلعبون كرة القدم بجماجم الرفاق القتلى وتعلم الستر (أين الالماني وأين علي بو طالب وأين الدكتور كنيون ؟) لماذا هذه الاسئلة كلها والجواب مستحيل ؟ لولا الصورة التي يحملها كما يحمل المجروح رقاقة خشبية تحت ظفره لكان قد حطمها ولا بد من تحطيمها اليست وثيقة فاضحة تعبر اكثر من اية ورقة رسمية اخرى المزركشة بالطوابع وا لملونة بألوان القزح السبعة

تعبّر احسن تعبير عما حدث في الحقيقة ؟ بعد ان يصطدم بالابواب المتكاثرة المتداخلة يأتيه سؤدد فيحاول ان يفرض على نفسه تعايشا سليمــــا مـــــع الاشيـــاء (حجرتــــه القصديريـــة وغضارة الحبقـــة والشمعـــة المستطيلـــة المغروســـة في التربـــة الخصبة وشظية مرآته المشققة التي أهراها السوس والتي يستعملها لحلق ذقنه وثوبه وبعض الاشياء الاخرى التي لا شأن لها باستثناء الغلاية فهي لم تفارقه منذ أن كان مدرّس قرآن وفلاحا فقيرا في دوار العشبة والحشــرات (الناموس والقمل والذبــاب والبق والنمل) والصئبان الخ ...) والخزعبلات (انها لا تحصى) الخ ... وفــي احد الايام يقلب الوضع ويسعى للسيطرة بكل دقة وانضباط على حواسه ولكنه سرعان ما ينسى قراره ويستغل اصغر سعلة ليتذكر الدكتور فيعاود الكرة ويذهب كلامه هباء أحمر قان تغشوه تعتعة زرقاء تميل الى الخضرة فيصيبه البكم ويمزقه الحنان وعندما تتكور حبات الدمع في محجرية يترك الازدراء يسطو علــى شعــوره خارقا عاداته وتقاليده ويذهب الى سيدي عبد الرحمان فيسرق الشمع المتراكم على ضريح الولي ويحدق في اجمل عذراء يراهاوقد رقرقت عيناها دمعاخاثرا فيسلمها مكتوبا وهو يعلم جيدا انها لا تعرف قراءته بل تظنه حرزا فتنقعه في الماء وتشرب منقوعه وبعد عودته الى حجرته يطوف حولها وحول الكلمات المتكدسة في خزانة رأسه وقد فرغت وأقفرتكما تفرغ خزانة ايّ نـــزل لا يستعملها الزبائن وهم يكتفون عادة بوضع حقائبهم على السرير مستغنين عنها وعندهــا وبينمـــا هو في طوافه يكتسب عاطفة بلورية تترك في فمه مذاقا من الصابون برغوته المملوءة فقاقيع وكرويات هوائية تتراوحألوانها بين الازرق والبرتقالي لكن الاطفال لا يتركونه مع أشيائه وحشراته وكلماته فيهرعون الى سطوح الصيف ويرجمون داره القصديرية بوابل من ريقهم رغم القيظ وقلة الماء فيخرج هاربا وينزل من عرينه يجتاح شوارع المدينة محاولا ضبط أفقها وعندما يعجز عن طوافها لتهربها مع تغيير حدة الضــوء يأخذهو بتشطيبهابدون ما جدوى فتدبالقشعريرةفي البشرة ويتسابق غروب الشمس ويعود مرة أخرى الى ضبط بنية المدينة فيتفجر حجمها

بين يديه ويتطاير لمعانها كشرارة حريق آت من بعيد : سيارات الشرطة تجوب الشوارع ولم يبق أحد سواه (الطاهر الغمري) وتطلي بأضوائها الساطعة جدران المباني وآفاق السماء فيطوقها بكثافة خياله ويفكر في اخراج الصورة من جيبه ويتردد ثم يعدل فتبقى تحت ابطيه لوعة تسيل حبرا أسود ينعرج مع تعرجات ضلوعه ويمكث هكذا فيما السيلان مستمر لا ينتهي حتى ولو استقرت الكلمات ويطلع الفجر فيشكل لغما فقد شظاياه وتسكن الازمة في عرين بطنه بعد ان يفهم ما في الواقع وتعنته من مرارة فيضجر لسماعه الكلمات الصباحية التي تنبع متقطعة بين سعال وصفير وبين بخار وسراب متصاعدين فوق جليد الاقداح الوسخة ساعة تفتح المقاهي أبوابها وتبدأ الحافلات المكتظة بالخلق دورانها تاركة وراءها حشود المنتظرين على الرصيف فما لبث ان بدأ يخالجها الشك في البلبلة فالعنففالعراك وتثقب الكفريات الصباحية آذان المتزمتين الذين يقودون علبهم الفولاذية على نغمة الموسيقى الوترية وفجأة تمتلىء الشوارع بالعمال والبطالين والشاغرين وباختصاصيي السوق السوداء وبائعي التبغ والكتع فيعود الى بيته ليجد بابه مفتوحا والحبقة مفتقرة الى شمعتها المسروقةفيخلد هو الى النوم فيزور في منامه سيدي عبد الرحمانويحلم بأنه يولج سفوده في عذراء تبنفسجت حلمة ثديها الايمن واحمرت حلمة ثديها الايسر وصارت تشتعل وتنطفىء على وتيرة غمازة سيارة فخمة بينما يحاول أن ينظر الى ما يتدلى بين فخذيه : ذكره أم شمعة طويلة ومستطيلة ؟ وما ان يفيق من نعاسه حتى يشعر بأن قلبهيتفتح في ماء آسن كزهرة مسك لا تعبق الا في الليل فيطوقه شبق معدني ويؤلمه ذكره فيأخذه بين اصابع يده اليمنى ويبدأ عملية الذهاب والاياب حتى يكتظ جسمه بحليبه الثخن وتتفجر فوهة بين الرغوة والزبد فيأخذه الدوار وتدور الحجرة حوله وكأنه اصبح ملتقى النقاط او محور العالم بهندسته الوردية وأثيره وكافوره ونعناعه وحبقه فيعبق حلقه بمذاق العزلة ويخرج الى عتبة الحجرة يتقيأ صفراءه التي راحت تزرورق ازريراقا وتغلي حتى اذا ما مست الارض وطوق الغثيان صدره ركض الى فراشه يصرخ ويصرخ حتى تعود

اليــه ذاكرتــه والايــام المألوفــة فيجـــف خوفــه ويأخذ سترته من على الكرســي الجاثم الى جانب سريره يستعمله كمنضدة وخزانة ومكتبة ومكتب يكتب عليه لياليه ويخرج من الجيب الايسر الداخلي الصورة البنية المرقوشة بطابع الاعوام والشوادن ويروح يحدق فيها ... من انا ؟ اين انا ؟ اسمي ؟ لقبي ؟ مكان ولادتي ؟ وشمي ؟ انا الطاهر الغمري ٥٠ سنة من مواليد دوار العشبة بمنطقة سبد واين تقع ؟ وهل ما زالت دارنا قائمة على اساسها ؟ انه فلاح فقير كان يعلم اطفال القرية القرآن عندما يعض الشتاء اليابسة ويغطي الجليد الاشياء ويريحنا من الحشرات فلا بعوض ولا ذباب ولا نمل ... اما بعد ؟ يتفرس في الاشخاص الماثلين في الصورة كل على حدة : ايــن الدكتور ؟ نوبة سعال تغمره ويبصق بصقة زخمة ثخنة تنطلق نحو السقف القصديري المتوج ثم تعود اليه وتتفجر على وجهه بشكل نجمة خماسية من زجاج البراكين عندها ينهض مهرولا الى الباب يحاول الدخول في سرواله ويتوجه نحو المدينة حيث الشمس تغلي في غرة السماء وقد اصبحت شاشة عملاقة وضبابية تعكس على صفيحتها بنية المدينة وتشابك خطوطها الملتوية المتداخلة بعضها ببعض وما فيها من شوارع ومبان وحدائق حيث تسرح الحمامات وتمرح ...

وكلما مرت سالمة بالدار القصديرية نازلة بمشيتها النزقة نحو وسط المدينة راوغها حب الاستطلاع ، فالصندوق الذي تكوم عليه الصديد وهو يسيل قيظا في الصيف وصردا في الشتاء والذي رسمت على جدرانه الخارجية ما يشبه النوافذ المطلية بلون فسفوري ناصع يغطي خلفيتها المزعومة ستار بين اليقظة والنوم فلا هو شفاف ولا هو معتوم يطغى عليه نوع من الترهل المحبحب وكأنه من نسيج القطن المنفش خيطا خيطا يجعده ويجعل الريّح الوهمية تنفخ فيه فيلــوح لهاان النوافذ هذه ليست في الحقيقة نوافذ مرسومة بل هي مصنوعة من ورق مبرغل صبغته الشمس والمطر والضباب بلون يستحيل تحديده أو نسجها العنكبوت بريقه الزجاجي اللافح ليخفـــي ما في وراء

الامور من أسرار ويكتم ما في سريرة صاحب السكن الغريب من خفايا وهو مركب من مختلف المواد ومزخرف بحبات جربية تلمع لمعان ما بين السخام والسنا وقد خيط بخيوط شبكة ذات المناهج المتشعبة والملتويات المستقلة الفوضوية من جميع نواحيها وهي تغلي بكل امكانياتها وطاقاتها ومفاهيمها وبنياتها والوانها وكأنها (الخيوط) نقشت على الخشب والجبس والحديد والقصدير والطين بازميل راح يهدر هذيان البحر المتصاعد بخاره الى اعلى الربوة حيث وضع الهيكل الجهنمي كنقطة ضخمة على حرف يدل بايجاز على تضخم الكون وتفاهته في نفس الوقت وفي آن واحد والكل يشكل مخطوطا هنديا لا شكل له ولا حجم كما ظهر لها للوهلة الاولى سهل الفتح اذ اغلق بابه بسلك رهيف كان الماء والجفاف قد مزق نسيجه فتلوى وارتعش كعقيق مولود تركته امه في مهب الريح ، وسرعان ما تتغلب سالمة على ميلها اللزق فترتبك عند تعقد احشائها وتخاف ، فتفر نازلة نحو المدينة حتى تبتلعها وتنسيها شعورها الذي مزج بخليط من الاحاسيس المتقاطعة المتضاربة المتشابكة المتطاردة المتلاحقة ٠ كانت ترغب في معرفة فضاء المسكن الداخلي وكيفية ترتيب الاثاث ولون الجدران الاربعة وكأنها مصرة على تجاهل من يسكن الصندوق القصديري فتتكون في نفسها فكرة استقرت فيها نهائيا بعد اشهر من الاخذ والرد قائلة ان المنزل مهجور ولعله لم يكن ليسكنه احد البتة ٠ فلماذا هذا النسيج العنكبوتي من الورق المقوى وهذا الحديد المعوج وهذه الاسلاك الشائكة والاصص المزهرة والنوافذ المبرقشة بغشاوة بيضاء سمتها ستارا ؟ اماهوفلم يكن ليعرف حتى وجودها ولا سمع حتى باسمها وكان صداها يتهاطل مدويا مع المطر العمودي وهو يكتب في كراسة لياليه كل ما كان قد رآه في يومه ونهاره انه يكتب فوق تلك المنضدة التي يستعملها لشتى الحاجات من اكل وشرب وكتابة وترصيف الكتب وقد وخز وردة صفراء في ثقب كان قد نحته في وسطها كسرة امرأة فتحت للناس فخذيها ونقش جملة لم يغيرها منذ أن كتبها يوم أتى بالمنضدة من سوق الخردة ويرى نفسه جارا قدميه وهو تعب فيحملها ويكفر ويشتم

الادراج المنزلقة منها فيعيدها الى موضعها ويصعد نحو الربوة التي اختارها لتشييد عرينه المتجوسق قائلا : هذا جنون لماذا احمل هذه المنضدة ولم أشتر في البداية سريرا أو مطرحا أو بساطا انام عليه أو وسادة على الاقل أجد عليها في الصباح (أو عندما أستيقظ أيا ما كانت الساعة) رائحة أحلامي أو (من يدري ؟) حتى أشكالها اركبها قطعة قطعة فأصففها وأدندنها حتى لا تنزلق بين راحتي أنا من يوهنني السعال ويقززني أريج الغلاية الفاتر وهي تزمجر ببخارها فتتشعب سحابة في رئتي وقد كان الدكتور يعالجهما برفق ويقول قبل الفحص بالشعاع كيف أحوال وردتيك اليوم ؟ كان يهزأ بي ؟ يعطف علي ؟ حنونا كان الدكتور ... يا لها من منضدة ملعونة تقلص فضائي وتخنق آفاقي وتحتم علي ان أملأ كل درج من أدراجها الثلاثة والا فلم هذه العناصر الخشبية وبماذا أعمرها هل بسلّي أعمرها أم بسعالي أم بدخان السجائر وبمعدن الجو الزخم بحيث انني أحاول كشطه بملعقة صغيرة أو بشوكة دسمة فيجلفني الهواء المختنق وقد أصبح زجاجا جليديا مهرسا ، أم كشطه بنكهة ولم اغسل فمي منذ اسبوع بأي معجون كان لا مال لي ولا امكانية للعثور على المعجون مهما ازداد عدد الصيدليات أو الحوانيت او خلفيات الدكاكين المدلهمة حيث يحسبون الاوراق المالية ويتعوذون من الشيطان ؛ وهو يتمتم ويتلعثم ويسعل ويقف حتى يسترجع انفاسه (الدكتور كنيون هل مات في أوراس أم لم يمت ؟) واذا ما كان الامر على غير شاكلة راح يكفر ويضرب المنضدة بقبضتيه الصغيرتين العظميتين الناتئتين كأوتاد سلكية ، ويصعد نحو الربوة حاملا السماء على كتفيه والمنضدة على ضلوع ظهره البارزة قائلا ... ونقش جملة لم يغيرها أبدا منذ أن هجاها عندما اشترى المنضدة البالية القديمة وفكر آنذاك أن يزرع في احدى أدراجها حب الكمون وساق النعناع أو حتى البطاطا وهو لا يأكلها أبدا (كشرة شعير ولبن خثير) لكنه يسمع الناس يتهافتون عليها ويتحدثون عنها بانفعال فيزيد الطين تربة ويفكر في فلاحة البطاطا

ثم يعدل عن هذا المشروع مرددا كلما سمعهم يتحدثون عــن نقص المواد الغذائية في الاسواق العامة : كسرة شعير ولبن خثير ! هجاها حرفا حرفا ونحتها ولم يغير الا لونها فدهنها بما طاب له من الالوان وذلك بصفة دورية مرة كل يوم أو مرة كل أسبوع أو مرة كل شهر (احمر قان كـ ٠٠٠) يصمت ٠ او مرة كل عام ليضمني ظلهم ٠ لا يغيرها بل يمرر المنقاش في حروفها شكلا شكلا مدة ساعات طوال : ليضمني ظلهم ٠٠٠ ليضمني ظلهم ٠

وتخرج سالمة من عملها ذات يوم سائمة ضجرة كافرة (وهل تكفر المرأة ؟ قال لها ذات يوم لم أسمع أمي تكفر أو تجلجل أو ترفع صوتها أو تتنفس الصعداء أو تتنهد فهل تكفر المرأة ؟) وفــارت فائرتها تريد الرجوع من فورها الى دار أبيها حيث يهرع الاطفال الاربعة الى الغرفة بعد أن لفظتهم أمهم من فرجها وغسلـت أيديها بمــاء اللامبالاة ، فترفع اناء الغضب في القلق شراعا أسودا (أو بنفسجيا؟) وتترك من ورائها الرجال يسبحون في منيهم وقد صعد الى أفـواههم ويتخبلون تحت سطوة شبقهم وهم يحاولون صيدها بكلمات خنوعة وساذجة (ليتهم يعرفون كيف يغازلونها لكنهم قضبان لا أكثر ولا أقل ، قضبان واقفة حمراء مقلوفة فيتأرجح لعابهم وصنانهم وقلحهم داخل سراويلهم من سرتهم الى آباطهم ٠٠٠) وتهرول كافرة (أي نعم يا الطاهر الغمري كل النساء يكفرن في هذه البلاد وكلهن يعرفن الكلمات التسعة والتسعين التي لا تعرفونها أنتم الرجال لان الكسل ٠٠٠ والاحرف الثلاثة عشر الرخوة ٠٠٠ و٠) فتدور في المدينة وكــل ابوابها مغلقة هذا بالنسبة لفرجها الطري الذي تحمله في نايلونها كلوزة مزغبة ورخوة وهشة فيها شق حيث يجتر الرجل حقده ويزرع ضغينته وهو يكح يريد الدفء ولا يجدها الا هي (سالمة) حتى اذا ما بالغ أحد الازلام ادارت وجهها في اتجاهه قائلة : « ماذا تريد ؟ الجنس! ٠٠٠ ! انفك في السماء وأستك في الماء ! فيخاف ويهرب مغيرا طريقه قاطعا نحو الرصيف الآخر ٠ وهكذا تدور وتحوم ٠ تركت المكتبــة والمكتبات حيث تشتغل وتقيأت على الكتب وخرجت والدوار يخاتلها والجــوع يميعهــا والكلمــات تنفــرط مــن صدرهــا الـــى

جمجمتها حيث تزعم وتكتت ، فتشعر وكأنها حلقة مفرغة لا تدري اين طرفاها ووجهها تبلله حبات الدمع كالاقراص التي في حقيبة اليد التي تحملها ولا تعرف لماذا تحملها أتحديا ، أرغبة ، أشبقا ، أتفاهة ؟ لا تعرف • ووجهها المغسول بمطرها الداخلي يرذرذ النسيان ويترك مذاقا كعقابيل تفل القهوة التي تشرب منها عشرات الفناجين وثجير الفواكه المصبرة في الكحول التي لا تحتسيها • وقتها تبكي مسرعة نحو الربوة حيث لا بد ان تمرعليهااذاماارادت ان تستبق الليل وقد بدأت الشمس تزحف خلفها نحو المغيب ••• لا شيء في المدينة ! واجهات كمومسات تركتهن بهرجتهن فجأة أو هواجس نعاسية خضبها الغسق بمسحوق العجائز المتراكم ••• لا شيء هناك سوى المقاهي المملوءة فراغا وعويلا أصم وحركة سرمدية لا هوادة فيها • لا شيء سوى وجهها المغسول بالنسيان وهي تحاول محو العلامات التي اختلطت في ذهنها حيث البحر يتصاعد اليها لا يحمل أي رقم وقد انبسطت عليه صفحة الليل المبهرة بأضوائها الكهربائية ذات الالوان المختلفة وتعكس الاشياء وقد راح فرجها المغسول يسيل سيلانه الانثوي وهي تحس بالقشعريرة تدب حثيثا تحت جلد المساء المتساقط وقد ازدحم بالامعاء المعدنية بين خضرة ثخنة وزرقة فاترة عندما تعريها الاعين وعندما يتفجر في قلبها صيف مالح ينام فيه تعب النهار ومذاق النحاس وماء الحيض ومرارة المبادىء الفولاذية • وتزيد في سرعتها (وهو لا يعرف عنها شيئا • يستحلم • يزني • يكفر • يضرط • يبعثر نخاعه وتشتته الايام • الصورة ••• الصورة • يريد أن يختفي في خزانة جسده ، وهيهات فانها مغلقة • يتقوقع • يغرس الكمون • يزرع الشمعات في الحبقة • يخيل اليه أنها طليت بزرقة الموت الحبرية • بلى ! لا يعرف عنها شيئا • يبحث عن نفسه • ليس له بطاقة هوية ولا أية ورقة رسمية والسلطة تدور في الشوارع • يتهرب منها • يلتصق بالحيطان • يحتك بالاشياء والاشخاص • تعمر ذاكرته بالبواخر المستلقية • أين هم ؟ وأنت فلاح فقير لا تخالط مسّاحي

الاراضي • لكن اللي فات مات • بلى ! والصورة تنخر ضلوعه • درست القرآن وتشدقت أنه كريم وضربت الاطفال واستغنيت عن صرخاتهم : تبت يدا أبي لهب ••• ومن بعد أي بلاد زرت وأية قرية اكتسحت ؟ الطبيب داواك ، لا نقـــاش في هـــذا ! ارادوا ذبحه • رفضت • قدمت نفسك بديلا عنه وقربانا • بطل أنت ! لكن من سوف يأخذ بثأرك •••) وهو لا يعلم عنها شيئا • تصعد العقبة المؤدية الى منزل أبويها حيث الضجيج والهجيج وتبتعد المدينة عنها • يبدأ النزوح • تهدأ أعصابها • تمر الحافلات مملوءة كعلب البق وقد كان أخوها يروضها ويدربها على الالعاب البهلوانية : مات وهي صغيرة وكـان سكيرا لا يصحو أبدا ويدخل بعد جنون الليل فيجد الام تصلي متضرعة فيسقط على السجادة طالبا المغفرة ، سكرانا غالقـا • صوفيا • رهيبا • يبكي كالطفل الصغير ويمزج دموعه بدموع الولية فتأخذه من على الارض وتقوده الى فراشه ، ولا ينام الا اذا حكته عن خرافات وخرافات وقدمت له احاجي لا يفقه منها شيئا وقد بلور السكر زجاج ذاكرته ، فينام وأترك أنا فراشي باحثة عن علب البق التي تعـج بحركتها ودورانها • كان قد تعلم شرب الخمر وهو في الخامسة عشرة من عمره • مات ولم يبلغ العشرين • احتفظت بعلب البق حتى هرمت ومات البق الواحدة تلو الاخرى • من اين كان يأتي بالحشرات ؟ تمر السيارات الفخمة محشوة بسائقيها وعزلتهم • يتمهل ويوقف أحدهم سيارته • يفتح الباب من جهتها • أين ذاهبة ؟ من الممكن اصطحابك الى دارك ؟ تفضلي • لا تخافي ••• اني متزوج ولي أولاد كثيرون ••• لا تنزعجي ••• أنا رجل محترم وأشغل منصبا عاليا جدا ••• فلا ترد عليه • تسرع • (قضبان ! قضبان ! زبوب ! مقلوفـة • مطهرة • مختتنة ••• ولمجرد هذا القضيب تحسب أن •••)

فتحت الباب بدفعة من يدها فخفق ذهابا وايابا ومكثت هكذا فيما راحت الدفة تهتز وتئن• كان نائما عريانا وقد انتفخت ثيابها المبعثرة في الحجرة من فرط الفوضى التي تكدست على صورتها فبدا وكأنه

عريق نجا من الموت وعلق ملابسه على حبل معوج تجف • كان منبطحا على ظهره في نومه وكانت زهرة ذكره المتنائمة تنبجس في سبابة وابهام يده اليسرى المتدلية بشيء من الهون الشديد الذي يهيمن على النائم قبل ان يتغلغل النعاس فيه تغلغل الموت في الجسم • نظرت اليه وهو نائم • خمسون سنة ؟ ستون ؟ انه نحيل الجسم ! قصير القامة والوردةالصفراء مغروسة في سرةالمنضدة لم تر في حياتها قط رجلا عاريا في مثل هذا السن • أخذت تتجول بخفة خافتة داخل الممر الضيق بين السرير والحائط• لا نافذة هناك ولا أية فتحة وما تعودت ان تشاهده من الخارج وحسبته ستارا شفافا من القماش الموصلي وهو في الحقيقة مجرد رسم • اقتربت من المنضدة ونظرت مليا الى الوردة الصفراء وهي تلمع في عتمة الحجرة رغم اشعاع الفوانيس العامة في الطريق وسرعان ما تعودت ظلمة الغرفة وأخذت الاشياء الاخرى تظهر لها كأنها تنبثق من المنضدة الخشبية نفسها : كتب ودفاتر وكأس مملوء بالماء يلمع وينبض بنوع من الانمغاط يلف به الهواء من حواليه مثلما اعتاد عليه في الحلم حيث تنمحي بين احجام الاشياء كل علاقة • تأخذ سالمة الكأس تشرب جرعة • فيدب الهدوء فيها ببطء وكأنه ما تركها قط طوال اليوم كله • لقد نسيت الان شظاياها وتفجرات الايام وطقوسها المعتادة • وتضع الكأس في مكانه فتتحرك صفحة الماء وتتزايد رعشاتها المبهمة المشيرة الى شلالة حيث تحجر المحيط حولها وتجلد تحت عامل العتمة السائدة ، اذ تفتحت المادة امامتدخلات المياه الاخرىالتي تتدفق في الاحلام فتتحرك معها صور ذهنية في رأسها يطيح بها عالم اسفنجي وردي مدلهم مطوق بحلقات متراكزةومتراصة لا فرق بينها تبرز منها تشنجات وانكماشات مطاطية حيث ليس للالوان والظلال موضع لها داخل هذه المنطقة المقيتة من المخيلة وهكذا تستطرق سالمة الى الاشياء وتغوص في شرانق ملؤها الهلام والصمغ والحبر البنفسجي والاسماك المتجرة ، ثم تجلس على الكرسي الفريد وتسهو وتسهو ثم تغفو •

الفصل الثاني

القط يستنشق ظله ويعيد الكرة متواركا داخل مجال فصله بسهوكته وقد بدا متقلصا من فرط الحر الذي يموّج الهواء فيبهره وهو ذاهب وراجع داخل حلقة مفرغة وكأنه طلاها بسويداء ما فتيء يتشممها والظل يتلاشى رويدا رويدا ثم يزول بسرعة فيهرع نحو الجدار المرقوش بالجير النيلي فيلمع لمعان الملح في السبخات البلورية الموشورية حيث تتفتق الالوان وتعلو في السماء البيضاء اللمساء كصفيحة معدنية ركبت هكذا بارتجال وعجلة كسهام جارحة وهو (الحائط) المخدد بالصدعات المتراكمة المتراكبة والخدشات الملولبة المتداورة المتكعبة ، فيحتك القط به وقد فهم أن الشمس استقرت نهائيا في وسط الدار ولن تنفعه الحيلة فيتقوقع على ذاته وتخمد فيه كل حركة ويمكث هكذا ساعات طوال منطويا على نفسه يحترق تحت كابوس الرائحة التي تفوح من النعناع الجاف والطماطم المجففة وهي تتعطن في أطباقها الخشبية المستطيلة الشكل واللحم المقدد الأنص بصوف مزرورقة تسوس أطرافه بصديد الملح ، وقد نشر على حبال متراكبة على شكل قطري تكسر الفضاء وتعوجه بحيث تستولي عليه أشكال هندسية غير مألوفة · ومحاولات القط السابقة بغية التخلص من ظله انما هي منوطة بهذه الروائح العابقة التي تزيد من حدة القيظ وكأنه يتهاطل شاقوليا كحريق زاحف نازل من السماء بخيوط جهنمية عمودية تتقاطع وشرائط القديد الافقية· وهكذا يبقو

المشهد مجمدا ساعات طوال تحسبه صورة ميتة لا حركة فيها ولا حياة ففاجأت الاشياء كلها في فناء الدار (القط، الجدران) المطلية بالنيلة والملح ، أواني الطماطم المجففة ، أكداس النعناع الجاف ، حبال القديد المعلق الخ •••) ثم يرجع الظل (تقول سالمة ولماذا هذه الزخرفة ولماذا هذه الجملة وأنت تعيش في ظلمة أبدية ؟ لماذا تريد أن يحضنك ظلهم ، ألا يكفيك دهليزك أو بالاحرى زنزانتك ، زنزانتك الوجودية ••• أما عن الصورة ••• تريد ابادة الزمن وسحق الوقت ••• لا رزنامة ولا يومية ولا مناخ (كلمة قديمة اختلست منا ورحنا نستعمل كلمات فارسية ؟ اهروب من الزمن ايضا ••• ؟) وأنت صورة ، نسخة طبق الاصل عن الانسان العربي ••• تخاف من الاسلاف وتتفاخر بهم • الاسلاف يبهرونك ويقززونك ••• يا لمشكل الزمن والفضاء عند العرب! وتريد أن يحفظك ظلهم ••• لماذا ••• أريد أن أفهم • وهذا الصمت الرهيب ••انك انت • لا تتكلم بل تحاور نفسك فقط• تتحدث مع نفسك• كم من مرة سمعتك وقد ظننتني بعيدة عنك ، تتمتم وتلغو ••• انت لو نحت" هذه الجملة على جبينك وشما رائعا لافلحت ••• عوضا عن ان تكتبها على المنضدة وقد نخرها السوس وزحفت عليها نبتة الكمون ••• تريد أن أتكلم ، أن أقص عليك حياتي ، اني أفصلها ، أخيطها بخيوط الكلام واللغة ، أضع فيها حبة شعر ونتفة شعر ورشة جاوي •• هل هناك من مزيد ؟ ثوم مسحوق أم فلفل مهروس أم بصل مقطع ؟ القط وسويداؤه ؟ من حدثك عنهما ؟ وسط الدار وحالة الطقس ومؤونة الشتاء التي لا تجف الا في الصيف ••• تسكت أنت وتتركني أتخيل في شرائط الذاكرة والمخيلة ••• لا ، لا لم يمت أخي ثملا على سجادة أمي ••• خرافة ••• دعايات ••• وأنت لا تقول شيئا عن رفاقك وهذه الصورة الملعونة انك تحملها كما تحمل الثكلى خصلة شعر ابنها أو المطلقة حرزا قادرا على ارجاع الزوج المتمرد المستنكف أو العاشقة الولهانة خرقة حبيبها التي استعملها بعد الولوج في البيت ليمسح بها ماءه أو أو ••• من هم ومن أنت ؟) يرجع الظل الى وسط الدار ويغطيها • يستفيق القط فهو لا يريد الاستقرار وعندها تتسرب

الحركة في المكان الذي كان خاويا فلا يلبث أن يمتلىء بأفراد العائلة ولا تلبث سالمة ان راحت تداعب القط فيتمطى ويلفظ شيئا منكابوسه وسويدائه ونعاسه : يا لك من قط جبان اتخاف حتى من الشمس ·· لن تغرنك الطرافة ··· أنت قط أسود وأبله لا أكثر ولا أقل ··· تعال تعال الي أضمك ··· وتأخذ سالمة نوبة من الضحك الداخلي · تضحك وتزقزق ولا يسمعها أحد · (ليضمني ظلهم !) والقط الجبان الاسود يفقد ظله ويسترجع شيئا من شجاعته فيهز رأسه نحو عصافير السماء وقد آن أوان الساعة الحريرية فتتجمع الطيور من كل حدب وصوب وتحلق مثرثرة وتخاطر بنفسها وتمر بالقرب من القط الاسود فيحاول هذا بغباوة مطلقة أن يختلس واحدا منها بدون ما جدوى · وتضحك سالمة من رعونته ويتساقط الليل غزيرا تساقط الحبر الذي يدلو أسطلا من الجنون على جدران المنزل وتبقى سالمة واهمة واجمة ، فتلاحظ كيف أن أباها يتربع مستوليا على صدارة المكان فيلوح لها من بعيد أن المادة الليلية المتدفقة لا تكفي لبعث الجنون في أرواح العصافير ولبعث الذعر في جسد القط الاسود ، فتأتي هي أيضا وتحتك بلحية أبيها فتطليها رخاوة وحنانا · وفجأة يخفت الضجيج ويموت الشارع على عتبة الدار ويذوب فوق تربة الجنينة فتتملس وتتوبر ضبابة خفيفة وصيفية فيها الندى وفيها العنبر ، وتتهول الطبيعة في المصابيح ويتراكم البخار الشفاف على زجاج النوافذ واذاك تشعر بأن الورود الصفراء بالالاف تنمو في رأسها ، فتشقق خلاياها العصبية وتتفجر براعيمها وتتدفق في دوامة الاضطرابات الهوائية والارتجاجات المكثفة وكأنها (سالمة) أصبحت واديا من المعادن السائلة ، فتتساءل : حيض أم قيض ؟ فهي لا تدري انما تحس بالصبوة الى التكور والانطواء على ذاتها تسطو عليها فتحسب نفسها وكأنها تحولت الى كومة متقوقعة من الصوف اوشبكة عصبية طغى عليها شعور الانتظار على رصيف محطة فاترة تكدمها خطوط السكك الحديدية وهي تفر هاربة نحو الافق متقاطعة متكاثرة ، متراكمة ، متراجعة ، متضاربة ، متلولبة ، تمضي قدما الى الامام في حركة

سرمدية مطردة لا تنقطع الا ساعة يجن الليل جنونه ويستعيد الكـون هدوءه فتبقى هي في حجرتها يقظة على ضوء الشمعة تطالع وما برح أبوها يشكو من تبذير الكهرباء فتنتهزها فرصة لتطويق نفسها وخلق جو غريب يتعسر عليها تحديده وهي كلما انطفأ النهار شعرت بأنها فقدت حوافها وحدودها • شرايين مقروضة سبّبها معك الكلمات التي تطفو على حاشية الوعي وتكللها بشفيفة صفراء وتجد سالمة ، قبيل توغلها في عالم الغيبوبة ، تجـد تلاخيص موجـزة ودروبا مختصرة تومض بايماءاتها الى الواقع المرقق بالجليد والمتشقق من الجفاف ، وتنزلق في فضاء باذنجاني اللون قاتم ، وتحلم أنها دخلت ذات يـوم المنزل القصديري حيث كان الرجل مستلقيا على فراشه عاريا ويـده اليمنى على ذكره كأنه يريد وقايته ، بجانب منضدة زرعـت فـي وسطها وردة صفراء وقد كتب على خشب الطاولة جملـة تسعـى لتتذكرها وعبثا تحاول ، الا انها لا تنسى كيف جلست على الكرسي الفريد فيما كان الرجل سابحا في نوم وسبات عميق • خمسون سنة ؟ ستون ؟ انه نحيف الجسم • قصير القامة ••• ومن ثم : الجدران العمياء المفتقرة الى نوافذ ولو ضيقة وتفتش عنها ولا تجدها وقد كانـت تراها من الخارج كل يوم ، فتفهم آنذاك أن ما ظنته نافذة باطارها وزجاجها وستارها المفصل من قماش القطن الموصلي والمنتفخ بزفير السؤدد ، انما كان خديعة أو ـ بالاحرى ـ رسما ماهرا بألوانه وأشكاله وعمقه • وما ان تستيقظ في الغد باكرا حتى تجد القط يستنشق ظله ويتشمم آثاره فيدور ويجول داخل مجال ضيق حددت حواشيه بسهولة بوله كما تفعل كل القطط ، لكنه يبالغ ويتحدى الخوارق فيتصنـع العرج ويحاول لفت نظرها لكنها تتركـه وشأنـه وتحتسي القهوة وتغتسل وتلبس وتخرج الـى العمـل فتجـد نفسها أمـام الرقشة الضخمة المصقولة وقد وجدت في هذه البقعة من العالم لتنغص عليها حياتها• وقتها تستقر في مكانها وكأن الكون قد اضمحل وتسطع العلبة بكل قصاديرها وكأنها تحولت الى دار العجائب والغرائب جـاءت مباشرة من بلاد الجن أو كونـت مـن سراب مصقـول بـورق الوهم

والغيبوبة . وتقر العزم على متابعة طريقها فتجد الى ذلك صعوبة كبرى ولا تعتم أن تنصرف الى عملها وهو (ما زال يتجول في الميناء ويتنقل مـن رصيف الى رصيف لا تفوته حركـة النوارس المثقلة بأجنحتها الطويلة وبنعاسها القطني المتبقى في ثنايا تحلقاتها ولا تفوته ألوان المصندقات الضخمة ولا عودة الصيادين وقد ترك الفجر في أصواتهم بحة وفي حناجرهم ملوحة ولا تفوته الحدائق التي تظهر له من بعيد وكأنها مبنية في الفضاء معلقة بين هاوية وهاوية، وهو يعرف أنها ليست مفتوحة وأن الحمام لم يقتحمها بعد ... كما يعرف أنـه عندما يدخلها سوف يتساقط عليه بسمنته فيخاله من خزف تجعده خطوط معدنية اللون ، ويتساءل ككل مرة لماذا لا يحاولـون صيدها وأخذها الى منازلهم فيطهونها ويفيدون أولادهم وهو يعلم أن القوة الشرائية قد تدهورت في الاعوام الاخيرة ...) وهي (تبكر للاستمتاع بالمدينة قبل أن تغص شوارعها بالمارة والمتجـولين والسيـارات والحافلات ، وقد لاحظت ذات يوم أن غرف الهاتـف الزجاجية قد وضعت خلسة على أرصفة الشوارع الكبرى والمفترقات الهامة وكأنها نبعت من الارض ببرتقاليتها وزجاجها وآلاتها الغريبة الشكل لتنقل الاخبار وتضخم الدعايات وتفشي الاسرار عبر الاثير ، ولاحظت أيضا ما اتسم به المارة والناس من حذر في أول الامر وقد أدهشتهم مشاهدة هذه الحجر الانيقة والمدينة تعاني من الاوساخ والفضـلات والاوبئة والفئران والقاذورات والتفكك والانتشال ومن بخار الماء ودخان المداخن فما كان منهم الا ان اصطدموا بهذه العلب فراحوا يقدمون لبعضهم لبعض كل التبريرات وكل الحجج فيدب الاطمئنان في قلبهم ويطمئن هذا بدوره جاره أو صديقه أو أخاه حيث بدأت الخرافات تحـاك وتتناقل النكت ولم يتجاسر الى دخولها أحد حتى ظنت السلطة أن هذا الحذر البريء قد يخفي من ورائه مقاطعة سياسية تفتح المجال فسيحا أمام الاضراب العام ، الامر الذي حدا بأحد المسؤولين ان يقترح بأن ترسم أمام كل حجرة للهاتف مضيفة جميلة تحث الشعـب على استعمال هذه الوسيلة العصرية للمواصلات فتضرب الصلة بين الافراد

والبلدان والقارات . لم يلق المشروع أي صدى لدى المسؤولين الآخرين الذين خافوا من أن تغضب المضيفات ويظن الشعب أن كـل حجرة للهاتف انما هي مبغى ... وبقيت الحالة على ما كانت عليه في مأزق لكن سرعان ما فهم سكان المدينة ما في هذه الانجازات من فوائـد جمة فراحوا عليها يتهافتون وبها يهتفون ، يتحرقون شوقا لاستعمالها فغصت الازقة المجاورة بالخلق ، كل ينتظر دوره وسرعان ما تعطـل معظمها وكسر ما بقي منها من قبل المخربين الهمج ...) وتقص سالمة هذه المسألة على الطاهر الغمري فيتركها تتكلم متسائلا في قرارة نفسه لماذا تحدثه عن كل هذا وهو لا يجهل هذه الظاهرة التي أزعجت المدينة برمتها ، يتساءل لكي يتركها هكذا تتابع لغوها فتأتي بالتفاصيل المملة والجزئيات الفارغة وتتكلم وتتحدث وتثرثر وتبربر وهو يتفرس فيها ، فيعلم ما بها ولا يعلم . فيقول أنها تخشى صمتي فتحاول تغطيته بفظاظة وغوغاء وقهقهة وزقزقة ... مسكينة هي ... وأنت ! موش معقول ... يجب القيام بأي حركة أو التفوه بأي كلمة حتى تتوقف عن الكلام حول تجربة الهاتف في المدينة ... ما ذنبي أنا ؟ أنا لا أهتف لاحد وليس لي كنش لتسجيل الارقام ... أما هي فلا تسل عن استعمالها الهاتف !

في الصباح الباكر والمدينة نائمة في ضبابها الصيفي تدخل حجرة الهاتف وتضع قطعة نقدية في الثقب بدون جدوى . تخرج . تحاول نفس العملية في غرفة زجاجية أخرى في شارع آخر . عبث . وتمشي طويلا والمدينة ما انفكت في سكونها هادئة وتمشي وتمشي والمدينة معها . هنا حجرة للهاتف يعكف شيخ هره على زجاجها ينظفها يتفنن في عمله ويمسح ويعيد المسح ويخرج متأملا بالنتيجة فاذا بالزجاج لا يروق له فيعيد الكرة ويحك ويمسح ويغطس النشاف في سطل يفور بالصابون وبمختلف المحاليل والمساحيق المضادة للجراثيـم فيعانـي ما يعاني ويشقى ويصعد الى السقف على سلمه القصير ينفض عنه الغبار وسالمة تنظر اليه متشككة : يا له من عامل واع وصاحب ضمير مهني

خارق للعادة ··· وهو يطارد الآن الذباب (لماذا تحكي وتقص وتفصل وتسهب؟ ··· لقد سمعت هذه القصة عدة مرات·· لو قلت لزعمت·· لزعمت··) ، ويطرد الناموس ويقتل كل الحشرات ما عدا واحدة منها لم تمت بل راحت تعذبه، ترهقه (ذبابة أم بعوضة؟ لا يمكنها أن تجزم··) تصعده تنزله لكن لا يضجر ويعرق، ويسيل ويتقاطر ثم تغشي نكهته الزجاج بضبابة بخارية فيترك الحشرة ويعيد مسح عرقه ويحك الزجاج بالخرقة ثم بالمجفف ويصعد بعد ذلك على الدرجة الثانية من السلم ويلوح بمنديله محاولا قتلها· عبثا ! وتبقى سالمة مذهولة· لا تصدق (وهو يقول في قرارة نفسه لماذا لا تصدق هذا البرهان··تركت القرآن ··· أعطيت القربان ··· لماذا لا تصدقني لو قلت لأخذت تزعم وتبرر موقفها ··· لكن هذا هو البرهان ···) لا تصدق ما تراه وتلي الاندهاش الشفقة ··· مسكين هذا الرجل ! شيخ هرم يكدح ، يعمل بكل أحاسيسه ، بحماسة بأهازيزه لكن الذبابة أو البعوضة (ولعلها حشرة من نوع آخر) اللقيطة · تهزأ به · تحط من قيمته· وتختفي القذرة ! يتصاعد الى ذهن سالمة اسم الجاحظ · درس القراءة · السنة ؟ لا تدري · لكن اسم الاستاذ ما زال لاصقا برأسها ··· الذبابة والقاضي · يحب الاستطراق يمثل أمامنا · نضحك ونفهم النحو في آن واحد ونفهم الفرق بين هزالة الذاء ووقار الضاد وننتفخ كبرياء · أنت عظيم يا استاذ بن عاشور ! ووقور كقاضينا · لكن في حجرة الهاتف الذبابة أصبحت تحمل ضادا على رأسها والعامل الشيخ ليس بقاضي البصرة وانما هو عامل في المدينة حيث الميناء · (ثم تأتي وتقص علي الواقعة ··· كيف قالت بالضبط ؟ المعركة ولكن هي أيضا تحب الاستطراد كأستاذها · راحت تزعم بل تقول أنها تعرف ٩٩ اسما لشيئين اثنين ما هما ؟ لا ادري ··· لو سألت عمن يدري · لعلهما كلمتان فاحشتان ··· أنا لم أقص عليها عشيات الجمعة عند سيدي عبد الرحمان ولا استيهاماتي ··· علمتهم القرآن ولم يفلحوا فعلمتهم ما أحسن ··· ولم يفلحوا بعد ، لكن من بعدي ؟ من يدري لعلهم يفلحون ··· وتستطرد فتنقله من كلمة الى اخرى ، ترمي جسرا

وتمضي الى قصة أخرى ، لكن المفيد ، تعود الى منطلقها كالقط ان أنت ترميه في السماء يرتبك ، يتبعثر ، لكن اذا ما سقط على الارض عرف كيف يقع على اطرافه بدقة رائعة ومهارة ··· وهي كذلك ومن ٩٩ تمر الى ١٣ أي نعم سمعتها تقول : الحروف الرخوة ··· لكن انتبه جيدا : فيها النون والتاء والثاء وغيرها · لكن انظر الى هذه الحروف الثلاث : النون والتاء والثاء · لا ترى ؟ البتة ! كيف ؟ عار عليك يا الطاهر الغمري ··· هل تعرف أن اسمك اسم طائر يغرد ··· لا ··· لا ··· لا أعرف شيئا ··· حفظتهم القرآن ونسيته ··· النـــون والتاء والثاء : حروف الانوثة · تتفجر · سوف نعود اليها ونحلل النحو ومشكل الجنس ! لكن ما هي العلاقة ؟ لا اقول شيئا ··· أتركها تتكلم ··· تفرغ قلبها ·· بنيـّتي، أنت كالأواني المستطرقة ··· أنت تقفزين من كلمة الى اخرى ، من جملة الى اخرى ومن سيلان الى آخر ··· النحـــو والجنس ··· لقد فاتني هذا ··· جيل جديد أجـل ولكنه معذب ، مرهق ، متعب ··· أكثر منا نحن الكبار ··· اذن : الارقام الثلاثـــة وعلاقة النحو بمشكل الجنس والغمرى ، اسم طائر ··· هل تهـــزأ بـي ··· القمري أم الغمري ···؟) وتبقى سالمة مشدوهة · المعركة · الواقعة· واخيرا يظفر الرجل · لقد قتلها · قتل الحشرة · وقد بلل بخار عرقه الزجاج ثانية وراح يحك ويجفف· ينتهي من عمله· بسمة خافتة على فمه ترتسم يخرج · تدخل · تضع قطعتها النقدية في الشق ··· عبثا · الآلة معطلة ··· الآلة معطلة ··· أهـــذا ذنبه ؟ حاول · نظف · أرهق قواه ··· والهاتف معطل· لا حرارة فيه · انه بارد · ميت · تخرج سالمة وتتجه نحو عملها · الشارع بدأ يستيقظ والصخب يدب رويدا تحت شرايينها ··· نسيت القط الاسود وهو يتشمم ظله كل صباح ويطوق منطقته ببوله الآسن ·

الكتب المتراكمة · قرأت منها الكثير وبوبت منها الوافر ولكن تريد أن تتقيأ كل صباح وهي تراها مصطفة فوق الرفوف كعساكـر رصاصية · لكن الجاحظ ودروس الاستاذ بن عاشور وكتاب الغفران

والعروض والذبابة والقاضي ··· ذكريات تتشبث بها حتى لا تهرع وتنسى علب البق الفارغة وجنازة أخيها وقد كانت لا تناهز السابعة والآخر : الطاهر الغمري ··· يغمرني ظله ! يغمرني ظله ! لكن لا يريد • يلزم الصمت دائما واذا تحدث ففي السياسة فكيف يمكنه معرفة كل الاشياء التي يعرفها وهو لا يبرح في برجه العاجي ··· تجادله تدحض سكوته ، يزيد الكلام وتتعاقب الايام، كل واحد أفوت من أمسه أما حياتها فقد تغيرت منذ أن دخلت كوخه القصديري ورأته مستلقيا على ظهره··· (لكن هل دخلت حقا حجرته الرهيبة يوما ما ، أم هو مجرد حلم؟) ··· وتحاول ضكه بالحجج والأدلة القاطعة لكنه يقهرها• ينظر اليها• «بنيتي» • تريد أن تصرخ، لكنها تتغلب على نفسها وتحس قلبها وكأنه يتفتت جذاذا بين أضلعها• «بنيتي! بنيتي!» هل يستقيم الظل والعود أعوج؟ تنزل الجملة عليها كالصاعقة• تدهش• تصمت• تحاول اشعال سيجارة قبل أن تبحث عن حقيبتها الصغيرة حيث علبة السجائر (تأخذ احتياطاتها فالمدينة كالربع الخالي بعد الثامنة ليلا) وعلبة الوقيد والنقود ودبابيس الشعر وجعب التزيين والاقراص • عن تحد ؟ عن تمظهر ؟ عن حاجة ؟ لا تعرف • وهو لا يعلم • تبقى هكذا مذهولة لا تفوه بنفس ولا بتنهيدة • ينتقل الجذاذ في جسمها مع دوران الدم ويبلور رحمها فتصعد الطفولة الى حلقها •

ولا تفتح سالمة ، الباب الحديدي والمتعربس والمتثاقل بزخرفة نباتية (مسك الليل) ظهرت كأنها صادرة من المعدن نفسه تتآكله على طريقة الصدأ المتبعثر على الدهان الاسود ذاك الذي وضع منذ زمن طويل من قديم (قبل ولادتها على كل حال) وضع طبقات طبقات وقد مر عليها خريف الازمنة وجعلها تتقشر هنا وهناك على غير انتظام وبلا تدبير ، فيجرد (الصدأ) كل الاشياء الهندسية المرسومة يجردها من محتواها ويتركها تسبح هباء في نسيج من صنع التفاعل بين عمليتين اثنتين : الاولى نباتية محضة تتلخص في زحف أعلى سطحية الباب الذي أصبح مزيجا من الطحلب والورق الممرث (والمرث عملية

غمر الاجسام في سائل معين مدة من الزمن لتنفصل عنها الاشياء القابلة للذوبان وتسمى هذه العملية بعدة كلمات مترادفة : النقع ،

المرس ، التعطن ... الخ) ومسحوق الحديد المصدد والصدأ وسائل معدني يجز في المادة واديا صغيرا بتفرعاته الثانوية ، لا ينعرج من أعلى الى ما فوق ، الا بعد

رنة الجرس الثالثة . وهي تتعمد ذلك لانها تعرف مواعيد رجوعه الى المنزل ولذلك تقضي جل أوقاتها وهي تلعب في الحديقة بالقرب من الباب ـ فلا تريد أن يفتحه أو يغلقه غيرها والا أخذت تبكي وتعول فتنهمر الدموع على رؤوس خديها وما ان تستغرق في البكاء ـ وهي لا تبكي أبدا لسبب آخر حتى تأخذ في فرك أصابعها الملوثة بالتربة ثم تحك بها عينيها فيتلطخ وجهها بالوحل الناتج عن مزج التراب بالدموع ، فلا يتمالك من حملها بين ذراعه ويهرع بها الى الحمام ويجلسها على كتفيه ويتركها أمام المرآة تنظر الى نفسها وتبكي تبكي وتنظر الى نفسها من خلال الدموع والطين واللعاب والخنب والرعام ويشعر بالدموع تتساقط على قميصه وتبقعه وتتسلل من خلال نسيج القطنة على بشرة صدره حيث بدأ الزغب ينبت عليها ، فيحس بالحموضة تملأ فمه ويكاد ينكسر حنانا . أختي الصغيرة . سالمة . يسطو عليه الحزن وتطفو رغوة زرقاء على عينيه غشاوة وتتهاطل حبال الحنين على الطفولة الاولى وتصفع الرئتين باطرافها المتقاطرة ندى وماء مالحا ويعشوشب على لسانه مذاق البلح البحري (لم يذقه ولا مرة في حياته) ويغرز فيه صدف القشريات (والطفلة الطرية على كتفيه) مساميره الصدئة كباب دارها ولم يطل من جديد منذ زمن طويل (قبل ميلادها على الاقل) ويعود اليها فيسمع بكاءها ينخفض تدريجيا ، وهي تنظر الى وجهها المكتنز المحمر فتظهر له وكأنها صورة منعكسة على المرآة قصت من احدى المجلات البراقة الاوراق وهي ـ الصورة ـ تمثل اشهارا لصابون معطر ، حتى يكف نهائيا وعندذاك تطلقها قهقهة مدوية ، تضحك وتضحك

على وجهها الملوث وتسيطر عليها نوبة من الضحك لا تقدر عليها وهي جالسة على كتفه وذراعاها الصغيرتان مشدودتان على رأسه تطوقان جبينه وتضغط وتضغط فيحس بشرايين الصدغين تنتفخ تحت راحتيها وتصبح النوبة نزوة ونزعة تستعملها لاغرائه واغوائه ، وعندما يبدأ في محاولة للخروج من الحمام ، ترفض وتعترض وتحتج وتضحك كحوض امتلأ ماء وفاض ، ويعود بها الى الحديقة حيث كانت تلعب ويتركها بعد بوس وتقبيل وعناق تسترق السمع الى رنة الجرس المقبلة حتى لا يسبقها أحد الى فتح الباب تجفف دموع البكاء ودموع الضحك ، والا ... اذن ، لا تفتح سالمة الباب عند رجوع أخيها الى المنزل الا بعد رنة الجرس الثالثة وهي لا تتصرف هكذا الا معه وعند وصولها الى الباب وسماعها دوي الرنة داخل البستان وداخل المنزل لا تفتح فورا بل تتمهل بضع ثوان وهي تنظر اليه وتشرئب من وراء القضبان المتآكلة التي أصبحت مجرد رسوم تعوم في عالم الغيبوبة المبلولة والمخضرة ، وتتركه يترقب كسرا من الزمن لا يشعر بمروره ، فيطول ويطول ، لا نهاية له ولا حدود ، وهي لا زالت تتطاول من أعلى قامتها العروسية الهفهافة فيشعر بأنه - وهو في انتظار نهاية اللعبة - يتحرك داخل فضاء واسع بارد ومطاطي (العشب ؟) حيث يتجلد نفسه بين شفتيه لانه يشعر بالقيظ يلسعه وبجسده يتململ بين طيات الثياب . ويتساءل عما يخالج فكرها اللين ، الرطب وهي هكذا تراقبه من وراء قضبان باب الحديقة المهترئة المتلاشية والمسحوقة وقد كبدها الزمن كما كبدها بخل الاب خسارة فادحة ، وكأنه فقد حاله من حديد وفولاذ وتحول الى طريزة مبهمة حريرية ثم تهرع وتفتح الباب فجأة بقبضتيها الصغيرتين وتقتحمه فتصعد اليه . الجبل ، جبلها . تتسلقه وقت ما شاءت وكلما أرادت ما عدا في الساعات التي يقضيها أبوها في الدار ، فقد كانت تخافه وتهابه وهو لا يعبأ بها ويقول ساعة يغضب : « اسمعي يا طفشة » مرددا ذلك كلما أراد مناداتها ، فما كان من أفراد العائلة ان راحوا ينادونها بهذا اللقب . أما هو فما رأى مانعا في ذلك، أول الامر

وما ان فهم القضية بعد أيام حتى رفض كلمة : « طفشة » ٠فقال «أرواحي يا طفشة» «أرواحي يا طفشة» «روحي يا طفشة» «وين راهي الطفشة؟» حتى الأم٠ حتى الاخوات صرن كلهن يرددن ذلك٠ أما الاب فكان يكرهها ٠ الاب لا يحب البنات ٠ وكانت هي الاخيرة ، تلك التي تقلل من فحولته وقد راح هوس الشيخوخة يطغى عليه فيريد البرهنة عن أنه ما زال قادرا ٠ « راجل وسيد الرجال » كما تقول الام ٠٠٠ ولا تخجل وتسميه بصيدها ٠ أمامنا ٠ لكن في غيابه ٠ عشرة أولاد من ذكور واناث٠ أما هي فالحادية عشرة٠ سالمة! طفشة!! رفضن الاخ هذا الاسم انه هو الحلقة الاولى في السلسلة العائلية وهـي الحلقـة الحادية عشرة ٠٠٠ والاخيرة ٠ بعد سنتين من ولادتها لم تحبل الام ٠ ولم يقبل رب العائلة هذا النقص٠ تهوجس٠ تعنت٠ أراد ولدا آخر وآخر وآخر وذات يوم وسالمة لم تبلغ بعد ثلاثة أعوام، تلفظ بالكلمة قالها : طفشة ٠٠٠ فراح الآخرون يرددون الكلمة ٠ وأمي وخنوع أمي ٠ وأخواتي وبلاهة أخواتي ٠ واخوتي وغباوة اخوتي ٠ أحس هو بأنها هي اهانة نهائية له فكرهها وكأنها هي التي منعته من الانجاب للمرة العشرين (مات الآخرون قبل أو بعد الولادة) وكره الرجل الرقم ١١ ومولوده الاخير فأصبحت سالمة الطفشة وغرق في تطير ولا عهد له به ٠ فكرهه هو البكر بدوره وأحبها هي، سالمة! وكأنها حدست بذلك فأصبحت تفضله علىالآخرين وقرر أخوها أن يتكلم واياه في الموضوع٠ يتردد ويخاف ويقرر ويعزم وفي آخر لحظة يتراجع وراح الاب يطين عين الشمس ويغضب بسرعة ويصيح من بابالبستان: «افتحي يا طفشة» حتى يسمع الجيران هذا اللقب ثم الحي ثم المدينة بكليتها ثم البلاد برمتها ثم القارة بأسرها حيث علقت هذه الرقعـة من الارض التي نسميها وطنا ثم العالم بـ ٠٠٠ يهصهص ويكرهه ويلعنه وتبتسم الأم خنوعا ، فيكرهها بدورها ٠ لكنه يحبها من جديد ٠ أما الاب ، فلا أبدا ! ولا تفتح سالمة ٠٠٠

كنت لا أفتح الباب لأخي الا بعد وقت طويل ٠ أترك الناقوس

يرن خمس مرات أو سبع (أرقام أخرى مفعمة بالتطير ···) قبل أن أفتح له باب الحديقة · كنت طفلة صغيرة في ذلك الوقت · كنت الاخيرة · وكان هو أكبرنا · لا أتذكر عمري بالضبط · لكن كان الفارق بيننا احدى عشرة سنة · كان هو في تلك الفترة قد بلغ الخامسة عشرة من العمر ··· اذن كان عمري أربعة أعوام ، وقد لقبت بالطفشة ولم أبلغ السنتين· وكان قد غضب أشد الغضب· كان أخي يقص علي كيف تحدث مع الاب حول هذا اللقب الذي منحه اياي بعد أن توقفت أمي عن الحمل · والغريب أنه تقبل اللوم وجمع العائلة كلها وأعطاها أوامره· واسترجعت اسمي وأصبحت أشعر وكأنني ولدت من جديد ··· (لكن كيف تتذكر ··· أخوها هو الذي حدثها ···؟ لا يمكن أن تتذكر ···) وأترنم لسماع ايقاعه عندما يتلفظ به أحد وكأنه ثوب عيد بلعته الخزانة بعد الاحتفالات وخرج من جديد في العيد الموالي وكأنه خيط البارحة ··· لكن أتذكر كل هذه الجزئيات وهذا غير ممكن للاسباب التي تعرفها ··· ولكن أخي حدثني عن تلك الفترة باسهاب · غاب عني اسمي الحقيقي مدة شهر ثم رجع لي عندما وجد الابن الاكبر من الشجاعة والجرأة ما دفعه الى طرح القضية أمام الاب وقد كان الاب يهابه ويكرهه في نفس الوقت · وترك لي أبي اسمي حتى موت أخي الاكبر · كنت آنذاك في التاسعة من عمري · أتذكر بالتفصيل يوم الجنازة على أنهم أخفوا الامر علينا نحن الصغار · قيل لنا انه مريض · ثم انه سافر لمزاولة التعليم في الخارج · لكننا فهمنا الامر من الوهلة الاولى · دام المأتم أسبوعا وتفرق أفراد العائلة بعد أن جاؤوا من كل جهات البلاد · وبعد مرور الاربعين سماني أبي : « الطائشة » ومن جديد بفقدان أخي الاكبر فقدت اسمي · كيف يمكن أن أنسى ··· فقدناه وفقدت اسمي · ولم استرجع اسمي الا مؤخرا · هرم الاب وتاب ونسي الصلاة وراح يهذي ويتربع في صحن الدار ويحاور القط الاسود · تبكي أمي وهي تراه يخلط بين الايام والاشياء ويتخبل في بصيص من الوعي ، لا يفتأ يتقلص يوما بعد يوم · عند ذلك سماني باسمي وكان ذلك منذ

عامين • وهو ما زال على قيد الحياة لكن بعد أن أصبح بلا ذاكرة ولا عقل اصبح كالطفل الصغير ••• أضاع وقاره ••• عاد يخاف القط • يظنه شيطانا أسود ••• كنت لا أفتح الباب لاختي أيام عزنا ••• أتلاعب وأتفاتن ،واذا ما فتح الباب آخرأجهشت في البكاء حتى يحملني فوق كتفيه ويأخذني الى الحمام حيث المرآة ••• ورائحة الصمغ • أنظر الى وجهي فأكف عن البكاء وأضحك ••• لكن في غياب أبي ••• كنا نخاف أبي وهو يتلذذ بخوفنا • ثم مات أخي (كيف ؟ قدمت روايات مختلفة • أيها الاصح ؟ لعل الحقيقة في حصيلة الروايات المتعددة • ثملا على سجادة أمه ؟ مكافحا من أجل قضية معينة ؟ منتحرا من فرط الكآبة والغثيان ؟ اذا ما طالبتها بجواب صريح فسوف تمتطي الاستمناء وترهقني بأرقامها وحروفها وجملها ••• رائحة الصمغ : معطية جديدة وأنا أدري بها ••• ألم أدرس القرآن أعواما وسنين ؟ لكن ماذا تعني بالاسماء التسعة والتسعين••• والحروف الرخوة الثلاثة عشر ••• وحروف الانوثة الثلاث ••• ؟ والآن أتى دور رائحة الصمغ ••• يجب ألا اظهر اهتمامي بذلك والا راحت رائحته تعبق الحجرة فينقصنا الهواء ونموت •••) وقد بدأت ثلمتي تتزغب •

لا يعرف الا هذا المثال ، يقول ويعيد : « هل يستقيم الظل والعود أعوج ؟ » طبعا لا ! لكن ••• لكن ماذا ؟ لا أدري ••• لنعد الى الصورة، هل يمكن رؤيتها؟ مثال لا يغادر فمه وصورة لها تغادر جيب سترته الداخلي • مغامرة • زهرة النرد يميس على منضدته بعد أن يزيح من فوقها كل ما تحتويه من زهرة صفراء مزروعة في حفرة صغيرة يضع فيها قليلا من الماء تارة (للوردة) وقليلا من الحبر تارة أخرى (لنفسه وهو منهمك في كتابة ليلياته) حفرة صغيرة يضع فيها قليلا من الماء (وصورة أمي تصب الماء من زجاجة في حفرة تتوسط الضريح كسرة مطلية بالحبر ، ثم تفتت الخبز وتبقى هكذا الساعات بعد الساعات تنظر الى العصافير وهي تأكل وتشرب،

وتقول من حين الى آخر « ثوابه في الجنة يسنى فيه ··· شوفي يا سلمة كيفاش ياكلوا ويشربوا · يجبوه ! حبو ربي ·· كان يربي في الزواوش ··· » هل أقولها أم أسكت ··· لم يروض الطيور ولا كان يعلمها فن الموسيقى ، وانما كان يروض البق في علب ضخمة ما زلت احتفظ بها فارغة ··· هل تخرف هي الاخرى لمجرد تقليد زوجها الهرم ؟ طبعا ··· لكن ! من المدفون في هذا القبر ···) يزيح ما تحتويه من كتب وكراسات ومن كأس ماء (لا يجف أبدا) ومن لوحة مزخرفة كتبت عليها آيات قرآنية (تبت يدا أبي لهب ؟) الخ ··· ثم يرمي بزهر النرد على أرضية المنضدة ولم يبق عليها الا ما نقشه بموسى حافية في لحمه الخشب ليضمني ظلهم ، فيدور ويتدحرج ويتقوقع ثم يكف عن الدوران ويأخذها الدوار · ما لنا وهذه اللعبة · يصيح : سبعة ··· فتقول مثال وصورة ورقم ثم تزيد ··· ونحت · لنعد الى الصورة : بعض الاسماء فاه بها في شبه غيبوبة : بو علي طالب والالماني والدكتور كنيون و ··· احمد اينال · من أين أتى بهذا الاسم · جديدة ! سمعته يهجيه وهو نائم ··· هل هؤلاء الاشخاص هم الموجودون على الصورة ؟ لكنك تتحدث عن جمع أكبر ··· أربعة أشخاص وهو خامسهم خمسة · وزهر النرد مصمم على الرقم سبعة « أعطيني الصورة »فلا يرد عليها · فتغضب وتشتعل فجأة كفتيلة قطنية صادفت قطرة زيت وشرارة نار · تلتهب· تحترق· تصرخ: « درست القرآن وانخرطت في جمعية العلماء والآن تسرق الحليب من بقر الدولة كل صباح وأنت تبكر بسطليك وتحلب بقرات حلوبات وتعود إلى بيتك وتملأ زجاجة وبعض الكؤوس لبنا ليروب وتأخذ سطليك وتهرع الى السوق لتبيع خمسة أو سبعة لترات من الحليب (أو تقايضها بعلبة سجاير والجريدة اليومية وبعض الكتب القديمة وتعطي ما تبقى لك (أي اغلبية البضاعة) الى فقراء الحي وما فيه من عجزة وكتعه وتموت تفاخرا وعنجهية ! وهو يقول في نفسه : لكن البقرات أطعمها وأرويها وأزودها تبنا نظيفا وأزيل الروث عنها وأغني لها معزوفات من بلادها ··· صحيح

ان الشعير والتبن شعير وتبن الدولة ... لكن لولاي لأبيدت حتى آخرها ، تلك البقرات المسكينات متروكة على هذا الرصيف الخالي تحت نار الصيف وبرد الشتاء ... أنت تعرفين أنني أكره فائض القيمة . لست لصا لا ... أعمل بعرق جبيني وأبيع ما يساعدني على العيش (كسرة شعير ولبن خثير) أما الآخر فلا أتصدق به ولا أعطيه . انما أرجعه الى أهله . تنطفىء شعلتها أمام سكوته وتخونها شجاعتها وتنتفش كالهرة . يحدق فيها يتفرس في زهر النرد : سبعة . وفجأة يخرج الصورة ويدفع بها نحوها ثم يخرج من البيت ويبتعد عنها وتبقى هي كالمشدوهة تنظر الى الصورة الملقاة على الارض وتسمع خطاه يجرجرها في الطريق مهداجا . الصورة قديمة بالية ، مستطيلة الشكل ، بنية اللون ، ورقها من النوع القديم المحبحب وقد تجعد تحت تأثير الزمن وقد تشقق في بعض الاماكن حتى أن بعض الوجوه الملتقطة ظهرت وكأنها تحمل شجحا أو ندبة (الندابات المحترفات اللواتي أُتِيَ بهن من قسنطينة وما أن تجاوزن عتبة الدار حتى نزعن ملايتهن وذهبن يندبن خدودهن بعنف وجدية فتطاير الدم ورقش الوجوه والايادي والملابس والجدران والابسطة والزرابي ... أبعدوا الصغار في قاع البستان ، لكنهم فهموا لتوه وقبل وصول الندابات . قالوا لهم انه سافر . ثم يعود على جناح العجلة . كانت سالمة لا تتجاوز التسع سنوات وهي أصغر الصغار . وسعيدة لا تناهز العاشرة ومهدي الحادية عشرة والنصف ... أما الآخرون فكانوا مع الكبار . تجاوزوا الثانية عشرة وصاموا وبلغوا ... قرر هو - الاب - ذلك ولم يصادف أية معارضة . ومن يقف الآن أمامه والاكبر مات ؟ كانت سالمة قد فهمت أنها لم تعد تفتح الباب أمام أحد وأنها سوف لا يحملها أحد كذلك على كتفيه الى الحمام حيث .)على الخد أو على الجبين أو على الذقن . تدير الورق البراق الذي فقد كل لمعانه وتنظر الى ظهر الصورة فيقع بصرها على تاريخ كتب عليها بأرقام وحروف صغيرة : ديسمبر ٥٦ . ثم تعود الى الوجوه وتتفرس فيها وفي قسماتها ، تضع عليها

سبابة يدها اليمنى وتمررها على كل خط وكل خدشة أصابت الورق المطلي باللون البني · في الصورة خمسة أشخاص جالسون في المقدمة يلبسون قشابيات وشاشيات ، حاملين أسلحة قديمة ويبتسم كل واحد للمصور أو للعدسة على أنه وبالرغم من هذه المحاولة ، ظهرت بعض الوجوه بأعينها لشاخصة أو المشدوهة أو المحملقة أو المحولة أو المهتزة أو الضبابية أو المرتجفة أو · وفي الصف الثاني حشد من الناس متماسكو الاطراف ، متداخلون فيما بينهم مبعثرون هنا وهناك بلاتنسيق ولا نظام ، وكأنهم يضحكون ويقهقهون وقد اعترتهم نوبة من الضحك ، فلا يكفون عنه · تبحث عنه · لكنها لا تجده بسهولة · لقد تغير تماما ! نحل جسمه وتقلصت قامته ويبس عظمه· كان يرتدي نفس اللباس الذي كان يحمله الآخرون: «شاش» أبيض حول الرأس و «قشابية» شخمة اللون وخشنة الصوف ومخططة بتجاعيد عمودية ظهرت على الصورة بلون وردي· ها هو ! والالماني وبو علي طالب على يمينه وأحمد اينال والدكتور كنيون على يساره· لا شك في ذلك· والآخرون؟ لماذا يضحكون والخمسة لا يقلدونهم ويكتفون بالابتسامة الوقورة ؟ وسرعان ما يسيطر عليها السأم فتقف وتضع الصورة على المنضدة ثم تأخذ زهر النرد بين أناملها وترميه في الفضاء فيسقط على الصورة ويدور على نفسه ثم يتوقف عند الرقم خمسة · تبقى هكذا أقل من ثانية ثم تلقي نظرة مستديرة حول الحجرة وتنصرف بعد أن تكون قد وضعت حمالة حقيبتها الصغيرة على كتفها الايسر· تخرج من البيت القصديري فتجد الليل قد توغل في السماء ولا تعرف كيف تساقط وأصبح باذنجاني اللون وكيف تصعد الى المدينة والى الميناء ـ أو بالأحرى ـ كيف تصعد اليها أضواء المدينة وشوارعها وأضواء الميناء وبواخرها وقد صبغ الهواء بصفرة برتقالية ، منبئة عن آخر العالم ، وقد صبغ ملابسها بلون باهت هافت ·

تسع سنوات · بدأ جسمها يتغير وكأن الموت الذي لم تفهم

معناه بدقة ، كان قد طبعها بخاتم الانوثة النهائي وقد فقدت الشخص الوحيد الذي كان يداعبها ويتركها لا تفتح له الباب وهي من ورائه مختفية رغم رنات الناقوس المتتالية وهو يعلم أنها بالقرب منه وأنه من السهل عليه ادخال ذراعه بين القضبان الحديدية وكأنها هي الصغيرة صوف ينتفش أو حرير يرتعش أو قطن يرتجف من عياء الاعوام وبخل الاب فيقبضها من عنقها • وتتصنع الجمود والسكون • لا حراك لها • تموت • تذوب •(أخاف عليها • أدخل في اللعبة مرة أخرى أترقب وأتخيلها تختفي لا تعرف أين تضع نفسها، لحيمة ، ربيلة ، محمرة الوجنتين ، مضحكة عندما تأخذ في البكاء•) يحاول تحويل مجرى الريح من على وجهه والافق يسيل من سماء الى اخرى ومن الاخرى الى السماء المقابلة وهكذا دواليك ، والزمن يدور من حولها، هي من وراء الباب وهو من خلفه• أصمد • يمتزج الريح بالحمرة الشمسية وحدتها تتزايد وكأنها ترفض الموت كما ترفض سالمة فتح الباب وهي تعلم أنه ليس لديها كثير من الوقت ، مثل الشمس تتفجر شرايينها الداخلية وتشدد على بهرجتها الاخيرة وقد أوشكت على النهاية • يرفع أصابع يده اليسرى أمام الكرة الدموية الضخمة فتبيضها وتصبح شفافة • تصوير بالاشعة لسعادة عادية • فجأة ، يريد أن يراها • يعتريه سعار اليها • لكنها أشرة محتالة تعرف كيف تظهر ، قبل أن يفرغ من صبره ، ضاحكة ، مستضحكة وقد دعك خدودها خليط من الدمع والطين (ماذا فعلوا معها ؟ كالعادة أبكوها •••) يعطي وجهها المستدير لمسة ملائكية أخرى ••• ثم تفتح الباب • يختطفها ، يرمي بها نحو السماء فتنطحها ببلور حريرها • فالحمام • فالمرآة • فالمداهنة • فالالتباس • نبحر الى بلاد السحر بخرائطنا الخاصة ونترك الآخرين من ورائنا وقد أصابتهم سرم يكاد يكون نهائيا • وهو (الاب) يبقى جالسا في فناء الدار تشطبه الظلال المسعورة اذ تكثر الحركة حوله من ذهاب واياب النساء يحسبنه محورا أساسيا في كل غروب وكأنهن أردن مسابقة الشمس للانتهاء من الاشغال المنزلية • وهي (الام) تركض

من حجرة الى أخرى ومن المطبخ الى الحمام (تفاجئنا توبخنا) ومن غرفتها الى حجر الاطفال ومن وسط الدار الى الحديقة ومن الحديقة الى حجرتها حيث يتراكم الاثاث من غطاء المصباح الكهربائي المستطيل وصندوق الثياب المستدير وقطيفة الزربية الحمراء وحلفاء سجادة الاب المعلقة على الحائط ـ لم يعد يستعملها منذ عدة سنوات وسقط في جنون عذب ، لين لطيف ، لم يشف منه الا بعد أعوام طويلة والنكسة تهدده ، لكنه الآن ما عاد يستعمل السجادة بل أضحى يفترش وثمه وهوسه ووسواسه ـ ويختفي ويعود بمظاهر جانبية ويختفي ثانية ويتعتم ويبرز بحجم ضخم من جراء أقراص الغبار المحلقة في فضاء الغرفة بألوانها القزحية وحركتها السرمدية تدخل الشك في واقع الاشياء وحقيقتها ، بين شفافية وحلكة بين انارة وظلام وهي (الام) تفيض حركة وذبذبة تخالها خارجة من آخر الليل في غسل أرضية الحجرة وحكها حكا مبرحا وقد شمرت عن ساعديها ولفت أكمامها فظهرا متآكلين من خلال قندورتها تصفيفتها المخروطية الشكل ، العنابية اللون ، وهي منهوكة في الحريرية ، وهي تعرقل حركة السلحفاة « فكرونة » الفريدة من نوعها في الدار ، لأنها لا تريد البقاء في البستان ، بل تفضل المكوث في حجرتها ، حاملة دارها الصغيرة ! لمصدفة المبقعة لا تفتأ تتحرك ببطء وتدور حول الضوء ـ مهما كان مصدره ـ وهي مشغولة ليلا ونهارا في عملية نحت مستمر فيها ، تنحت ورقة من الخس لا تفارقها ، تقضم فيها رسوما تكاد تكون هوائية ونباتية في نفس الوقت • لكن سالمة !

لكنه هو يكتب على دفاتره بالحبر الاحمر ويموت ويتركها لي مع علب البق الفارغة • حاولت كل جهدي ألا ينقطع نسلها • بلا فائدة • ماتت الحشرة تلو الاخرى • كان يروضها • ويكتب على دفاتره بالحبر الاحمر • أقرأ للآخر بعض الفقرات منها حتى لا يتهمني بالكذب والولع به والتفنن في أروقته • لكنه لا يسمع • وهو

يؤكد العكس · يترقب قليلا ثم يتسربل بالليل وينطلق نحو المدينة والميناء حيث يعتني بالبقر ويحلبه ، لكنه يعاني من جاذبية مغناطيسية بالنسبة لبنية الميناء العامة وتشابكها مع هيكل المدينة أما الباقي فمجرد تبرير يقدمه لنفسه حتى لا تصدمه التناقضات وتفرغه من نخاعه وثقته (أو غروره ؟) · يهرب وينفلت مني عندما أقرأ ما كتبه أخي قبل أن يموت ، يتسربل بالليل ويهرع نحو المدينة ويكلمني في الهاتف بعد يوم وصوته أزرق مبحاح ، يعتذر ، يقدم تهانيه الصباحية ، يسعل ، أستغل الفرصة (والدكتور كنيون؟) لا يجيب· يصغي بضع ثوان ثم يقطع المكالمة وأتخيله منصرفا والسعال يقتحم ضلوعه، فيكرهني أكثر· أترك الآلة أنظر من مكتبي الى الشارع · انه رمادي اللون · وصوته هو الصباحي أزرق · يتسربل بالليل فأنصرف بدوري وفي فمي مذاق النجوم الباردة · أعود الى الدار والوالد لا يريد مفارقة الحياة · هرم وسن وشاخ وسقط في طفولة لا ذاكرة لها ولا ندم · هل يعرف حتى لماذا سماني بالطفشة ثم بالطائشة ! أتخشب في عنادي وتصميمي · أتكلم اليه الساعات الطوال · ولا يفهمني · تأخذه أمي الى غرفته ، تقوده كالطفل حاملة لومتها وسخطها علي · أما هو فلا يكتب الا في الليل بقلب القصب مستعملا صمغا وضعه في علبة صغيرة · أعترف انه حاول استعمال الاقلام الحبرية وغيرها لكنه لم يعرف استعمالها وراح ينجر القصب ويصنع منه أقلاما يضعها في مقلمة قديمة جدا ولعلها عتيقة وهو ينفي ذلك · لا يقول من أين أتى بها · لم يكن لمدرسي القرآن مقلمات كهذه · وفي النهار ، يركب العشواء يهيم ، يطوف ولا ينسى زيارته المعتادة للحديقة حيث اعتاد التفسح كل يوم بعد حلب البقر وبيع اللبن ، حيث الحمائم الخزفية · صوته أزرق في الهاتف · أما الشارع فلا علاقة له بهذا اللون · الكتب المتراكمة والمكتبة ! الطقس اليوم بارد والشارع رمادي · أقضقض من فرط الصرد وهو يسعل في الهاتف ولا يجيب أبدا · انما يسكت بعد كل سؤال · ثم يسعل ، يسعل · « كيف حال وردتيك اليوم ؟ »

« كيف حالورديتك اليوم ؟ » « كيف حال ...؟ » أعيدها كالببغاء احيانا عندما يهتف . يصمد ثم يصمد ويقطع المكالمة وأتخيله منصرفا يلعنني ويزيد في اللعن ورئتاه تجفان حقدا ونشازا ويتوخى السعال ويلقح ذاكرته بارتسامات الصباح الخفيفة فيميح في الشارع ميحا وهو في طريقه نحو الحديقة ويقول بعد ذلك انه لا يريد الوقوع في فروك ما ، فهو غير قادر على مثل هذه التفاهات .

لم أنس يوم الجنازة وان كنت لم أر شيئا . مضغة من الانطباعات الموسيقية ، فقط ! بين عويل وترتيل وجذام الباب الحديدي الذي لا ينقطع عن الصرير على فردتيه وكأنه يئن تحت ضغط الالم ، وتختلط الرنات والترنيمات والموسيقى والصدى في ذهني والمأتم مفتوح لكل الناس كباب الدار ، واخترق عتبته القض والقضيض ومن لا يحبهم اخي ، لم ار احدا او حاجة ولا يبقى من تلك الايام سوى وتريات حزينة ، وقد احتجزنا نحن الصغار في قعر البستان . مهدي يتسلق شجرة التوت ويحاول أن ينظر الى داخل الدار ، لكنه لا يرى ما فيها . سعيدة تقول لمهدي : « انزل ، سوف يرونك ويضربوننا » . ينزل مهدي من أعلى الشجرة ويسقط على الارض بقوة وتجرح ركبته . يأخذ في البكاء .تضع سعيدة يدها على فمه . يعضها . تطلقه . يسكت لحينه . لا أتفوه بكلمة . أنظر الى حيث ينزف الجرح ببطء . يجلس مهدي على العشب البارد . يضع ركبته في فمه يمطس دمه . تضحك سعيدة . تنظر الي لاستفزازي . تريد أن أضحك معها ولكنها لا تحرك ساكنا وأتجاهلها لا أعرف ما معنى الموت . ولكنني أعلم أني فقدته نهائيا . يرن الجرس . يحتسي مهدي قطرات الدم كلما ظهرت على سطح القشرة . يترقبها ثم يلعقها . تضحك سعيدة . أنظر الى المنزل من خلال الاشجار . كل النوافذ مغلقة لكنني أسمع العويل والترتيل والدوي الصاعد من المطبخ وأصوات الخادمات . ولم يبق من تلك الايام الا روائح الخميرة الفاترة والكافور والجاوي وماء الورد .

لم أفق على فحيح البخور والعطر الا بعد أن ألفت الضوضاء وكأنها تأتي من أسفل الشجرة وتقتحم رؤوسنا وقد كانت خليطا من البكاء والعويل وقرع الاقداح والاواني (في المطعم) وترنيمة حزينة ومستمرة (تكرار القرآن) ورنات الجرس الابدية (الزائرون) . أستفيق فيما بعد على رائحة وهي أيضا مزيج من روائح مختلفة . وكذلك الهواء المترجرج أمام أعيننا من فرط الاشعاع وارتعاش أوراق التوتة . تتسلق سعيدة الشجرة بدورها . أبقى واقفة ، واجمة . يستلقي مهدي على العشب المظلل . تجد سعيدة صعوبة وهي تصعد الى قمة الشجرة . أرى رجليها ، ثم فخذيها . ثم تختفى . فلم أعد أرى شيئا . نوع من الكمنة تقتحم أجفاني ، وأصاب بالعمى كسرا من الثواني . يعج الفضاء المطروح أمامي بحقد مدبب كخط منحرف ثاقب . أنظر الى أخي ، لا أراه لكني أسمع لسانه يرشف دمه الخارج من الجرح الذي أصابه عندما تدحرج من أعلى الشجرة ، وسعيدة تلهث وهي تصعد الى أعلاها وتتحرك أغصان التوتة بقوة. ثم أراهما (أخي والشجرة) أريد أن أعمى . لا أتمكن . صوت سعيدة يهتف من خلال الاوراق ويأتي نديا ، طريا : « أرى ما في الدار ! أرى ما في الدار ! » يهزأ بها مهدي . لا أرد عليها . لا أصدقها . كل النوافذ مغلقة والستائر مسدلة . لا يمكن رؤية ما يجري داخل الدار . يستلقي مهدي على العشب ثم يجلس ويضع جرحه في فمه ويمتص في حركة متعاقبة . تسكت أختي بعد أن حاولت اغراءنا . صمت يخيم علينا وحفيف الاوراق يزيد هذا الانطباع حدة وقوة . الا أن الضوضاء ما زالت تستمر . يضحك مهدي وحده دونما سبب . تقول له سعيدة : « لماذا تضحك ؟ » يقول : لان شعاع شمس أحمر غطى جرحي ... تضجر سعيدة لهذا الرد تناديني : « سالمة تعالي ، تعالي ... انهم يخرجون ... اسرعي . » لا أصدقها . يسخر منها مهدي ويبصق بصقة تتلوى وتتقوس وتصعد قليلا ثم تبتعد عن منطلقها وتسقط على قشرة التوتة . يتململ ، ويتمرغ أخي . أنظر اليه . يستلقي على بطنه فوق العشب . توقف الدم عن النزيف . ثم يقعد على الارض .

في نفس المكان ٠ ينسى جرحه ٠ ألاحظ أن سرواله قد أنتفخ بين فخذيه ٠ يمس قضيبه ٠ ويبصق ثانية ٠ تصبح الرغوة في فمي طازجة ٠ يفرفر الهواء أمام عيني ٠ تتنهد سعيدة ولا تتحرك ٠ يفتح مهدي زر سرواله ويخرج قضيبه٠ ينظر الي ٠ أحدق فيه٠ يحط عينيه ٠ يلعب به مدة طويلة وأنا لا أنظر اليه ٠ يتنفس أخي الصعداء ٠ يرجعه الى حيث كان ٠ يجلس القرفصاء ٠ تنزل سعيدة من الشجرة ٠ الجو لم يتغير ٠

وهو يقول بعد انقطاع المكالمة الهاتفية : « تتلاعب بي ، تراوغني ، تهزأ بي ٠٠٠ تتنقل من نزوة الى نزوة ٠ اذا كلمتها في الهاتف وخزنتي واذا سكت أمامها خجلا ، استشاطت غيظا لكنها على حق ٠٠٠ ولماذا أرفض أن أحدثها عن الدكتور ٠٠٠ كنا نسميه الحكيم ٠٠٠ ما عرفت اسمه الا عندما تسلقنا الجبل ٠٠٠ الحكيم ووردته الحمراء كان يحملها في عروة سترته وهي أشهر من نار على علم ٠٠٠ كيف حال وردتيك اليوم ؟ الحكيم شفافي ٠٠٠ مات ، توفي ٠٠٠ ما كنت استعمل الهاتف من قبل ٠٠٠ كنت أخاف منه ٠٠٠ من برودته ٠٠٠ من حرارته ٠٠٠ أما الان فأحاول أن أتحاور معها عن طريقه وهي لا تهنأ لهذه الطريقة ٠٠٠ لا تفهم ٠ وأنا أيضا ٠ يسعل ٠ أين المهرب ؟ أين المفر ؟ البقر أم الحديقة العمومية ٠ فيدمدم : « كيف يتركونها هكذا ٠٠٠ وعندما أحاول خطف الواحدة منها ، ينظرون الي ويتهجمون علي ٠٠٠ كانت هذه الحدائق مغلقة في وجوهنا ٠٠٠ وفي الحقيقة ، لو أنهم فتحوها لاكلنا كل الحمامات وكل السمك في الاحواض ٠٠٠ تقول انني أسرق الدولة ٠٠٠ أبدا ٠ وكيف ؟ انما أوزع أموال الناس على الناس ٠٠٠ تقول : يا لك من مدرس غريب ؟ وجمعية العلماء هذه ؟ هل تعلمت هنالك كيف تسرق الدولة ؟ ٠٠ فضيحة ؟ وتحبها وتعطف عليها وتعطيها أسماء النسوة ٠٠٠ ولم لا ؟ أليست بقرات حلوبات ؟ صحيح أسميها بأسماء البقر ، جميلة وحليمة وياسمينة٠ فقط٠ أما الاخريات فلا اسم لهن٠٠٠لا أعرف أسماء

اخرى ٠٠٠ حتى أتيت أنت ودخلت في حوضي ٠٠٠ لو تعلمين من هن : حليمة وجميلة وياسمينة ٠٠٠ والافضل ألا تعرفي شيئا ٠٠٠ دخلت في حوض الماء الاسن حيث أسبح وأكفر ٠٠٠ من الصعب الكلام معك ٠ هكذا مباشرة ٠٠٠ أخجل ولا أفهم كلامـك ٠٠٠ أحـاول بالهاتف ٠٠٠ بنيتي ؟ كلما تأخرت ، خفت عليك ، أتظاهر باللامبالاة ، لكن قصة أخيك وطفولتك وجنون أبيك ، كل هذه الاجزاء من الواقع ، تهمني كثيرا ٠٠٠ ولكنني لا أعرف كيف أقول الاشياء ٠٠٠ الكلمات تفلت مني كالحمامات الثمينة ، البيضاء ، والمتثاقلة ، المتمايعة والتي لا أقدر على قبضها ولا على الاستيلاء عليها ، تنقض هكذا وكأنها من خزف تسقط أمامي وتتدحرج على أرضية البستان ٠٠٠ بدون جدوى ٠٠٠ هل تعرفين لماذا هذا الهروب من الواقع ومن الكلام ومن الناس ؟ لو تعلمين ٠٠٠ لزكيت ؟

ـ وأعلم فيما بعد ٠
ـ لا تعرفينها ٠
ـ أعلم الحقيقة كلها ٠٠٠ حققت في ماضيك وفي حاضرك ٠٠٠
ـ يكذبون عليك ٠٠٠ أصبح الكذب يعمنا كلنا ويشملنا كلنا !

ـ لم تكونوا في الطليعة آنذاك ٠٠٠ هنا توجد الهفوة ٠٠٠ ومن هنا يبدأ النقاش ٠٠٠

ـ لكـن ذبحوهـم ؟
ـ أتحتم لهم الفرصة لذلك ٠
ـ ذبحوا غيرنا ٠٠٠ خنقوا من هو منهم ٠٠٠
ـ أعرف ذلك أيضا ٠٠٠
ـ كيف فررت من بين أيديهم ٠
ـ قصة طويلة ٠٠٠ أنا تعبان ٠٠٠ تعبان جدا ٠٠٠
ـ مطافك أرهقك ٠٠٠

ـ مشيت كثيرا ، كسحت البلاد عرضا وطولا ٠
ـ أهكـذا نجـوت ؟

استيقظ في الصباح فتترك السيجارة الاولى التي أدخنها مضغة مرة في فمي وأنا أحاول ردع الكمون المتأحرج فوق جفوني ، تاركا عليها آثاره الفسيفسائية بقاعا ، بقاعا ٠ لا أعرف متى أخرج من النوم ومتى أدخل في زلف النهار وما زالت الحجرة مغلوقة ونافذتها والمنزل ما زال نائمـا أحـاول فرز الاحـلام مع السيجـارة الاولى فتتلبد في الجو مع أكوام الدخان المتصاعد (الغرفة صغيرة جدا) والزفرات المتتالية ٠ أما الكوابيس فلا أنسى تفاصيلها وأمكث هكذا أتجنب الواقع ريثما أتعود عليه ، ثم يأتي أزيز الذباب (في الصيف) وكتيت ماء القهوة (في الشتاء) فينقشع الالتباس ويفـور النهار كعبـوة ناسفة ويتفجر في رأسي اسمه أولا (الطاهر الغمري) ثم ترتسم صورته (نحيل ، قصير) وهو يقول « سميني عم الطاهر » ٠ وأقول « أضرب خمسة ! » يخجل ، يرتبك ٠ هل من كبح آخر ؟ كيف يمكن ذلـك ؟



الفصل الثالث

كان بو علي طالبا يتعلم اللحامة في النهار والكتابة في الليل ، ولا يتركه الالماني يتوقف قليلا أو يشك طفيفا وكلما تقاعس بعض الشيء عن العمل من هـول التعـب ومـن وهـن السهر على دفاتر الابجدية ، وجده وراءه ، يعاتبه ، يوبخه ، يضجر في صوته حنان متدفق وبحة متعاطفة ويطفو الماء على عينيه الزرقاوين فيبللهما ويبالغ في زرقتهما فينكسر الضوء فيهما وتتحول الزرقة الى خضرة مشبوه فيها · بين بين · يزمهر العملاق لاخفاء ارتباكه ويقـول لا اختيار لك ، فمن واجبك أن تكدح وتتعلم وبعد العودة من الـدروس الليلية أن تتغلب على النعاس وتراجع وتهجـي وتخطط الحـروف وتصنفها وتلصقها بعضها ببعض كما تلحم (ان الحديد بالحديد يفلح ···) يرتبك العملاق الاشقر ويتركه ، وينهمك بو علي في عمله داخل الورشة الصغيرة التي تفتقر الى نافذة صغيرة وتنتفـخ رئتاه من قلة الهواء وشرايينه من كثرة الضغط وشدة الحرارة ومـا ان يكبس على زر الالة ويضع الكمامة الواقية على وجهه حتى تلفه النجوم الزرقاء والابراق النيلية والومضات البرتقالية التـي تلسع الجدران وتلسع لباس العمل الازرق فيصبح رمادي اللون ولا ينفـك العملاق من ورائه ينفخ في الفضاء ويكدح هـو أيضا ويلحم الحديد بالحديد ويرسل شظايا نارية الى السماء فيما كان وجهه مخفيا وراء القناع فكان أشبه ما يكون الى نوتي قمري يسبح في جاذبية الكون

الحامض حتى اذا ما رفع الكمامة ، أخذ يسأله عن درس الليلة الماضية بين تعتعة الضوء والتهاب الجحيم المتدفق من باب الورشة وقد تلبدت القيلولة عناقيد لافحة ولم يكن الصانع ليسمعه لشدة ما تسبب الالة من ضجيج فيما النشيش يصل الى الفضاء وفيما يواصل الالماني بربرته بدون ما فائدة دائبا على طرح الاسئلة والاجابة عليها بنفسه ثم يستأنف عمله ويلحم القطعة المستديرة بالقطعة المكعبة بالقطعة المستطيلة فيتكون تدريجيا نسيج الشبابيك المطرزة وبين كل قطعة وقطعة تبرز لحمة بيضاء تتراكم عليها سحالة غبارية كموض الزجاج زذيذا ينزعه وينفخ عليه فيتطاير الغبار على شكل زوبعة مستديرة تتلولب ثم تسقط على أرضية المصنع شذرات شذرات . ومن حين الى آخر يتوقف أحد الرجلين والقناع على وجهه ويتوجه نحو شربية صغيرة من الطين معلقة على الحائط بحبل متين عقدت في مسمار غليظ وقد لفت القلة بخرق من قنب الكته مشبعة بالماء ، متقاطرة ، تجري فيها ألياف النسيج الغليظة وتكون أشكالا هندسية رهيفة ، ثم يأخذها من مسمارها ويشرب طويلا ، لكن سرعان ما يعطش من جديد ويخشى الريق في فم بو علي طالب ورأسه مملوء بالحروف والارقام ، يتعلمها كل مساء بعد اثني عشر ساعة من العمل المرهق وذلك معلمه الالماني الذي ما فتىء يلقنه صناعة اللحامة منذ عام ونيف ... ويخثر ريقه في فمه بسرعة البرق المتهاطل من آلته فيشغله العمل وينسى أن يشرب ، فيسيل لعابه على ذقنه ويختلط بعرقه بسرعة فائقةويتحول الى مادة ملحية اللون والطعم حيث تظهر هنا وهناك على الذقن والرقبة وفي أعلى الصدر الذي لا تغطيه ملابس العمل الزرقاء المفتوحة حتى الخصر بشكل خلايا صغيرة مكورة تتشعب وتكون هكذا شبكة من الخيوط الفاترة الصلبة في نفس الوقت المتفرعة كالاسلاك النحاسية فتترك على البشرة ثفلة ليفية من اللعاب يصبح أكثر صلابة من المعدن الفليزي الذي يدخل في صناعة السلكيات داخل المصابيح الكهربائية والمصابيح المتأججة ومصابيح الاقطاب السالبة

وأنابيب الاشعة السينية ، التي يستحيل تذويبها بالحرارة ايا ما كانت درجتها وتسمى هذه العملية التسييل ، كل هذه الانطباعات تنزلق في ذاكرة الصانع وقد أصبحت نوعا من الحركة الاختلاجية من جراء تراكم الرسوم الحديدية وتسابقها تحت لعلعة التألق الكهربائي والفسفور الغازي وتجاعيد الحروف المنحوتة على الكراسي والتواءات الارقام المزركشة على الكتاب ومفاهيم احدى النظريات المتموجة داخل الرأس والتي يبثها الالماني الاشقر العملاق ذاك الذي يصطحبه الى مكان الدروس الليلية ويترقبه في حانة بالقرب منه يبلغ قنينات البيرة العشرات ، أيا كان الحال ، صيفا كان أو شتاء ، ثم يعود معه الى حجرته ، يحدثه ويسأله من حين الى آخر عن الحروف التي تعلمها والعمليات الحسابية التي صار يعرفها ويحلها بسهولة ولكنه لا ينتظر الرد ويتابع بربرته ولغوه وكلامه المجرد وفي أول الامر ما كان يفهم منه شيئا ولا يعرف الا سريره الضيق ، الذي يملأ حجرته الصغيرة ويعرف أنه كان يتخوف من كلب جاره ، وجاره شيخ فرنسي أعزب عجوز فات التسعين ، يقضي الليل وهو يضرب الكلب والكلب ينبح ويبكي ، ومن حين الى حين ، أيما كانت الساعة يأتي الى بو علي يطرق بابه ويدخل عليه وهو نائم سائلا اياه عما اذا كان الكلب متخفيا عنده وهو يتأوه كالمشدوه ويبكي وينادي الكلب باسمه ، وبو علي يحدق به وهو يتجول بغباوة وهذيان في الممر الصغير بين الحائط والسرير ... وكثيرا ما كان يسمعه من وراء الحائط يشاجر الكلب ويشتمه ويقول : « أنت عربي حقير ! عربي قذر » وكان يكرهه بو علي ويفيض حقده على عنصرية الشيخ المائج في عزلته ، يتسلق سلم العمارة بمشقة وبحزامه الجلدي يضرب كلبه ويعذبه بقساوة وشناعة ... «انت عربي قذر !» ويهرب الكلب ومن فرط خوفه يفقد الشيخ الفرنسي العجوز وعيه وتشتد الحيرة على الحيوان المسكين الذي يكاد يفوته هرما فبقع الجرب جلده وقد فقد كل أسنانه فأصبح أدرد الفم متدلي اللسان ناتيء العظام فيما يسيل لعابه فيخلف أثارا فظيعة على

درج السلم ، ويهرب كلما وجـد الـى ذلـك سبيلا ويجن صاحبه جنونه ، يناديه وفي صوته دموع مؤثرة فيأتي بو علي ويطرق بابه سائلا « أرأيت كلبي ؟ » فيهيم الحيوان في الطرقات عدة أيام ويعود وكأنه يفتقر الى قساوة صاحبه وضرباته وسباته : « عربي قذر ! » يستلقي بو علي على فراشه في ساعة متأخرة من الليل بثيابه الفواحة عرقا والعابقة حديدا ونارا ، ويستيقظ بعد بضع ساعـات مهرولا الى الباب يفتحه للالماني الذي كان يأتي ليقص له القصص ويخرجان معا فيكلمه عن الكتب التي قرأها بعد ما تركه فلم يعرف للنوم مذاقا ويستغني عنه كأن قوته البدنية تغني عن النوم فلا يعاني حتى من الارق ولم يكن سهره أرقا وكان قد صمم منذ عهد طويل أن يكرس حياته للنضال السياسي ويلتهم الكتب والمجـلات ويتحدث عن قراءاته الى صانعه الشاب الذي كان لا يزال متشربا بالنعاس ، فتضرب نواقيس الغيبوبة رأسه وتتعثر خطواته ويأخذ الالماني بذراعه ، ويرده الى الطريق المستقيم ، ثم يعود يتكلم عن الفاشية وعن الشيوعية فيما كان المستمع بجانبه يهـرول كي لا يبقى في الوراء مقصرا والالماني يتسارع بخطواته العملاقة وبو علي يمشي في سياقه ، يتبع جرته حينا ويمشي على مستواه أحيانا ولا يفقه ما يقوله دوما ويمتلىء رأسه من رغوة صابون الالماني فيعاتبه على موقفه ، بعد الشرح والتفسير ، مرددا له لا لست على حق قط ... نتركهم يستغلوننا لا بد لكل عامل أن يكون شيوعيا ... انه الواجب ... مقدس ! لا يرد عليه بو علـي ويشعـر ذلـك بعاطفته تتمزق وتتفجر ، بو علي يحبه لكنه لا يفهمه وذلك على الرغم من حقده على الاغنياء وكراهيته للعساكر الاجانب الذين يجوبون الشوارع بسلاحهم وكلابهم (عربي قذر !) البوليسية . انه يثق فيه لكنه لا يفهم لماذا يقاسمه صاحب الورشة الصغيرة ما ينال من أرباح ضئيلة حتى اذا ما سأله ، رد عليه : « انما أتصرف هكذا لانني شيوعي ! » هذا جل ما كان يفهم وكان يسمع نصيحته وهو الذي علمه حرفة صناعة اللحام بالقوس ، وحرضه على متابعة الدروس الليلية منذ أن بدأ

يعمل في ورشته الصغيرة وقد كان في السابعة عشرة من عمره ٠ في البداية لم يقبل بهذه الفكرة ولا بمقاسمة الارباح ٠ قال له يوما : حرام ! أنت رب الدكان وأنا صانع ٠٠٠ وأغرق في القهقهة ، حرام ؟ حرام ؟ واشترط عليه ان يعملا معا وان يتقاسما الارباح والا فليذهب الى أمور أخرى حيث أرباب العمل يسلخون جلده ويشربون دمه ؛ وراح منــذ يومه الاول يشــرح له معاني الاستغــلال ورأس المال والفاشية والشيوعية والوطنية ويقف المراهق أمامه محدقا مبهوتا مشدوها ٠

كان بطالا منذ سنة وكان يبحث عن عمل بدون جدوى ٠ ينام في الشوارع ويأكل الفضلات وها هو الاخر يحدثه عن تقاسم الارباح ٠ لقد ظن في البداية أنه كان يهزأ به على غرار الاخرين ٠٠٠ أتى من الريف حيث كان هو وعائلته يموتون جوعا ٠ لقد توفي أبوه ، فما كان منه الا ان صمم على الهجرة الى المدينة حيث العمل والرفاه متوفران لكنه لم يجد اي عمل مدة عام بكامله ٠ مرات عديدة كاد يستسلم لليأس ويقفل راجعا الى قريته لكنه عدل رافضا رؤية اخوته يموتون جوعا وعريا ٠ وهذا الالماني قبله عنده وقبل أن يعمل هو صانعا في محله واقترح عليه تكوينه وتهيئته للعمل فقال في نفسه لا شك أن للرجل نوايا سيئة ٠٠٠ ولكنه صمم ٠ (أقبل وأنظر في الامر فيما بعد) ٠ وأخذ يعمل في ورشة التلحيم ، تعلم بسرعة فائقة فنصحه معلمه أن يتعلم القراءة والكتابة ٠ فرفض ، ولماذا يتعلمها ؟ ألم يصبح الان عاملا ماهرا ؟ تركه الالماني لحاله بضعة أسابيع ثم ذات ليلة دخل عليه في فندقه حاملا كراسا وقلما رصاصيا ٠ جلس أرضا متربعا عليها على الرغم من طول قامته ، وفتح الكراس ، فوضعه على ركبته ٠ أخرج من جيب قميصه نظارات ذات دائرتين زجاجيتين صغيرتين وقضيبين من السلك فوضعها على أنفه الطويل المملــوء بيرة ٠ بل رأس القلم بلسانه وكتب حرفا ببطء وتأن بالغين ثم وضع الكراس أمام عيني بو علي طالب قائلا : « ما رأيك ؟ » وبعد أسبوع

اتقن بو علي كتابة الحروف وقراءتها في المستودع الذي ينام فيه جنبا الى جنب مع الحثالة والسوقة والمتعطلين والحشاشين وتقول سالمة وقد أزمعت مقاطعته للمرة الاولى منذ أن بدأ في التكلم عن بو علي طالب : كلمة اخرى سرقت منا وخضبوها بالدم وحرفوا معناها الاصلي فأصبحت تدل على الذبيحة ، العفو ... كلامك حلو لكنهم مسحوا الموسى فينا وهكذا أيضا بالنسبة الى كلمات اخرى . اسمع ، كلامك عظيم ولكن انظر الى كلمة مسكين ، هذه الكلمة أيضا شوهوها انها تعني في لغتهم (هل تدري يا مدرس القرآن ، المداهن ، الغدار والحقير الخ ...) الفقر والكادحين ! فندق السعادة ، أتذكر اسمه ولقد كنا نسخر من تسميته هذه وهو يزخر برائحة الجوع والبق والفقر والحزن والعزلة والهم ... يسكنت ، لا لا ! بل وكالة الهناء ... أو ما يشابهه ... وخلاصة القول ، مر أسبوع بكامله والالماني يأتيه كل مساء يجلس على الارض ويتربع ويأخذ الكراس ثم يضعه على فخذه الضخم ، يستلم القلم يبلل رأسه بكل هدوء وبطء ويكتب حرفا جديدا ثم يضع الكراس أمام عيني بو علي قائلا : « ما رأيك ؟ » فيأخذ التلميذ الكراس ويقلد رسم الحرف الجديد . وينظر الاخر اليه من تحت نظاراته التي لا تغطي عينيه الزرقاوين الطيبتين الكبيرتين وقد لوى سلكيهما حول أذنيه الضخمتين الحمراوين ، تخرج منهما صوف أبيض تتشنج ملامحه وهو يتابع الحرف الذي يرسمه تلميذ في خطه وتعرجاته فيشجعه بصوته الخشن ، روعة ! فلا يبالي به بو علي بل يضجر نوعا ما وكأنه يريده أن يلزم الصمت وأن يخرس ، والاخرون (الفقراء الكادحون ، الحشاشون ، البطالون ، السوقيون ، الحثالة والرعاع) من حولهما يحملقون وقد ترك هذا قدرته تغلي على النار فيحترق ما فيها وذلك ثوبه البالي الذي كان يخيطه ويرقعه قبل مجيء الالماني (ألم يكن له اسم ؟ لا أدري ... لم نطلق عليه الا هذه الكنية وقد نبتت داخل منخاريه صوف شعرية مثل تلك التي تخرج أكواما مكورة من أذنيه ...) والاخر حبقته التي كان يعتني بها ويسقيها (لماذا

الحبقة أصبحت عندي عشبة الفقراء ؟ وحبقتي تتدلى بعز وفخر في أصيصها والشمعة مزروعة فيها • اشعلها من حين الى آخر ••• هل أحدثها عن زياراتي الى سيدي عبد الرحمان ؟!)كان يسقيها قبل وصول الاجنبي ، والآخر ايضا نرجيلته المشحونة بالحشيش الحار ••• جاؤوا كلهم يتفرجون على المشهد ولا عهد لهم بذلك يفركون أصابعهم حرجا ويحكون أعينهم انبهارا ، والبهجة تنضح من وجوههم ، يقدمون الشاي للالماني فيلعقه رشفة واحدة ويمد كأسه بصرامة الى الجماعة ويعكف على تلميذه ينظر اليه ، يكتب حرفا آخر ••• ولا تنتهي هذه الحصص الليلية الا في ساعة متأخرة من الليل ، بعد أن يكون بو علي قد تعلم كتابة أربعة حروف جديدة وقراءتها ، وبعد أن يكون الالماني قد ألقى خطابا سياسيا حماسيا ، يبث فيهم دعوته فيما كانوا هم يصفقون ، وقد كان هناك من يفهم ومن لا يفهم • لكن المفيد : أربعة حروف وفي أثناء النهار يعكف بو علي طالب على تعلمها وعلى تعلم دروس عليا في السياسة وتعلم استراتيجية الثورة العالمية • وبعد أسبوع توصل الصانع الى معرفة القراءة والكتابة ولم يبق على الالماني الا حثه على الالتحاق بالدروس الليلية • وفعل بو علي ذلك ليس عن يقين او اقتناع ، بل تعاطفا مع الالماني • فقط ! الى يومنا هذا لم أعرف اسمه هل مات في سريره وهو نائم ؟ كان رجلا طيبا ! وترك الورشة الصغيرة لبو علي طالب وزوده بالنظرية الشيوعية ولم يرتح الالماني الا يوم انخراط شريكه في الحزب الشيوعي • هل مات مرتاح البال على وصيه • وهل طلب قبيل مماته بأن يغطى نعشه بالعلم الاحمر ؟ وهل كان كما طلب وهل شيع جنازته حشد غفير يتقدمهم زبائن فندق السعادة (أو وكالة الهناء ؟) من سوقة وحثالة وفقراء وكادحين وحشاشين ؟ وهل كان بعضهم يحمل صورة ستالين وآخرون ينتحبون ويعولون ؟ وسرعان

ما تحولت الجنازة الى مظاهرة شعبية ؟ وهل أدى هذا الى تدخل الشرطة ؟ وهل أصدقاء الفقيد أولئك الذين كانوا يحملقون فيه وهو يعلم كيفيّة الكتابة في ورشة اللحامة بالقوس متحلقين حوله ، حالوا دون تفاقم الامور ؟ لكن كيف مات الالماني ؟

ورائحة الصوف القنهة التي تغسل في المسل الجارفة الثلجية ، شتاء ، في منحدر القرية المبنية على شعفة الجبل وهي تغلق الافق على الصقور وتمنعها من الاقتراب منها والتحليق فوقها ، فيحاول الاطفال ترويضها – دون جدوى – يحسبونها جد جديات بسيطة ووديعة وصيفية وخنوعة ، يحشرونها في علب (كعلب البق حيث كان هو – الميت –)يروض البق ويعلمه القفز على حواجز صغيرة يصنعها بنفطات يسرقها من مطبخ أمه ويسهر عليها الليالي ، قائلا اذا هزأ به احد : « ولم لا سأفتح سيركا للبق ··· البق ذكي وقادر على القيام بأدوار بهلوانية ··· انما تحتقرونه ··· أفكار مسبقة ؟ ولم لا ؟ سأفتح سيركا للبق وأكون مديره ومنشطه ··· ثم يموت ويترك العلب تغلي بالحشرات التي تلقى حتفها الواحدة تلو الاخرى رغم محاولة أخته – سالمة – لتربيتها وهي تفزع لفقدانها ، فتعطيها قطرات من دمها تخرجه عمدا من أناملها التي كانت تثقبها بمساك أو ابرة أو شفرة ، لكنها لا تفلح ويتفاقم الوضع بالنسبة للبق وكأن أصابته العدوى أو أصابه السرطان القاتل أو · فتتساءل عن الطريقة التي كان يلجأ لتربيتها وصيانتها ووقايتها وقد كانت تتزايد يوما بعد يوم ويتضخم عددها ، فيسرع لصنع العلب الخاصة بها حتى يترك لها المجال مفتوحا ويرفه عنها ··· انما هي تعطيه قطرات دمها ؟ بدون جدوى · تسأل المعلمة عن كيفية تربيته (البق) فتسخر منها زميلتها وتخالها المدرسة مجنونة (عرق هبال ··· سمعتها تقول ذات يوم ··· هل أرادت الاشارة الى نزوات أبيها ؟) وتبقى هكذا ، وقد يئست من محاولاتها هذه تنظر الى علب البق التي كان يخف وزنها كل عشية حيث كانت تفرز الاموات وترميهم ، الى ان مات البق فلم يعد في العلب ولو بقة واحدة ! كانت علبا مصنوعة من شرائح خشبية

رقيقة التي كانت اذا جهزت بمناور متعاقبة تترك الضوء يتسرب اليها بعدأن تغربله من خلال الفتوحـات المتقاربـة ، ولا يغـذونها الا بالطماطم ، باستثناء كل الخضـر الاخـرى ، ويسخـرون حبة لكـل صرار كوجبة يومية ، وذلك حتى يرسل موسيقى بايقاعاتها الجميلة المتتالية المتعاقبـة ، وتضرب (الصوف) بالارجل عدة أيام متكاملة وبأكملها ، والماء يصل الى الركبة وتنجرها من شدة برودتها الصقيعية رغم حرارة الشمس في بعض الايام وقد راحت تحرق العشب وتلفح الاوجه وتجعل الجو يفوح رائحة تبخر الصوف الفاتر خارقا عارضة الانف متغلغلا في مسام البشرة كلها والنسوة يغسلن الصوف برائحته الزنخـة والقريـة تتجلى منتفخـة من خلال بؤبؤة العين التي جلفها شعاع الشمس فراحت الالوان الصلصالية تعطي نوعا من التجريد ومن الرهافة التي لا تتصف بهما عادة ، وهكذا يتكون انطباع عند الناظر أن كل الامور لا تعود الى البنية تشكلها القرية بأحجامها المختلفـة وانما الى اللون وكأنه قادر بذاته على تنسيق الاشكال والقوالب التي تتقلص وتتلخص في علامة متراصة ومجرشة تعاون على رحيل كل الاشكال التي يمكن تصورها ، فتتمـوج داخـل القـرية رائحة نتنة يمازجها النبض والدم الجاف القرمزي اللون والماء الآسن ، مما يذكر بفحاح الجيفة المعروضة تحت قنبلة الاشعة تحت الحمراء فلا تـزال تعج بالاخضر والازرق والابيض وبالدود وبما يشبهها من الحشـرات الاخرى ، وذلك كلما غسل أهل القرية الصوف ٠

القرية ؟ الشعفة اية قرية واية شعفة؟ أبى أن يقول ويشرح ٠٠٠ سنوات السرية حنكته وأجبرته على الاحتذار حتى من ظله ولماذا هذه الجملة المنحوتة ليضمني ظلهم اذا ؟ الجواب ؟ ٠٠٠ وهل يستقيم الظل والعود أعوج ٠٠٠ وهل يستقيم الظل والعود أعوج ٠٠٠ الصدى ٠٠٠ الخوف ٠٠٠ الغثيان ٠٠٠ العزلة وسنوات السرية ٠ والاحتذار حتى من اصدقائه ومن اخوانه ورفقائه ٠ ثم يتمتم بصوت خافت٠ القرية حيث أرسلني الحزب لتنظيم الفلاحين الفقراء ٠ يقولها ولا تسمعه ٠٠٠ سالمة ٠٠٠ تطلـب منـه اعادتها ٠ يـرفض ٠ يبتسـم ويصمد

(المعاودة في الدقيق الاحرش) ٠ لا تفهم فيقتحمها تشنز لكنها تغض الطرف ٠ « كما تريد يا عم الطاهر ٠٠٠ كما تريد وكما شاءت الاقدار » وينزلق سياج بينهما ٠ سياج زجاجي فيه عتمة ويمكن تكسيره في كل لحظة ٠ هكذا بدأ يتكلم ٠ ترك دفاتره وقلمه المنجر من القصب وصمغه المتشبع بسائله الاحمر ٠ اخذ يقص حكاية بو علي طالب في عرينه ، تحت الحبقة حيث زرعت شمعة كبيرة سرقها من سيدي عبد الرحمان ذات عشية جمعة والنسوة منهمكات في ثرثرتهن ٠ لكنه رفض مدها بالتفاصيل حول القرية على رأس الجبل ٠٠٠ تقاليد السرية وطقوسها وواجباتها لم تسمع الجملة الاساسية وبقي الرمز منغلقا ، مبلجا مدة أسابيع ، ثم ذات صباح هتف لها وهي في عملها ، هتف من حجرة الهاتف العمومي التي لم تكن لتتعطل بعد وقال جملة واحدة : بعثني الحزب الى القرية لاقوم بالعمل السياسي في منطقة فقيرة ، وسط الفلاحين الذين لا أرض لهم ثم قطع المكالمة قبل أن تسأله : « أي حزب ؟ » ٠

وعندما يمطر الصباح وتستيقظ وقد تآكل الوهن أطرافها وتتذكر أنها باتت تحلم برنات الهاتف ودقات جرس الطفولةوطنات المنبه وصليل المفاتيح ، مرة أخرى يرن الهاتف فيتبادر الى ذهنها فكرة أولية : « أي حزب » ثم تبحر في سيولة الجو وسلاسته وهو يرمش ويرف ويومض بألوان البرتقال الازرق كالحلم الذي اذا ما قص الى شطرين اثنين نفذت منه كل الالوان وكل الانطباعات وراحت تسيل كالماء تحت الجليد وتتخمر داخل النوم تحت تأثير خميرة الكلمات المتحطمة المفسوخة المشطبة المتفككة المتميعة بحيث تبقى معانيها غامضة وهي تشعر بأن جسدها تحوحب وتحوجز واجتزع بالهواجس المريبة وكأنها زنبور فقد محوره الاساسي وبهرته بنية الخلايا حيث تعود أن يعرف أريه وشهده ، يتردد بين الانتجاع والخمول ، فتتذكر أصياف القحط والجفاف التي تترك في حلقها مذاق القرفة التي يبيعها أبوها في حانوته تحيطها أشرطة الشحمة التي

تجف وتذوب وكذلك المشمش العابق يريج بعطـره ويقتحـم الهواء المحرق ، نشرتـه النسوة بعد أن قسمته الى شطرين اثنين ووضعته في أطباق خشبية على قرميد الاكواخ ، فيزيد لمعانه من حدة الزوال الزاحف المتصاعد من سفح الجبل الى رأسه حيث تتبعثر القـرية الصغيرة في أشكالها المتقاطعة ، وهو - الطاهر الغمري - يذهب من دار الى بيت ومن حانوت الى حقل ، صاعدا هابطا الـى حد العياء فيتعب جسمه ويسيطر عليه نوع من الحركة الشبقة التي تتجاوز حدود القرية وهو سابح في غيمة أبدية مهما كان الفصل ، فيتصبب أكثر فأكثر تحت تأثير الإحجام المتبعثرة وتوزيعها فتفقد رسـومها وتتحـول الـى مشهـد مجرد مبهم من فرط ما عانى من الاحتكاك مرور الزمن والفصول والقرون عليه وهو دائما ناصبا طريزته الصدئة وقد حاصرته الحشـرات والفصـول تنتقـل في شبـه غيبوبة وهي في الحقيقة يقظة شاهرة زباناتها كدرع واق ٠ على حبال الطفولة تغرز انواعا من الاحاسيس والامارات والارتسامات التي تشبع بشرتها ، فتختلط الامور - بصفـة تناوبيـة - والاماكـن والازمنـة والايماءات والحركات والعمليات والعهود وكأن عقلها مجهـز بلطخة ضـوئية ترسلها مسلاط مخفية في طياتها على شاشة قلبها فتنبض على وتيرة تشنجية، سرمدية، افقية وعمودية معا في آن واحد ، وتتوقف عن مخض امعائها ٠٠٠ ومن جديد يطوف حوافها رنين الهاتف وطنـين المنبه وصلصلة المفاتيح وتثقب رأسها دقة الاجراس حيث تطفو على سطحه أسئلة شتى فلا تجد لها ردا ولا اليها سبيلا « أي حزب ؟ اية قرية ؟ أي كلام ؟ كيف اخترق الحدود ؟ » درجة بعد درجة ٠٠٠ انه نوع من الاستمرارية على كل حال : يدرس القرآن ثم يفلح الارض البور ، ثم ينخرط في جمعية العلماء ، ثم يتركها ويدخل في الحزب ، فيرسله ليعمل بين الفلاحين الفقراء أمثاله ولبث الدعوة والقيام بالعمل السياسي ٠ ولا يتجرأ أن يتفوه بها أمامي وأنا محدقة فيه ، فيهمس بها في الهاتف ويبقى اللغو على أساسه شاملا ٠٠٠ أما عن بو علـي طالب ، فلم يتردد ٠ أفشى عنه كل شيء بالتفاصيل والجزئيات

وتحدث عن الالماني فيما دمعه ينهمر ٠ وكان على صلة بهما ٠٠٠ عن
أي ضرب يتحدث ؟ تتساءل وخميرة النوم تجعل الاشياء والاثاث ينتفخ
وأثرجة المواد تجعل الجو خاثرا يتكدس طبقات طبقات نثة على
صفيحةالمرآة وهي تثب نحوها تنظر الى ملامحوجهها الجميل فتتلمسه
وتتفحصه وتدور الحجرة على دولابها وترمي بنفسها على كتفي
أخيها وهي طفلة هشة تشهق بالبكاء ووجهها مخضب بوحل البستان
تعلكه طول النهار وتنقله من مكان الى مكان وتكومه أكواما شكاكا
وهكذا تتصاعد الايام اليها من غياهب الماضي وتبقى بين حيرة
(لماذا بدأ اخوها يتعاطى الخمر وهو لم يبلغ الخامسة عشرة ؟)
وحيرة (كيف يمكن لمدرس قرآن أن ينخرط في الحزب ؟) وهي على
هذه الحال تسبخ قطن الايام وتجازف نفسها ، لكن من قال ان أخاها
مات سكرانا على سجادة أمه وليس من برهان على ذلك ولا حجة ٠٠٠
ولكن من قال ان الطاهر الغمري كان في يوم من الايام مناضلا في
الحزب ؟ قال في الهاتف « أرسلني الحزب لاقوم بعمل سياسي بين
الفلاحين الفقراء ٠ » لم يوضح أكثر ٠ لا ليس ممكنا ٠٠٠ انه يعيش
في عالم الاوهام ٠ توعية جماهير الفلاحين الفقراء ، في أي عهد ؟ تنزق
من سؤال الى آخر وهي أمام المرآة طفلة صغيرة تلعب دور الكبار ٠
وعلاقته ببو علي طالب هذا ؟ عامل اختصاصي في التلحيم بالقوس ٠
ها هو من جهة فلاح فقير من أنصار جمعية العلماء ومن جهة أخرى
عامل مناضل يتابع دروسا ليلية ويقرأ كتبا يستعيرها من الالماني ٠
وهذا الالماني العملاق ــ تحدث عنه باسهاب ــ لماذا أتى ، وترك بلاده ؟
أهروبا من الفاشية ؟ تريش صوف الاعوام ويمتزج عليها الامر
فتكسوه غشاوة من الحوامض والسوائل ٠ المرآة تتقشر وتفقد
قصديرها أما الايام فيغطيها قلح التاريخ المتعشب ٠ وهذا الاخر على
الصورة الملعونة الرثة البالية المجروحة المقروضة ، من هو ؟ سيد
أحمد٠٠٠ سمعته يتحدث عنهوكأنه مطوي بفرشاتالحزن والبكاء٠٠٠
وكانت عيناه قد رقرقتا ، ثم استدرك ودخل في وجومه العادي ،
متربعا لا يتحرك وكأنه الوتد المغروس في الارض الثابتة ٠ والدكتور

« كنيون » ؟ طبيب السل ذاك الذي داواه وأشفاه • لا ينساه « كيف حال وردتيك اليوم ؟ » والاخرين ؟ فوج كامل •••

تسأل المعلمة عن أنجح طريقة لوقاية البق الذي ورثه عن أخيها ، في علبها وتصل اليها قهقهة زميلاتها كخرير من المياه تتراكض على وتيرة متصاعدة داخل ميراث يختنقها وقد رممت جدرانه بالاسمنت والطين وبالصفائح المعدنية ، أما بعد ، فيأتي توزيع الكراسات انما تتطاير في الفضاء قبل أن تقع على المناضد والمعلمة ترميها من أعلى ذراعيها ويسيل في أحشائها صدى وقع الدفاتر على الخشب المرقوش بحبر الاجيال وكلامها الفاحش وكتاباتها الغرامية وحتى الاباحية (زبور سمين يقطر بالعسل • أحبك ، تحيا سعاد •) وخرير المياه الميزابية تطرق البناية بنحاسها ورصاصها ، عندما يتمطى الضوء ويذبل في الصباح المدرسي من جراء وتحت ضغط الاف الترددات التي يفرضها الخريف العاجز عن عبور النوافذ وكثافة زجاجه • وتخرج سالمة من القسم وهي تقرع أرضية الساحة بنعليها • اليوم يأتي المدير ويتنافخ شرا فيوزع التشجيعات والعقوبات والانذارات ، وتزيد في حركتها وفي الصخب الذي يحدثه اقتحامها للساحة وهي تتجه نحو الباب الكبير وفي محفظتها دفتر آخر الشهر وقد طبع عليه : جيد جدا • تلميذة ممتازة • هذا كله لا يهمها • بل ما هي الطريقة العلمية لصيانة نسل البق ؟ هذا همها الوحيد أما النحو والصرف (لم تتمكن بعد من ابراز العلاقة الموجودة بين النحو والجنس، والطاهر الغمري يترقب ذلك بفارغ صبر لكنه يتركها تختار الزمن والفرصة المناسبة) والحساب (٩٩ ، ١٣ ، ٣ ، ١) لا تجد فيها أية صعوبة • تلميذة ممتازة ، مع تشكرات المعلمين والمعلمات والمدير ذي الجسم السمين والبطن الرخو ويتصاعد الى التلميذة وقع قطرات الماء الخريفية التي تتدفق من الميزاب وتصب كالشرايين الملتصقة بالحائط وكأنها من يتلمس القماش بين أنامله ويجس جهازه وشبكته ، وكأنها طعم امتزجت

فيه أنواع من الطبخات المختلفة وكأنها شعـور بصـري فيبرز مـن خلالها هيكلها العظمي ، كما تعلمت ذلك وهي صغيرة عندما كانت تشاهده في البستان يهز يده ويغطي بها الشمس فيطين عينها • تترك المدرسة والجوائز والغوغاء والضجيج وتهرع الى المنزل فتفتح على البق وتفرز الميت من الحي ، وتبكي ! وقد بلغت سن الاهتمام بفرجها وقـد رأت الزغـب ينمـو فيعتريهـا الانذهاش وتتساءل وتتذكر يوم جنازة أخيها الاكبر وقد كان مهدي مستلقى تحت شجرة التوت يخرج ذكره المنتفخ الواقف ويلعب بة وهي تحدق فيه وسعيدة في أعلى الشجرة تقول : « ها قد خرجوا كلهم • أراهم ؟ أراهم ! » فلا تصدقها ويقهقه مهدي ويرجع ذكره الى مكانه • تريد وهي راجعة من المدرسة أن تعميها الشمس فتتكثف رغوتها في فمها وتصمغ شدقيها وتشعر بالانوثة تحتقرها وتلسعها ولكن الدموع تنهمر ويلدغها مرة ثانية منخس اللذة وهو حاضر ومختف ، فتجد نفسها محاطة بانتظار سرمدي وكأنها فقدت حوافها وتخيماتها ، حيث يخال اليها أن وجود أدنى شيء ملموس (العلب الفارغة)انماهو خيانة لا تطاق وتنكيـد لا يحتمل ، فتعوي كالحيوان المجروح الباحث عن جيفة يستأصـل منها استيهاماته • تتقدم نحو الدار غاضبة ترغي على الجائزة التي نالتها وما ان تصل حتى تختفي من وراء رائحة القهوة وعصفتها ، تأخذ بزمام القط الاسود (لم تعرف الدار دون قطها الاسود ، واذا مات واحد عوض عنه آخر وهكذا •••) والقط يدور في حلقة جهنمية ويعرج على ظله وقد حدد ميدانه ببوله ، فيعبره متبخترا في زحفة عملاقة وقضيمية ، ثم يختفي بفضل ما تتسع لها مادة القطن الاصطناعـي (قابوق) من قدرة على الامتداد والتمطط • تبكي والنوافذ تتلون بلون الباذنجان فيما أخوتها بكرة مطاطية ضخمة يلعبون وثيابهم بعرق زبق يبللون ، تكرههم وتكره رائحتهم وأهدافهم التي يسجلونها فيجعلون سياج الحديقة يرتعد حيث تنقلب زخرفته رأسا على عقب وتصلها أصواتهم المدوية وكأن مطر العرق والابط يعكسها ويبللها بخطوطه في صدرها (لن تقول أنها استحقت التهنئة لقد كتبها المدير

بخط يده وخربشها بتوقيعه تحت الملاحظة بالتهنئة ، وجاء توقيعه بعلامة وزيرية طويلة وملتوية ، مغلوقة على نفسها انغلاق الدوار الحلزوني على نفسه لا ، لن تقول لأحد !) ويجعدها فيأتي بعد ذلك المطر الداخلي بحباله الغليظة ويهطل عليها ، يصفعها وينحت فيها خطوطا عريضة لتشعر أنذاك أنها تحمل بين ضلوعها صفيحة زجاجية واخوانها يلاحقونها باحثين عن الكرة الملعونة تحت جلبابها القرمزي ، وهي بالمرصاد لفلته آخر الشهر اذ عليها أن تعبرها ، ان تخترقها وتهشمها ، ان تمحوها بممحاتها المطاطية بعد اخراجها من المقلمة (وهو ؟ من أين أتى بها . قديمة ، عتيقة صبغها الزمن بزنجار الايام ، يحشد فيها أقلاما ينجرها بموس صغيرة حادة من القصب ... مدرس قرآن ... طبيعي أن يحتفظ بعاداته البالية وبطقوسه الرثة على الرغم من دخوله الحزب ؟ تبقى معلم قرآن ويفوح جسدك برائحة الشحمة المعلقة على شرائط القرية على رأس الجبل والمشمش الذي يجف على قرميد الاكواخ وأنت تنظم الفلاحين الفقراء ، أمثالك ... مهما فعلت ، ترفض الحبر وتستعمل الصمغ فيما افكارك تجاوزت سرعة الضوء ...) ويقتحمها الهرج والمرج . الى أين تذهب ؟ وتلجأ الى الحمام حيث كان يحملها على كتفيه . مات منذ سنة . تتراكم العتامة على المرآة . لا ينكك احشاءها تذكار ... تتراكم الغنامة وتعطي تصورا خاطئا ... المرآة تفشها وتضللها ، ربما الامر يرجع الى البخار ... لا شك أن أحدهم قد اغتسل منذ لحظات ، تخطط باصبعها اسمه على ضباب المرآة ، ثم ترسم امتدادات واسعة ، تتشعب وتتفرع وتنعرج في منعرجات بلورية والليل يتسلسل والكرة تهشم زجاج احدى النوافذ . تصرخ الام . يهرب الاطفال . تعري جسدها . لا ترى الزغب المندثر على ثلمتها تحس انها قد فقدت حوافها ومحيط جسمها قد لان وهش ثم افلت منها ، تميع . تحاول جهدا لان تلفّ كلماتها الداخلية برغوة الصابون الذي تدوره بين راحتيها . تلميذة

ممتازة للغاية · عليها أن تستمر · لا يهمها، يزدرون منها، يتهكمون عليها · طائشة ؟ طائشة ؟ لقب جديد ، كنوة كما تقول المعلمة · جاهلة ؟ تريد ترويض البق وتصبح يوما ما مديرة لسيرك تقوم البق فيه بقفزاتها البهلوانية ··· مثله ··· لكنها ستموت · تبكي والدمع ينهدر على رغوة الصابون فقاقيع وكويرات · شرايينها معقودة وكأنها ملتحمة بقوس يتلفظ نارا برتقالية على حافتها زرقة خافتة · والزغب بين فخذيها تغسله · تمرر أصابعها فيه · ما هذه المصيبة ؟ القيء يملأ فمها · لو كان حيا لسألته ولرد عليها مطولا ، مسهبا ، يداعبها حتى ولو سكر سكرة عشواء (خوك غالق ··· ما أتخافيش ··· قبليني ··· بوسيني ··· ضميني اليك ··· تعب الجسم ··· هل في فمي رائحة الخمر ، ينفخ في فمها ، نكهته فظيعة ···) كان يرجع الى الدار والليل ينسدل ، هذا في أول الامر ثم أخذ يتأخر يوما بعد يوم ، وتعود أخيرا ألا يعود الى المنزل الا مع زلمة النهار وفورة الفجر ، وهي (الام) على سجادتها تسبح وتصلي صلوات الغفران وتردد الذكر ، وتنظر الى الساعة ، لا تعرف قراءتها وكأن الزمن يسيل بين أصابعها تكيله وتعيره · مصيبة · وعند الحيض يتفاقم الامر · لا تعرف عنه شيئا · لكن زميلاتها يتحدثن ويوشوشن ويخرجن من محفظتهن قطع القطن المخضبة بالطمث الاول ، يتفاخرن ويتشامخن ويسترقن النظرة اليها ··· أما هي فلا تفهم ، تتقزز وذات يوم فاجأتها احدى رفيقاتها واضعة قطنة مبلولة بدمها الشهري ··· ماذا تنفعك الجوائز والنقط الممتازة ··· ولم يأتك الدم بعد ؟ الليل ينسدل وهي تدور قطعة الصابون (سماها ، بيبي كادوم وأعطاها الصورة الاشهارية ··· بيبي كادوم ··· ما زالت تحتفظ بها ···) وتتذكر شعارات القصاصة ونوعية الاشهار ··· كما تتذكر كلما انقض الليل بسرعته الصيفية على صحن الدار كيف كان يجلس أخوها مروضا بقه أو منهمكا في قراءة كتاب والليل ينزل ، يلفح خدوده فيخال لها ان لحيته تفقد من خشونتها ·

··· والدكتور كنيون طبيب اختصاصي في مرض السل · لقد

داواه وأشفاه. كيف حال وردتيك هذه المرة... يفحصه... لا بأس؟ لا بأس ؟ كفاحنا أعطى نتائج خارقة ... كيف الحالة في منطقتك ... الاوضاع صعبة ... هل يفهمون معنى أحاديثك ... يجب انقاذهم يا الطاهر ... أنت منهم وأدرى بهم ... حدثهم عن الاستغلال ، عن الفقر ، عن الجنة التي لا يجب أن يدخلوها وأمعاؤهم تعوي ... أنت أدرى ... وردتيك في تحسن مستمر ... لكن الاخرين ؟ والفوج في مؤخرة الصورة يمزحون ويقهقهون ويخرجون ألسنتهم أمام عدسة الصور . من هم ؟ مناضلون ؟ لا يرد عليها . صمت طويل . سعال . ظل الشمعة المغروسة في الحبقة يتموج ويعرج على الجدران .وبعد لحظة: رفقاء ! يقولها . ماتوا كلهم . برصاص العدو ماتوا في أغلب الاحيان وبموسى اخوانهم ماتوا في بعض الحالات . الدكتور كنيون ذبح بسكين حافية عمدا ؟ لم يكن مسلما ولا عربيا (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) يردد الآية ويحسبها تلميذة تتعلم ما تيسر من كتاب الله ... آمن والتزم بقضيتنا . كان منا : محاربا طبيبا ، رفيقا ، أخا ، يتكلم العربية مثلنا . أحسن من بعض الاخوان . كان أمميا . رجلا صنديدا ! عملاقا ! أطول من الالماني . يكره الاستغلال . يداوي الفلاحين . لا ينام « هل من وقت لدي والموت من ورائي ؟ » يقولها ويضحك . مسحوا الموس فيه كما يفعل الذباح يوم العيد ، بعد قطع عنق الشاة ... هربت لم أترك الفرصة ... أخذت أسلحة وعتادا واختفيت في القرية حيث كنت أمارس العمل الحزبي ... نصبت كمائن ... مع الفلاحين . في النهار يزبرون شجر المشمش والزيتون ، وفي الليل ينصبون الفخاخ ... بالمرصاد ... لا ننتقل . نبقى في مكاننا صامدين ... يأتي الجيش الفرنسي ولا نفوه بكلمة ، يأخذون الرهائن . يقتلون واحدا منا أو اثنين ... وفي الغد ... نفس الكمين ... أخيرا تركونا ... زعمنا أننا أبرياء ... نحرث الارض البور ونأكل كسرة الشعير ونقاوم ليلا ... نبث الدعوة متنقلين من دوار الى دوار . من مشتة الى مشتة ... سميت القرية بالعرين الاحمر . اختصاصي في مرض السل . لقد داواني . وشفاني . كان

يردد وهو يفحصني ثم فيما بعد ، قبل أن يذبح بموس حافية مصددة • «لا تبحث عن باب اخر ، يا مدرس القرآن» • لم أبحث وجدت منذ سنوات المنفذ • بعد جمعية العلماء ، فهمت اللعبة • وطنية ممزوجة بطبقية • طبقتهم • كنا الحثالة • وهم أصحاب الشأن • يضربون آياتي بآيات أخرى • لم يصنعوها • كانت موجودة حقا في القرآن • يهزأون بي :وعسى أن تكرهوا ••• كرهت ، لكن بحثت وبحثت عن باب آخر ، عن مخرج ، فأورقت رئتاي وعندما تعرفت على الطبيب (الحكيم ، هذا هو اسمه) تورد رفضي بالسبق ورويته بالماء الليلي ودخلت بين الحروف القرآنية وأنا قليل الخبرة ، بمفاتيح مترددة ، مرتبكة ، مهجية حروفا أخرى حدسا حتى أتى الانبهار على ترددي • انخرطت في جمعية العلماء • قلت «الارض لمن يخدمها » • قالوا : أنت كافر يا رجل ؟ فقلت العزة للكفر والله أكبر • اتهمت بالزندقة وهم يأكلون لحم الخنزير فتتكرش وجوههم حتى عادوا بلا أذقان وتموج في الشحم والسذاجة ولكنني صبرت انتظرت طويلا وهم يتجرعون خمرة تخضر أعينهم التعبة الضيقة منها كأنها مجارى الفسق (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) وترتعش كفوانيس دور البغاء الحمراء ، يترددون عليها خفية تحت معطف الليل وتغلق المعلمة الماخور أمام وجه الشعب الذي يأكله القمل والبق ويرجع بخصيه مملوءة بحليب الحرمان • « يا الله يا بنات ، الشيخ السبتي يشرفنا ! اسرعوا ، تسرّعوا ، تعرفونه ، لا يطيق صبرا ! » وتفتحه أمام أعيان القوم ومن بينهم المشائخ المتزمتون • يعود الشعب بخصيتي حنين • الماخور مغلوق للسوقة والحثالة (الزوافرية) تتبهرج المومسات ، يدهن فروجهن بالمسك والريحان ويملأن زجاجات الكحول بماء الزهر ويزغردن ويحرقن الجاوي والكافور في كوانين ضخمة تشريفا للضيوف الكرام ووقارا لم فيفتحون الافخاذ ويلجونهن والتعاويذ ملء اشداقهم (ما شاء الله ••• ما شاء الله) ويرفعون رايتهم على سرتهم ، اعينهم تعبة ومكتظة بالتفاهة والشهوة • الارض للفلاحين ••• قهقه احدهم وقد كان مدلع البطن ، رخو الثنايا •

« هذا كفر يا راجل » قلت : أهلا بالكفر أهلا ! والملح يسلخ جنبي وتثقبهما السعفة وتحفرهما القروح المتعفنة . يأكلون لحم الخروف ويتخمون والشعب يأكل الحشيش والعشب يقضون سنوات الفاقة وسنوات الطاعون وسنوات المذبحة وسنة الرجفة الكبرى وهم يرددون التغفيرات والتشكيرات ويتعوذون من الشيطان الرجيم يستغلون كل مناسبة لاقامة الولائم . أحاول ايقاد عشب الناس والحكيم يداويني مجانا . لا أعرفه . رآني . حدق في . قال أنت مسلول . فحصني . قال وردتاك تذبلان وجفتماؤهما . كنت أجوب البلاد أواجه الفاقة والمجاعة والاوبئة والامراض المنقولة . أتوغل فيه، لا أفهم . أرتل القرآن (مسحوا الموسى الحافية فيه) أطيل عند الخلق زياراتي . الارض لمن يفلحها . الاجنبي يستغل والاقطاعي يستغل الى متى ؟ رائحة الصوف المتعطفة تعبق والوادي يصقل أحجاره وينبع فوهات جليدية . يتلاشى قلبي في ماء الغسيل . ألقن الاطفال القرآن . أفلح أرضا بورا . تختمر لغتي ، تتصاعد تحت تأثير الخميرة، أبحث عن لغة أخرى، لا أجد مفاتيح الجنة ولا أجد مفاتيح أبواب الحروف وأنا أكتبها نماذج ، نماذج للاطفال على لوحات يطلونها بالطين ويضعونها الى جانب فرن الحمام فتجف في ليلتها . زخرفة حريرية على فلاذ رطب أملس ، أضربهم عندما يحرفون حرفا من حروف الله . هاتي بالفلقة يا غلام ؟ يرفع المسكين رجله الى السماء وانهال أضرب بعصا الزيتون على أخمص القدمين ، ينزف الدم ، تتعب يدي ويتعب قلبي . أترك هذه المهنة . أرفض أن أتاجر بلغة القرآن ... يأتون بالدجاج والسمن والشعير . قبلت في أول الامر ثم شعرت بأعينهم تحن الى عطياتهم . يموتون شرا ويغدقون على كل ما لديهم . هذا هو الاستغلال بعينه ! رفضت .. تركت القرية ! انخرطت في جمعية العلماء والقرآن يسيل من مسام بشرتي مع العرق ، تنضح الآيات من لحمي وأشكو من حالة الفلاحين الفقراء . يرفعون أيديهم سخطا ثم فاتحة ... وعسى أن ... أكره الاستغلال لكن لا أفهم كيف يمكن التخلص منه . قالوا . هذا كفر يا راجل ... تعقل

٠٠٠ استغفر ٠٠٠ مسحت عن قلبي دموعي وبقيت حزينا بينهم ٠ الخطب والهتافات والتراويح والتسبيح وغلق الماخور يومين في الاسبوع لنبلاء القوم وبعض المشائخ ويبقى الشعب أمام الباب يسترق السمع للهثات المومسات وعويل الثيران يحرثونهن ٠٠٠ أركض ٠٠٠ أطوف البلاد ٠٠٠ أحوم في المدن ٠٠٠ أتعلم أسلوب الطرق (الزوافرية) ٠٠٠ ألقح بصمات ابهامي وأطبعها على رئتاي ٠٠٠ لا أنام ٠ لا أجف ٠ ألعن الشيطان ٠ لا أنام !

وتعود سالمة الي وشائجها : نابزني أبي بعد موت أخي : الطائشة ! وعندما يهطل الصباح بضجيجه ورناته وهتافاته وأجراسه الطفلية ، أستيقظ : أي حزب ، يعني ؟ لماذا لا يقول صراحة ؟ بقي يختفي وراء الاثير ، وراء خيط الهاتف ٠ ثم يقص الصلة ٠ حرارة الهاتف المتقطعة ٠ أتخيله يهرب لاجئا الى بقراته يسميها بأسماء النسوة ٠ لا أكثر ؟ ثم تنظيف علب البق ، ثم تنام الدار ، والقمرة وأبقى أتململ من جنب الى جنب وأتذوق الارق والناس قيام ٠ كنت لا أفتح له الباب الا بعد رنات عديدة للجرس يلذع بصداه جو الدار ، ثم أختفي وراء الباب ويدق قلبي طبلا وأنا كالنجمة وراء الغيم داخل أزمنة التفكير الخاسر ، أخاف أن يدخل ذراعه من خلال القضبان هو من خلف الباب وأنا من ورائه وبيننا سياج العشب والحديد المتقشر تحت وطأة الصدأ والقلح والطليان والندى والبخار والبخور التي تبالغ أمي في حرقه على كانون الغيب والتنجيم ، ثم أفتح ويدخل ، هزيع ، برق ، صقر ٠ ينقض علي ، يحملني على كتفيه ٠ ثم كبرنا هو في شبابه ، تاركا من ورائه سن المراهقة وأنا في بداية المراهقة تاركة أعوام الطفولة الصغيرة ٠ يريد استبدال أعمارنا يصعب عليه العيش ٠ يضيق به الكون تمتلىء كفاه برحيق العنبر وروح الموت ويعود الى المنزل أحمر العينين وفي فمه نكهة حامضة ، يدور خنصره احتشاما وتضايقا ٠ لم أفهم (سوف أحدثك بعد عن العلاقة بين الجنس والنحو العربي ٠٠٠ مهلا ٠٠٠ أخي مات) كان جميلا ٠ رشيق

القد ٠ طويل القامة ٠ رقيقا كالبلور ٠ يعبر الايام حاملا علكة القلق الذي ألصقته القرون بمهجته ٠٠٠ دقيق الشعور ٠ لطيف الحس ٠ حساس ٠ يعبر الليالي ٠ يبحر من حين الى آخر ٠ يأخذني معه ٠ يقول ان الحانة باردة والسكر مدفأة للمصراد ٠ كان مصرادا يخاف البرد ٠ يلبس الصوف في الشتاء والصيف وأنامله جليدية مهما كان الطقس ٠ يسعل في الليل ٠ أذهب الى حجرته ٠ أجده يقرأ ٠ أرجع الى فراشي ٠ يسعل ثانية ٠ يلبس الصوف ويضع حول عنقه علاقة من القطن الخام ٠ ثلجية ٠ طويلة تتدلى يسارا ويمينا ٠ ارتجاج كلما مر بالقرب من مكان أو شخص أو حيوان ٠ ارتجاج الفضاء ٠ يموج الجو ٠ يعبر الايام وقد طالت لياليه ٠ راح يسهر في الحانة ٠ يدرس الطب في المساء ، ويعمل بالمستشفى في الصباح ٠ ولكن الليل : كيف عبوره ٠ يبحر بالكحول يسكر ويفتح في العالم للطيور أجنحة استكمالية ٠ يخترق الزمن يتقاطر في شرايينه يثقل الزئبق وقطرات الحنفية التي لم تغلق محكمة فتقطر القطرة بعد القطرة في حوض أيامه وتضجره الماء على الخزف (الحمامات الخزفية ما زالت تتبختر عبر الحدائق العمومية وهو يحاول دائما قبضها ، واذا ما سقطت الواحدة ظنها وابلا يسقط على الارض بعنف ٠٠٠ والمدينة تركض من ورائه بسياراتها وقطارتها وحافلاتها وهو لا يبالي ٠٠٠ يجري نحو البقرات، يخاف أن تمرض الواحدة ، أو تؤخذ وتحمل على ظهر شاحنة نحو المراعي ، أو المسالخ ٠٠٠) فيهرع الى الحانة حيث الصدف البحري والاباريق الناصعة والشجن المتدفق ، يختفي في قلوب الاصدقاء تبلعه جماعتهم وينسى همومه ويطوقونه بذراعيهم وقاية وحنينا وشفقة وتضامنا ٠ يشرب ٠ يسكر ٠ يثمل ٠ تنزف عرقا وألما تلقيحا وجذاذا ٠ يعرف أنه يغرق ٠ لا ينادي أحدا ، انما يحاور البق بعد رجوعه من الحانة ويبكي في أحضان أمي التي كانت تسهر في أول الامر داخل ورشة الخياطة بنوافذها العميقة فتنسدل عليها ستائر من التول الهفهاف المتلاشى والروائح المختلفة بالعنبر والصنوبر والشمع والزيت المستعمل لتشحيم آلات الخياطة ، وعندما يطول مجيئه ، تأخذ مكانها

على السجادة في فناء الدار وتجلس على ركبتيها تسبح تسبيحا وقد بدأ منذ أيام قليلة يحدوه الشعور بأنه يمشي في الفراغ ، فتعود كلما تحرك أن يستند الى الجدران والى الاثاث (تغيره أمي من مكانه كل شهر ، شعورا منها أن مثل هذه العملية تعطي الاشياء صبغة الجدة) يستند الى الزوايا وكأنه أصبح ألعوبة تحت تصرف هوائيات شاحبة . يشعر بأنه يزداد خفة . ينحف جسمه أكثر فأكثر ، فيمشي في الدار وكأن قدميه مستلقيان على زرابي الرخاوة والكسل معا ، وأصبح حسي الاتجاه يلعب له بعض المقالب ، وأدرك فجأة أنه قادر على التجول وعيناه مغمضتان ، في أي زقاق من الكون الضخم دون أن يسترشد بأحد . يتزحلق على استيهاماته مثلما يفعل الاطفال بمزالجهم وقد نبت بين أحشائه عشب طري فلا تمنعه ـ بالعكس ـ هذه الظاهرة من الاعتصار قلقا وسأما ، يقول : « خلق الانسان من قلق وكلك » . ثم يشرب .

ويتذكر الطاهر الغمري الصورة فيأخذها بين أنامله بحنان يديرها بلطف . انها أحسن من بطاقة تعريف وأصلح من تمثال أو نصب تذكاري . لقد مات بو علي طالب وهو يصنع القنابل اليدوية والقنابل المؤقتة (؟) سالمة تذكر جنازته لقد كانت تحدثه عن موت أخيها ، وبدون تغنج حول الاشياء كان ينطلق ويسترسل في الكلام يصففه وبعد فترة من الوجوم والجليد يقول ان جنازته لم يحضرها بل قرأ عنها ويتكلم عنها وكأنه كان من بين المشيعين لجثمان رفيقه . أتى الناس من كل جهات المدينة . كان بو علي طالب يتردد عليها ويغيب من حين لآخر ، يتصل بالثوار في المناطق الجبلية ويصلح آلات الارسال والاستقبال والاسلحة والمدافع ، ثم يعود الى ورشة الالتحام يتظاهر بصناعة الشبابيك ويعرق على تركيب العبوات الناسفة ، يضعها في قرطلة من التين أو العنب ، أو البرتقال ، حسب الفصول ويدفعها الى مناضل آخر ، يأتيه كل مساء في مكان يختلف كل مرة . أتى الناس من كل صوب وتقدم الجنازة فقراء القوم

واصحابه أولئك الذين كانوا يسكنون معه وكالة الهناء (أو فندق السعادة ؟) قبل أن يسكن في غرفة صغيرة داخل عمارة في وسط المدينة ، من حشاشين وبطالين ومختفين وكادحين • حاولت الشرطة أن تمنعهم من التجمهر فاختطفوا النعش وهربوا به فراحت تطاردهم سيارات البوليس والجيش ولكن بلا فائدة انهم يعرفون المدينة كجيوبهم الفارغة من النقود والمليئة باعقاب السجاير وموس صغيرة وبأسلاك حديدية يستعملونها لفتح الابواب عندما يريدون سرقة بضاعة ما أو ذهبا أو فضة أو أوراقا مالية • اختطفوا الجثة وهي عبارة عن كومة اللحم والاعصاب والشرايين والعظام (القنبلة الناسفة كانت شديدة المفعول) ونظموا جنازة كبيرة ودفنوه في مقبرة لا يعرف أحد مكانها ، ووجدوا صعوبة عندما راحوا يبحثون عن امام لقراءة صلوات الموتى ، فرفض الواحد بعد الآخر ، وبرر كل منهم موقفه بأن الميت كان شيوعيا والشيوعيين كما هو معلوم يحشرون في النار وخاف آخر من انتقام الشرطة • فخطفوا امام الجامع الكبير وأرغموه تحت التهديد بالسلاح على قراءة صلاة الاموات فقرأها ، وهو يرتعش خوفا ويسيل عرقا وكان يرتجل ويتلعثم ويدمدم ويغلط وكان قد وقف الى جانبه أحد أصدقاء الميت ، يضغط بمسدسه على أحد صدغيه •

ولكن الالماني كيف مات ؟ هل مات في فراشه كما سبق أن قلت ، أم مقاتلا ، أم ••• ؟



الفصل الرابع

كانت نواة الغرفة القصديرية تحوي ـ فيما عدا الكثير من الفراغ والاسلاك والشرائط والحبال ـ سريرا صغيرا ، ثم منضدة من الخشب القديم يقضقض طوال الليل ، وضع عليها كأس من الماء لا يجف أبدا ووردة صفراء مزروعة زرعا في حفرة صغيرة تتوسط المائدة المرقوشة ببق الاعوام وبموس حافية نحتت جملة لا تخلو من الغرابة ، ليضمني ظلهم ! كما وضعت عليها كراسات ومقلمة وعلبة من المعدن تحتوي على صمغ بين الوردي والصدأ وكتب قديمة وصفراء ، ثم موقد نسى حتى لونه يحمل غلاية مبعجة بأورام الاصفار والترحال والسياحات ومسخمة بطلاء بلاد السودان الابدي ، ثم لوحة قرآنية مزخرفة ومكتوبة (تبت يدا أبي لهب ...) علقت على أحد الجدران المشبوة بمسمار ناتيء وكأنه مصمم على الدوام طيلة قرون عديدة ، ثم أيقنة من الاواني الاشياء تزحف شتاتا وسط الحجرة الصغيرة حيثيبعثرها ويتركها تتراكم بدون موضوعية ، فتتشرب كل يوم مزيدا من القلح والدردى والسحالة ، تزحف كالبزاق تاركة ورائها آثارا مشكوكا فيها يلطخها زنجار الاعوام المالحة وهي تكركر من ورائها الثواني شذرة شذرة، فتترك صاحب المكان يشتط في كتابته على أوراق المصائب والازرار فلا ينبس بكلمة ولا ينبض بحركة ، وباستثناء صريف القلم على الورق يجري حثيثا فانه يحوم على الحجرة صمت رهيب صمت ما بعد التاريخ . يكتب الرجل ليلياته

ويندم على استعمال الورق ، ومن حين الى آخر ينظر الى اللوحة المعلقة على الحائط المطلية بغضار الماضي ، فتتصاعد الى منخريه رائحة المستنقعات المعشوشبة المحاطة بسياج من القصب ،اذ يذكر أنه اعتاد وهو يدرس القرآن ، الذهاب مرة في الاسبوع الى بحيرة ملحية ليقص أحسن القصب ويبحث عن عشبة خاصة تعطي للصمغ كثافته ولزقته ، ويكتب ويده كالكماشة العظيمة تضغط على قلم القصب ولا ينقطع عن الكتابة الا لتنجيره بموس صغيرة وكأنه بستاني يزبر الاشجار بجدية وحماس ودقة واتقان ، كأن الكلمات سوف تنبع من المادة الخشبية نفسها اذا ما نجر رأس الأداة بحكمة ومهارة ، فلم يبق عليه الا فتح المجال أمامه وهو في انزلاقه على الصفحة يحثحث بصريف مستعجل متداوم الوتيرة ، لا يكل ولا يمل ، يتزحلق ويفتح أبواب الغيب بطلا من الحروف المتعربسة وكأنها تسيل من الصمغ نفسه أو من ذبابة القلم ـ لا يدري ـ فتشبن الاشياء والامور والحالات والوقائع والحوادث والطوارىء والتواريخ والاسماء والارقام والشوادن والمصائب والحادثات والطارئات والاخبار والازرار ، كأنها تدنو منه ، فيمسها بواسطة القلب القصبي ، ويلمسها ، يتجسسها ويقولبها داخل مدونة ذهنية تفيض فيضانا فيوصد عليها الباب ولا تنفك تنهمر ، وتتساقط وترشه بمائها وتشبعه برائحتها وتشطفه عن محوره المعنوي لكنه لا يبالي ويزاول كتاباته ، يطوق اطار الكراس بخطه القرآني ، يغترف التاريخ اغترافا يكتب حول المشاكل التي عاشها والمشاكل التي يعيشها ، يمزج بين الامس واليوم ، في بعض الحالات ، يعبر بلا جسر نحو المستقبل فيها رائحة الكمون والنعناع تتصاعد من أدراج المنضدة السفلى حيث زرعها ، فيقول عندئذ انه غبي والا لما زرع مثل هذه الاشياء والناس يتهافتون على البطاطا التي لم يعد لها أي أثر لا في الاسواق ولا في مؤخرات الدكاكين المعتومة، اللهم باستثناء السوق السوداء والبطاطا في السوق السوداء أسعارها باهظة ومن أين للفقراء وللكادحين أن يشتروها ٠ يلوم نفسه ٠ الاسعار في تصاعد مستمر واللحوم والاسماك والخضر والفواكه أصبحت كلها

موادا ثمينة وعزيزة • بقيت البطاطا ولكن سرعان ما أخذت ترمق هي أيضا الى القمة • صار الفقير يجري وراءها ولا يجدها •• يندم يتألم • لو زرعت البطاطا لو وزعتها مع الحليب ككل صباح ! أما الكمون والنعناع فلا حاجة اليهما • يعود الى التخطيط ويزخرف والسيلان لا حد له ، يبدع المجاري لضبط هذا المنسوب الهائل الجارف ، ينسى رائحة الكمون والنعناع والغلاية لا تزال نصب عينيه تفتقر الى ماء والى نار لكنه لا يبالي حيث يكرس وقته في تدبيج هذه الليلات من خلال جولاته عبر البلاد ناج نفسه بعد ان اغتيل الاخرون وتدبيجها من خلال تجواله عبر المدينة والميناء المكتظ بالسلع والبضائع والبقر المستورد لدعم تربية المواشي فيشرف على تغذيتها وعلى راحتها ويدندن لها ويحلبها ، ويحدث أن تدخل سالمة بيته القصديري ذات مساء وهو نائم بعد أن عيل صبرها ويأكلها حب الاطلاع وقد جاهدت عبثا في تملك على شعورها الذي كان يرميها رميا نحو علبة القصدير الموضوعة هكذا على الربوة الخالية ، لا حركة فيها ولا حس ، فيستيقظ ويجدها جالسة وراء المنضدة على كرسيه الاعرج وكأنها لم تفارقه أبدا ، يخالها احدى ابنتيه (حليمة أو جميلة) (يامينة / ياسمينة) ثم يهرع نحو ثيابه يلبسها وهو يرتعد من فرط الخوف وتأثير المفاجأة • أما هي فتنظر اليه بكل براءة • وبعد أن ينتهي من ارتداء ملابسه ، يقبع أمامها لا يدري ما يفعل ويشعر بأنه لا زال عاري العورة وهو حليق الجمجمة فيحاول تغطيتها «بشاش» قديم لم يعد يعتمر به منذ زمن طويل ، منذ ان هرب وهم يترصدون أسماله كداء الحفر الذي ينقط معدته ببراغي الآلام والضغينة • لكنه لا يكره احدا • يكتب اذن (يا لك من مدرس غريب ؟ علمت القرآن واستعملت الفلقة وضربت ضربا مبرحا على مثل دأب معلمي القرآن الآخرين •• ثم تترك الكتاب وتنخرط في جمعية العلماء !) ويكتب دون مسودة ودون أدنى تشطيب ويغمره هو على هذه الحال ، نوع من الغبطة حتى تدخل عليه سالمة وفي يدها دجاجة مربوءة شمطاء ، تطلق سراحها قبل أن تجلس على الكرسي الفريد وهو جالس على فراشه والمنضدة

أمامه حيث الكر٣اس مفتوح كقلب مشرح الى شطرين والوردة مزروعة في سرتها العادية لا تفتقر الى الماء والكتب مبعثرة على السرير وتحت المائدة • يغلق كراسه بسرعة ، وتعربد الدجاجة علــى الساحة • لا يفهم وسالمة تضحك وتقول : « كل الدواجن حلال الا الخنزير ! » ويبقى باهتا خامدا ومبهورا ، وسالمة ترقبه في رجاء بريء وعفوي فتحس بشيء من الشفقة عليه وهي تراه من وراء منضدته يمضغ أحلام الترحال والعبور والتنقل يوم كان لا يعرف للاستقرار معنى وقد كان يذهب من مشتة الى مشتة ومن دوار الى دوار ومن قرية الى قرية ، وعلايته على ظهره تتأرجح وقد ربطهــا بخيط اللامبالاة ، وسالمة تضحك وتعيد بصوت خفيض : « كل الدواجن حلال الا ••• » والدجاجة تهد الارض وتمخرها جيئة وذهابا ، طولا وعرضا ، فتسود سريــرة الطاهرة الغمري وهو يعاني من صخب الدجاجة ومن ضحك الفتاة معا ، لا يعرف كيف يفعل وماذا يفعل فيغلق دفتره، يتأبطه وينهض خارجا نحو الباب بينما تبقى هي جالسة على الكرسي والدجاجة من حولها مقرقأة النقنقة هي الاخرى •

ينحدر نحو المدينة ونحو الميناء في وجه النهار وكراسه تحـت ابطه كأنه سبيكة ذهبية لا سعر لها ولا معيار ، وقد أناره هيجان لا حد له كأنه من الزئبق يغلي وينتهي به الامر الى السعال ، فيتبخر عرقه ويندية ماء بارد ويداهمه ربو (تسببه الدجاجة ؟) وفهم أن هروبه هذا كلما جاءت سالمــة بشطحــة جنــونية ، انما يرمــي الى تحاشيها ، وهو في الواقع يود لو يبقى أبدا قريبا من هذه البشرة الزنبقية ومن هاتين العينين الخضراوين ومن رنة صوتها قد غمرته بلة وبحة وعذوبة وموج وسمك ونرد وشبق قد خلى جسمه منذ زمن طويل ، رغم عشيات يوم الجمعة التي قضاها في زاوية سيدي عبد الرحمــان حيث تعود الذهاب لشم رائحة الانوثة وسرقة الشمع الذي لا يصلح لأي شيء الى أن يذوب من فرط الحرارة في الصيف ، على الضريح (مثل الحليب الذي يبقى في ضروع البقر ، يتحول الى سم قادر على

ابادتها ، لولاه ولولاه) وعلى الضريح تتراكم القرابـين والشمـوع والنقود والاقمشة والزرابي ، لا يعرف ما هو مصيرها ولمن تعطى ٠ يتجول ، يقرع الارض قرعا كما تفعل الدجاجة وهو يتخيلها تـدور وتلوب حول الكرسي وحول الموقد والغلاية التي أحدودبتها كدمات الزمن الزرقاء ، ويمر امام بناية البريد الكبرى ، فيرى عددا مـن الكتاب العموميين الجالسين بالقرب من المدخل ، وراء طاولات صغيرة وضعت عليها آلات راقنة ، يضربون عليها رسائل الاميين وقد أتوا من كل مكان وتغلغلوا في المدينة وسقطوا في فخها ، فلم يبق لهم الا المراسلة عن طريق الكتبة العصريين وقد استبدلوا أقلامهم الحبرية بآلات الطباعة ، والعصر يفرض نفسه والحداثة تسيطر على الحالة ، فيأخذ يتجول من طاولة الى مائدة ، لعله يجد كاتبا من عامة الناس ما زال يستعمل القلم الحبري ــ يا للمعجزة ــ أو ما زال يستعمل قلم القصب وماء الصمغ ، كما يفعل هو ٠ فلا يجـد الا الآلات وقد راح أصحابها يتنافخون عنجهية ٠ ويقول في نفسه لو أردت أن أعمل كاتبا شعبيا لفشلت فشلا ذريعا ٠ سوقي كسدت منذ زمن طويل وأنا لا أعلم أن العالم تغير ٠ لم أتغير ٠ أنا الوتد الثابت ٠٠٠ بصيص أمـل وباب نصف مفتوح ، العرافة وكتابة الحروز والبدد وقراءة الغيب على تجاعيد ثمل القهوة وضرب الخفيف وتهجية المستقبل على قطـع الرصاص التي تذوب ، فتغطس في الماء ، فتكتسب بنية هيكلية بمنعرجاتها وخطوطها وملتوياتها وأسنانها وفـواصلها وهمـزاتها وشراييـنها وأعصابها وتفككاتها الخ ٠٠٠ العالم تغير وامتلأ بضوضاء العظام البشرية تتبعه أينما ذهب وأينما صد ، فيبقى هكذا ، مشرعا لكل الرياح والعواصف والاعاصير ، وتدا ثابتا تجيئه الحمامات الضالة ــ خزفية أم لا ــ فتقطنه على هواها ٠ يريد الرجوع الى البيت ، يخاف قوقآت الدجاجة ويخاف من العطر المنبثق من بشرتها ٠ هي سالمة ٠ بنيتي ! لا يمكن ٠٠٠ يسمعها ترد عليه : عم الطاهر ٠ لكنه يحلم ٠ (أضرب خمسة !) لم يعد له مكان يستقر فيه ولا مأوى يركن اليه ماعدا الزريبة التي بناها للبقر داخل المصندقة الهائلة التي ربضت

هكذا كبعير بحري ماقط ، أبله ، متثاقل كالجبل الراسي في البحر لا تزحزحه قوة ولا تحركه عاصفة . سأعمل رمالا أو متشعوذا أو مهرب سلع على الحدود الصحراوية أو . تتغير الامور حولي ... هذه الحداثة بعينها . لهفي على الحرف العربي ... راح سدى وهباء في مباغي الاستهلاك ونحن لا نصنع ابرة ولا مساكا ولا مسمارا واحدا ... لكن ندق على الآلة الراقنة .(وأني لا بأس والخدمة مليحة والصحة بخير ...)ونكذب ونتنافخ ... وهي تستفزني بدجاجتها . الذنب ذنبي وأنا المذنب ... تركتها تقص علي تفاصيل مأتم أخيها ولم تر هي منه شيئا وقد سمعت عنه الكثير . ترجوا أن تكون فترة التأبين قد امتدت الى ما بعد التاريخ . خيطوه في كفن من قماش الغيب والغياب والغيبوبة معا . وضعوا على الكفن ذي اللون الاصفر البراق ، أزهارا اصطناعية من مادة الطلق والبلق . أخذوه الى المقبرة على نعش بأرجله الاربعة ولونه الاصفر القاني وزخرفاته المسمارية وصفيحاته المعدنية . جابوا شوارع المدينة ، رافعين النعش على راحاتهم شاهرين الجثة وقد راحت تتململ تحت قيظ القيلولة . يرتلون القرآن ويصيحون بأصوات نحاسية وقد كانت هي صغيرة لا تتجاوز التسعة ، قضت النهار كله تحت شجرة التوت مع أخيها مهدي وأختها سعيدة . لم تر شيئا ولم تتسلق الشجرة كالآخرين . أخوها أصيب بجرح في ركبته وشرب دم الافراز وراح يضحك ويهزأ ويخرج ذكره المنتفخ ويلعب به ثم يعيده الى مكانه . هي لا تتحرك . أختها كذلك تسلقت الشجرة ، بدورها . أما هي ،فلم تتحرك . أخذوه الى المقبرة على نعش كما كان معمولا به آنذاك أما الآن ، فنتبهرج ... تركنا الخط العربي والعربسة واستبدلناه بآلات مستوردة لم نصنع زرا منها . أما الآن ، فنتنافخ ... تركنا النعش واستبدلناه بسيارة الموتى ولقد لقبت وهي صغيرة بالطفشة . ثم بعد موت حاميها ومدافعها بالطائشة وما انفكت عائلتها تعتبرها من المزعجات أو خرقة تستخدم لتنظيف أرضية المنزل الرخامية أو للقبض على القدر وهي تغلي من فرط الحرارة . كان أفراد عائلتها يحسبونها فزاعة

مرسومة على جدار أو منصوبة على شجرة التوت تقيها من عربدة الطيور · انها جميلة · بل أكثر ، انها آية في الجمال · بشرتها زنبقية وعيناها خضراوان ورائحتها عنبرية ولكن فضيلتها الاساسية كامنة في قوة طاقاتها التمردية · تعمل في الخزانة الوطنية · تعيش بين الكتب · نبت على رئتيها زغب الحلفاء التي يصنع منها الورق· ولكن لماذا هذه الدجاجة ؟ يعني انها راعي البقرات الهولندية وحلابها ··· تهزأ بي لكنها تحبني ··· « عم الطاهر » تقولها وفي صوتها نبرة استهزاء · راح الخط الكوفي والثلثي والفارسي والريحاني والرقعي والديواني والجلي والنسخي ولم يبق الا خط واحد متخشب آلي · خط الراقنات · وراح النعش القديم الذي كان يحمل على أكتاف الرجال ولم تبق الا سيارة الموتى · محرك واطار · ولا انسانية بينهما · يحاور نفسه وكراسه تحت ابطه ، يتنقل من منضدة الى أخرى يتزاحم الزبائن على الكتاب العموميين ، انها ضريبة الجهل والامية · يبقى بصيص أمل رهيف جدا : رسائل الحب والعشاق · لعلهم احتفظوا بقليل من الحنين الى قلم القصب والصمغ الوردي ··· لو حدثتها في الامر لنصحتني : « أترك بقرك يا عم الطاهر وشغّل موهبتك الرئيسية ··· ألست خطاطا ماهرا وسوق السحر والشعوذة رائجة في المدينة حيث الميناء و ··· » لا تنهي جملها يا لها من عادة سيئة · انه مشكل السرعة والطقوس الجديدة انها تبحث دائما عن شيء في حقيبتها اليدوية ،تغوص وتنسى العالم من حولها · كانت ذات خسفات ونزوات منذ الصغر · لا تفتح الباب عندما · عبثا · لا فائدة في ذلك · قالتها ألف مرة · أعرف حياة أخيها وفي المقابل تريد أن أقص عليها حياة الرفاق ··· لعلها تتجوسس ··· لعلها تعمل مع الشرطة ··· لعلها تبلغ الشرطة عني ··· لا شأن لي بذلك · ولتذهب الى الشرطة · البقر ؟ كما تشاء ! اني لم أقترف أي جريمة · يمر على هذا وذاك · يقف · ينظر · يبتسم · يتحقق من وجود الدفتر تحت ابطه وأخيرا يتبلل عرقا · لا بأس كل رسالة تساوي مصيرا برمته ··· لهفي على الخط الكوفي ··· لهفي على

حزن الفقراء الذي يثقل العشية وقد راحت الطيور تسبح في فضائها الذي لا تحده سوى عارضة السماء الافقية الزرقاء وركيـزة الميناء العمودية ، بحاملاته ورافعاته وكاسحاته • وأنـا أيضا أرى أنني تعودت على عدم انهاء جملي • العدوى تسري بيننا • مدرس قرآن بسيط • بطاقة هويتـي عبـارة عـن صـورة • فقط • أحملها كدرع يصونني أو حرز يقيني من شر الناس ومن الساسة • أعود الـى البيت في حالة أحسن مما كنت عليه • قعقعة الراقنات ترهقني • تبدد قواي تلحم عظامي بقوس طنان • لكن ••• الدجاجة •

أتت بها سالمة من دار عائلتها • قالت أقدم له هدية تتماشى وظروفه • البيض مفقود في المدينة والخلق يكون سلاسـل الانتظار أمام الحوانيت والمغازات الكبرى وما ذلك الا لشراء البيض • دجاجنا عاقر وديوكنا واهنة • تطغى السوق السوداء على البيض ••• أهلا ! عدنا نهرب حتى صناديق البيض • لعله يفتقر الى دجاجة تبيض له كل يوم ••• آغار من البقر •• جميلة وحليمة ونسيت الاسم الثالث يامينة / ياسمينة ؟ قال لو تعرفين • ماذا أعرف • كل امرأة تحمل حملا مخيفا الا دجاجاتنا عقرت • لاتنجب • تجري النكتة على حافـة الطريق العمومية • قالوا أصبحت الدجاجة الوطنية تتناول أقراص منع الحمـل ولم يبق للنساء شيء للوقاية منـه • أتى التضخم السكني • تفجرت المدينة • هرب هو الى الربوة النائية • وها هو ينظر من بعيد • يتنقل من شعفة الى اخرى • لم يتغير • انما هزل جسمه وتقلصت قامته بالنسبة للصورة ـ كان يجرب الحزن الاممي• يكافح• يناضل • والآن ؟ انه عائش مائج • ومن حين الى آخر يزور سيدي عبد الرحمان ويرجع بكومة من الصور الذهنية : يمارس العادة السريـة أحبه • يقول : « بنيتي ! لا أريده ، يكفيني ذاك الذي عندي » • لا أكرهه • لا أحبه • سقط في طفولة لطيفة جدا وأغلق من ورائه الشباك وأرصد عليه الباب ورمى بالمفتاح صوب التوته ولما نعثـر عليه • سرقت الدجاجة من أمي في فناء الدواجن • أمي لا تحسب الدجـاج •

لديها الكثير · والناس في الشوارع يتجمعون حشدا غفيرا لشراء البيض · أتيت له بدجاجة · لا يعرف عن المجتمع الا القليل · مشكل الميناء يحلله ويسهب في الكلام عنه·كذلك الامر بالنسبة الى البقر والمواشي والحليب والرايب ··· والكتابة وادواتها،ايضا :اقلام القصب ومحبرة الصمغ والمقلمة العتيقة ، هذا هو عالمه فيتوقف عنده · والآن ، أتى بموضوع جديد : أزمة الكاتب العمومي · يطرحه كمشكل عضوي ، حياتي محض · وهو جاد في كلامه · فتأخذني نوبة من الضحك ، لكن فعلة الدجاجة تكفي ··· أخاف الانفجار وهو آت عما قريب · عيل صبري · أنا أحبه وهو لا يحبني · انه يشتم رائحة الانوثة وكفى · لا يحمد الله ، فهو ملحد · لا يثرثر في هذا الموضوع · كيف أنت ملحد ؟ لقد علمت القرآن · وبعد ؟ يغضب علي يثور · يهيج وكل ذلك من وراء السياج الزجاجي (بلوري ؟) حيث قلبه ينبض ويتخبط كأنه يريد الخروج من القفص الذي تحيكه الضلوع من حوله · ضلوع من الخزرج والاوس والماس ويقول : كفى بنيتي ··· الا يكفي ضجيج الدجاجة وصخبها وعنجهيتها وشهوتها · كيف تريدين أن تبيض في عزلتها وهي تفتقر فيما تفتقر الى ديك · لكن أرفض · يعود الى أقلامه يدوزنها كأنها آلة موسيقية (هل من علاقة بصريف القلم على الورق عند الكتابة وهو ينزلق حثيثا ؟) أما ما يربطه بالكتابة فعلاقة عضوية · فقد عضوه التناسلي واستبدله بقلم من قصب· يخجل هو عندما أصارحه الكلام عن مشاكل الجنس ، لكن حب الاطلاع يرهقه· ما هي العلاقة بين النحو والجنس ؟ أقول مسكين عم الطاهر لم تفقه أي شيء يا فقيه ؟ أعني به في هذا الميدان بالضبط ··· أبحث عن علبة السجاير وعن الولاعة ، فأخرج الاقراص · سأل مرة ويا ليته لم يفعل · أجبته صراحة · فارتبك · وخجل وتركني وانصرف انه ليس بالمتزمت · يغار ؟ فيه نوع من الغيرة · صورته عبارة عن بوصلة تقوده وتدله على أحوال الطقس وعلى كمية الامطار وعلى الحالة السياسية وعلى الوضع السائد والوضع الراهن وعلى الزوابع الداخلية حيث تحلق فراشات حمراء

تنبىء بالرعب وفوانيس الفلاحين تختصر على نثيث الضوء ٠٠٠
أهديته دجاجة ٠٠ ولا بد لها من ديك ٠ لا بد ، عم الطاهر ٠

انخرط الطاهر الغمري في جمعية العلماء سنة ١٩٤٥ ولم يبق فيها الا مدة عامين ٠ ثم انسحب ولم يعد يطيق سماع قهقهة المشايخ عندما يقول أن الفلاحين الفقراء يفتقرون الى الارض الخصبة ٠ تعبت أيديهم وتعبت شفرة المحراث البالي بين أذرعهم ٠ أخذ الشك يدب في جفنيه وهو يسعل ويسعل ٠ اتق الله يا رجل ! ارتبك ، خشخش ويسعل مرة أخرى ٠ لم يقل الفحشاء ولم يدمن على أي مكروه ، بل هو يرتل القرآن ويؤذن بباب المسجد ٠ لا منارة له ولا صومعة ولا مضخمات الصوت ، كبلال ٠ بين الرب وبين السماء ٠ يرفض كل وساطة ٠ وتفاقم سله وعسف الاستعمار ٠ واحتشد الفلاحون فنظمهم هو وابتعد عن المدن ٠ قفل راجعا يبث الدعوة فيهم ٠ أتاه الحزب ٠ قال أصلي ٠ قالوا ولو لا ؟ ٠ انخرط في الحزب سنة ١٩٤٧ ٠ والحكيم كذلك انخرط هو أيضا في نفس العام ٠ داواه الحكيم ٠ كيف حال وردتيك اليوم ؟ سأله ولو لم أدخل دينكم ، تعالجني ؟ طبعا ! وهذا ليس ديانة ، انما حزب ٠ دخل الحكيم في قلبه ، وضعه بين رتبته ٠ دخل المعمعة بسلاح آخر ولم يقهقه أحد يوم راح يطالب بأرض خصبة لكل فلاح ٠ استقر في القرية هناك على رأس الجبل ٠ وأصبح الجبل عرينه ومأواه وملجأه ومكان عمله ٠ المدى يسبح بين القرميد والقرميد والرجال يحرثون الارض والنساء يغسلن الصوف على أشرطة المجاعة ، فيهرب الافق من سماء الى سماء ، ثم الى سماء مقابلة ، يجري بسرعة فائقة قبل أن يطلق الليل عتمته ولونه في الاول كلون الخزامي ويصبح من ثم كلون النيلة وأخيرا كلون الحبر الاسود فيوشم الارض والماشية والرجال بسكين فريدة من نوعها ٠ وهو في تجوال مستمر لا انقطاع له ٠ تعرف عليه الفلاحون وأخذوا يسترقون السمع الى سعاله ٠ يعرفون من بعيد أنه آت وسعاله يموج الاثير فيقولون : سي الطاهر جاء يزورنا اليوم ٠٠٠ فيحضر عند دشرة

وكأنه شيخ تفسخ جلده وأخاديد الجوع رسمت بصماتها على وجهه. ترك الكتاب وجمعية العلماء وجاء الى الحزب . وصعد النخل الى نخاعه . وشجر المشمش . وعندما ينضج حبه يقطفونه ويشرحونه شرائح وشريحات يجففونها على قرميد الكوخ ويأكلونها يوم يغطي الثلج الكون ويكسوه وقد راح كل شيء يلوب أمامهم والاوضاع من حولهم مسامية هشة ، كأنما هي مغطاة بالطين أو - بالاحرى - بالغضار الذي يزقق الاواني والدواب والحقول والفجوات حتى أنهم أصبحوا لا يعرفون كثافة أجسامهم النحيلة ولا الفرز بين الواقع ومظهره .لكنه يشرح ولا يترك الضباب يتراكم في جماجمهم رغم السل الذي يسمه بميسمه ويثقل عليه وزره وقد تقرمط وتزنج وراح يقرأ كتب التاريخ وكتب النظريات الفلسفية فلا يسفسف عليه أحد ، وراح ينتعل مشاية من القطن صيفا وشتاء ويرتدي قشابية من الوبر لا يغيرها بل يغسلها من حين الآخر في الجداول التي تبخر برائحة الصوف المتعفنة وراح يطوق رأسه بشاش أبيض فضفاض ، وأخذ يلتهم الكتب ليعرف ما حدث في العهود البعيدة ايضا ما في وراء الجدران من أسرار تتعاقب داخل عقلية الفلاحين الذين يموتون فاقة ووباء وتعذيبا وكدا . يستيقظ الطاهر الغمري وينام ويأكل ويغضب ويتصالح ويخط صفحات كاملة على الدفاتر أو على اللوحات من خشب الزيتون الاملس المطلي بالطين المجفف (أو الغضار ؟) وقد جففته حرارة جسده المريض ، في الشتاء والذي تجففه في الصيف حرارة المشمش فيرسل أشعة تكاد تكون كهربائية وعندما يتحدث للفلاحين يؤثر عدم الاغراق في الكلام وعدم الاسهاب وقد تعودوا الكلام الفارغ وأصبحوا يأخذون حذرهم من كل ثرثار يأتيهم وكان هو يلقي عليهم الخطب مرة في غزة ، لكنه يحدس أن الوقت آت لا محالة يقرونه فيه عن رأيه .

كانت مبهورة بتأرجح نفسها بين اليقظة والنوم ، منذ الصباح الباكر وهي نائمة ورأسها اتجاه الحائط ، وقبل أن تحدس ، حسب

لون الستار المسدل على نافذتها عماهية نوع فرضة النهار ، فتعرف ما هي حالة الجو الخارجي استنادا الى حركات الشارع الاولى التي تصل اليها بمطاطها وامتدادها الطري أو باهتزازها وسهامها المنطلقة في الفضاء الفارغ المدوي وهي تنذر بصباح فسيح الارجاء ، جليدي وخام • وسالمة بين نوم ونعاس وبين يقظة ووعي ، تعلم علم اليقين ، قبل أن تفتح النافذة أو تنزل الى فناء الدار لتحتسي قهوتها فيما أبوها جالس يتصدر وسطه ، تائها في استيهاماته اللذيذة تعرف فيما اذا النهار ممطر أم صحو واستيحاء من أجراس الحافلات الكهربائية الاولى تلك التي تمر بالقرب من الدار بشكشكة حديدية وصرير سكتها تئن تحت عجلات مستديرة ضخمة • ولعل هذه الاحاسيس التي تقتحمها وهي ما زالت في الفراش ، انما تتداخل في شبكة النوم من خلالها تنزلق ، فتصبغها بلون الحزن اذا ما كان الجو غائما وبلون الفرحة اذا ما كان الجو صافيا • وكثيرا ما تقبع سالمة في بيتها أياما طوالا ، لا تعرف للدنيا وجودا الا من خلال النافذة المغلقة والشبابيك الحديدية المزخرفة من ورائها تلك التي تغربل الضوء والصوت والرائحة وكأنها مصفاة دقيقة ، لا تأتيها الا بواقع الامور وصحيحها• وكلما استفاقت وصادفت يقظتها مرور الحافلة الكهربائية، تذكرت تلك الصباحات الرائعة التي كان يصطحبها فيها أخوها الى المدرسة ، خاصة من خلال السنوات الاولى حيث كان يحملها ومحفظتها على كتفيه ويجري بها فيلهث من فرط التعب وهي تفرح وتضغط على صدغيه بيديها ، فتنتفخ شرايين رأسه وتخاف ان يموت فتسأله : «هل ستموت» ويرد عليها ان نعم ، فتخاف وتريد النزول وهي لا تعرف معنى كلمة الموت لكنها تعلمت أن تسمع الكبار يتلفظون بها بتخوف وحذر وربما بشيء من الخشوع • كما لم تفهم ما طرأ على المنزل يوم جرت هي وسعيدة أختها وأخوها مهدي ، الى قاع البستان وأمرهم أبوهم بالمكوث تحت شجرة التوت بدون صخب ولا ضجة لان أخاهم الاكبر مريض (الصداع في الرأس) أو مسافر (لمتابعة دراسته الطبية) أو شيء آخر ، قاله رب العائلة ، قد نسيته

بحرفيته ، لكنها ان تنس فلن تنسى تلك الارتسامات والانطباعات ، يوم الجنازة وقد كانت تنظر الى أخيها يتمرغ في عشب البستان ، أو يلعق دمه النازف من جرح في ركبته ، أو يلعب بقضيبه المنتفخ ، وقد كانت تنظر أيضا الى الشجرة تتثاقل تحت حركات أختها ، تتسلقها وتقول انها ترى كل شيء فكانت كعادتها تكذب وتقسم بالله العظيم والنبي الكريم والصحابة وبحياة أبيهـا وأمهـا وأخـواتها وأخوانها وبحياة كل أفراد العائلة وعمتها فاطمة العجوز التي كانت تشرف على شؤون الدار وقد كانت نصف شغالة ونصف فرد من أفراد العائلة ، يخافها الاطفال لشدة حرصها على النظافة والغسيل ، لا تطيق أن يلطخ أحدهم الارض بحذائه عندما يهطل المطر ويلصق الوحل بالنعل كأنه لصاق أو دبق أو صمـغ وهنـا تتذكـر الصـورة والرجل الـذي يتوسطها • تقول : المسكين ، لم يبق الا هو • ماتوا كلهم وكل واحد على طريقته الخاصة ، الا هو نجا من الموت أو أفلت منهم وهو علـى شعر شفرة منها ، يهرب ويأخذ في عبور البلاد واكتساحها شرقا وغربا بحرا وصحراء ، يختفي عند الفلاحين الفقراء أمثاله وينظم العمليات معهم وينصب الكمائن ويعود مكرارا ، من عرين الى عرين ومن رأس جبل الى رأس جبل ومن شعفة الى شعفة ومن رعن الى رعن حاملا معه أينما ذهب رائحة المشمش الجاف والصوف اللزقة والفقر بـين ضلوعـه اليابسة وقد تعلم كل المنعطفات وكل المنعرجات وسلـك كل الطـرق المختصرة والدروس الوعـرة ، ما حيـا كل سفسفة ، ضاربـا سهمـه في صميم الموضوع فيقاوم ويقاتـل ريثما • وهـو بين اللون الوردي والعنابي والباذنجاني والقرمزي والامغر والصلصالي والرماني هذا حسبما يكون تركيبه ونسبة الماء فيه ونوعية الشجـرة التي ضخ منها ، أو الدم الذي نزف (دوامة الايام وناعورة الفصول : كان الشتاء لا تفقد التوتة أوراقها الكبيرة وها هو مهدي يسقط مـن الشجرة على ركبته اليسرى فينزف الدم فيبكي ويأخذ في امتصاصه مازجا دمه بالدموع والريق • وسعيدة تصعد الى أعلى الشجرة التي كانت تبتلعها رويدا رويدا : تبتلع الظهر ثم المؤخرة التي يغطيها

قطن السروال الملطخ. ثم الفخذين، ثم الساقين ثم الارجل ثم الاقدام.
وقرع الاواني يأتي الينا من المطبخ مع روائح الكسكسي وهو يفور في الكسكاس وتأتي غوغاء لا يمكن تحديد مصدرها ولا من أية غرفة بالضبط آتية هي . ونغمات الاصوات تدندن القرآن والذكر . ومهدي يتمرغ . وسعيدة تحاول أن تستلفت انتباهنا) . دم مشبوه فيه ، خليط من طمث ومزح ورحيق . ويلصق الوحل بالنعل كأنه ... والعجوز من ورائنا لا تحترم أحدا . كنا نخاف منها وأمي تخافها . انها ابنة عم أبي وشغالة . أو بالاحرى كانت تشرف على الشغالات ، لا تشفق عليهن ولا ترحم . تكره الاوساخ ويمقطها هلواس النظافة : لا تخاف احدا الا السلحفاة الصغيرة «فكرونة» التي كانت ترفض الاستقرار في الحديقة أو في الفناء فتتعمد المكوث في حجرة أمي تدور حول الضوء مهما كان مصدره وتقضم ورقة الخس تنحتها نحتا ، ترفض العجوز الاقتراب منها وهي كثيرة التطير منها قائلة انه الحيوان الوحيد الذي ضمن مأواه في الجنة والدليل على ذلك انه يحمل داره معه ... اليها . فنحترم بدورنا هذه السلحفاة التي كانت تخيط الفضاء جيئة وايابا داخل الغرفة حيث يتراكم الاثاث تدور دورانها المستميت والاخرى من ورائها (العمة) تلهث وتتنفس الهواء بسرعة تحتسيه بأنفها ، تنظف الارض وتحكها بفرشاة حديدية مشبعة بالصابون وبعقاقير أخرى صاقلة ومطهرة ، لا تترك للجراثيم حظها للتزايد حتى اذا ما أصطدمت بالسلحفاة من غير قصد ، استغفرت وقامت بالكفارة فتصوم يوما كاملا قائلة انها قادرة على جرنا معها الى الجنة اذا عرفنا كيف نحسن التعامل معها . وكنا نكرهها (العجوز الشمطاء والسلحفاة المتخنثة) - ذكر أم أنثى هي ؟ - ومن حين الى آخر ، كنا نغلق الباب على الحيوان ونحاول ضربه على الرأس ، انتقاما منها ونكلة ، لكنه سرعان ما كان يدخله في هيكله (داره كما تقول) ، فلا نجد له حيلة ونتركه قبل مجيء العجوز وفي يدها الفرشاة الحديدية تهددنا بها (أسلخ جلدكم !) تجري وراءنا رغم هرمها (لا يعرف أحد سنها بالضبط ، لكنها على ما تزعمه أمي كانت قد

جاوزت المائة ، تهددنا من خلال دوامة الغرف المتـداخلة الواحدة في الاخرى ومن خلال المقصورات المتشابكة ودروب البستان الملتوية ، فلا يوقفها حاجز ولا يعيقها عائق : الشمس تضع الاشيـاء كل منها بجانب الاخر وتقلدها الظلال والاشباح والخيالات فتشكل بدورها نسيجا نثا مبقعا • ظل يساميه ظل يساميه شبح يساميه خيـال ، وكان ـ عند انهيـار الشمس ـ لكـل شيء ليمـه : شرائح السياج الخشبية، أجزاء السلالم ، قشور الاشجار اللينة منها أو العجراء ، الكراسي المخططة (في الحديقة) واللباس المكوم أكواما أكواما ، الستائر المثقوبة التي ثقبتها الايام ، الزرابي المنحولة من المخمل ، الحنابل المنحولة من النسيج ، الاسمطة المرتقة بالخيوط ، الخ (في الدار) • والعمة ما كان ليعيقها عائق أو يوقفها حاجز أو يعرقلها دوار أو يطوق بالها ريب • تجري من وراءنا • تحاول ضربنا من بعيد بعد فشلها في عملية السلخ هذه • وكما كانت العمة تتجنب السلحفاة ودارها المقدسة ، فقد كانت تستثني أيضا من بيننا أخي فؤاد وهو من أشرفت على تربيته بنفسها بعد اقصـاء أمنا عـن هذه المهمة واضطلعت بكل أموره فراحت ترعاه ، وهو يترعرع وتدافع عنه عند اقترافه أولى هفوات أيام حضانته فقد كان مولعا بمزج الاشياء بعضها ببعض ويخلطها معا حتى اذا ما وجد دقيقا وسكرا وزيتا وخلا وقديدا وماء زهر ، جلس على الارض وأخذ يصب الزيت على السكر والخل على القديد ، ويقهقه زهوا ، تأتي أمي ، وقد كان في السنوات الاولى من عمره ، تحاول ضربه وتوبيخـه ، فتسبقها العمة واقفـة بينها وبينه درعا واقيا وحصنا صلبا وبنيانا مرصوصا تحدق بعينيها السوداوين ، تحرك شاربها المكسو شعرا كثيفا ، فتهرع أمي فزعا وقد هالها هذا المنظر المخيف ناهيك عما كان ينتاب أمي ارتجافا اذا ما راحت عمتي فاطمة تكشر عن نابها الاعلى ، ذاك الذي لا تملك دونه من الاسنان ، فتضعه على شفتها السفلى في تكشيرة جنونية رهيبة تعلن عن غضب لاحف وضجر زاحف فتبقى وحدها في الميدان ظافرة فيما يبقى فؤاد جالسا على الارض مستأنفا عملياته ، لا يرفع رأسه ولا

يداخله ريب في قدرة ظهيرته على التفوق في المعركة التي قامت رحاها بين أمه وعمته العجوز ·· يستأنف مزج الملح بالقهوة والقرفة بالدهان والفحم بالشحم ولا يبالي · وتقف العمة من ورائه تسترق النظرة اليه وقلبها اليابس (لماذا بقيت عانسا لم تتزوج ؟) يفيض حنانا وحبا · تقول سالمة : « كنا نبتعد بعض الشيء لنرجع الى الصورة ··· وخامسكم ؟ لا تتحدث عنه كثيرا · سئمت الانتظار وعيل صبري وأنا ألح عليك وأنت ترفض الحديث عن بو علي وما يعتم أن تتفجر أنت كالوادي الهرهار وتخترق حدودك الضيقة فتفتح جدرانك الداخلية ، تنزلق على مصراعيها ، ويصبح من الصعب ايقافك ، ولا تكف أنت عن الكلام · تتكلم عن بو علي طالب والالماني ودروسه السياسية والحكيم ··· لكن وخامسكم هذا ؟ أليس هو أصغركم سنا ؟ وجهه خلاب · شيمته : الجمال ···

كان سيد أحمد (خامسهم كما تقول) أستاذا في ثانوية البنات كان يعلمهن اللغات ويدربهن على سباق المائة متر · وقبل أن يكون مدربا ، كان عداء مشهورا وبطلا متواضعا ، يتسابق مع الريح على المسافات القصيرة (١٠٠ و ٢٠٠ و ٤٠٠ و ٨٠٠ متر) ويهتم بسباق ١٥٠٠ متر حواجز ، فلا يغلبه أحد · كلما جاؤوا بعداء سريع ، وظنوا أنه سوف يغلبه وينتزع مكانته ولكنه سرعان ما كان يخيب ظنهم بدون تعمد ولا حيلة · فراحوا يجوبون العالم ويعودون مصحوبين بشبان قادرين على الجري كالبرق، غير أنه قهرهم كلهم الواحد تلو الاخر · تغلب عليهم جميعا وكان ينطح السماء اعتزازا كلما مر فوق حاجز · كان سيدي أحمد يجري ويعلم البنات اللغات · وفي يوم من الايام وصل الى المدينة عداء بلجيكي قيل انه حاز على بطولة العالم · لم يستهزىء به سيد أحمد ، بل راح يكثف تمريناته ويسهر على لياقته البدنية · جاءه البلجيكي الى بيته · طلب منه أن ينافسه · قبل بيقين مرح وكأنه يوافق على هزيمة لا مفر منها · كان العداء البلجيكي يجري وكأنه يسقط غيوما من الاعصار · كاد سيد أحمد

أن يغمى عليه لولا أصوات مناصرية تنغزه وترشه بابر رناتها ٠ كانت المسألة بالنسبة اليه مصيرية ٠ فبذل أقصى جهده ، وما كان من البلجيكي في الوهلة الاولى الا أن أخذ بزمام الامور ولم يرض الوطنيون بهذه الوخزة ، فصمموا على اغتيال الاجنبي اذا ما أصر على الاستمرار بالجري على هذه الوتيرة وفاز العداء البلجيكي وانهزم سيدي أحمد وذلك لاولمرة في حياته وأمام جمهوره هو ٠ لكن الوطنيين عدلوا عن قتل المنتصر وتركوه يعود الى بلاده على طريق السلامة مثقلا بالهدايا ودموع الوداع ٠ قيل أنه ندم فيما بعد على فعلته الشنعاء وانه انتحر عندما قرأ في الجريدة خبر وفاة سيدي أحمد ٠ لكن مثل هذه الدعايات انما كانت من باب الخرافات والاساطير ٠ يبقى ان سيدي أحمد توقف عن الجري وأخذ يدرب فتيات الثانوية في المدرسة التي كان يدرس فيها ، على سباق الـ ١٠٠ متر ٠ فقط ٠ وكأنه لم يعد ليتذكر كيف يفعل العداء عندما يجري الـ ٢٠٠ ، الـ ٤٠٠ ، أو الـ ٨٠٠ متر ٠ أما الـ ١٥٠٠ متر حواجز ، فيرفض حتى المناقشة فيه ٠ قيل انه أصيب في عنجهيته منذ زيارة العداء البلجيكي٠ قيل أيضا انه شعر بوصمة العار على جبينه تلك التي حفرت جبين جمهوره ومواطنيه وكلأبناء وطنه المقهور كان يعلماللغات أيضا ٠ وينظم خلايا الحزب داخل المعهد حيث كان يدرس ٠ ثم التحق بالمقاومة في شهر فيفري ٠ والقي القبض عليه سنة ١٩٥٧ ٠ يوم ٢١ اكتوبر بالضبط٠ عذب مدة عشرة أيام٠ ثم أحرق حيا٠ كان ذلك يوم٣١ اكتوبر ١٩٥٧ ٠ بالتدقيق في الساعة الرابعة و ٣٢ دقيقة في ضيعة معمر ٠ تعذب ولكنه لم يتكلم ولم يفه ببنت شفة ٠ تقرر مصير انسان برمته في بضعة أرقام ٠ هل من تطير آخر ؟ والدجاجة تقرع الارض قرعا بمنقارها وهو يتكلم ببطء كعادته تلك التي ألفها مع الفلاحين الذين لا ينطقون بحرف الا لحاجة مدلة وهم دوما يختصرون ويذهبون توا الى صميم الموضوع بدون لف حول المسائل ولا دوران ٠ الايجاز ٠ من شيمهم الجوع معلم وأستاذ أنه يلقن كل الامور حتى اللغات ٠ هل من علاقة بين النحو والاقتصاد ؟ وتضطرب سالمة ولما تحدثه بعد

عن العلاقة بين النحو والجنس كما وعدتــه لعلها تتهرب • تسال نفسها • ولا تجد للسؤال جوابا • فتأخذ حقيبتها الصغيرة وتغرف بيدها علبا وأقراصا ونظارات وأقلاما وكأنها تنتظر أن تجد الجواب مكتوبا على أناملها وقد لوثها فتات التبغ وما وقع في قاع الحقيبة من مختلف المسحوقات (مسحوق التجميــل ومسحــوق رصاص الاقلام ومسحوق الغبار الطبيعي ، علاوة عن قليل من التربة) انها تحمل هذه المسحوقات لتشفي غليلها وحنينها وتطمئن من وعلى نفسها ، من وعلى البشرية والكون أجمع • يعيد وفي صوته بحته العادية انها تظهر قبل نوبة السعال كالسحابة المنبئة بالمطر أو كالغيمة المنبئة بالقحط والحر : الجوع معلم وأستاذ فيصبح الاستطراد فرضا حيويا ، لا يمكن التخلص منه • كان يعلم اللغات ويدرب الفتيات على السباق بعد أن ترك الحواجز واستبدلها بالخـلايا عاكفا علــى تنظيمها في الثانوية • لكنها ــ ورغم كل التحولات عن الطريق المباشر ، التــي تدخلها على الحوار القائم بينهما ــ فهــي تسقط دائما في دهاليز التاريخ وأروقته الحالكة دهاليز لا حد لها ولا منطق والتاريخ يدور ولم ينته بعد من الدوران يدور حول معطياته نفسها التي لا تتغير أما هي فتفقد كل يقظتها ودقة ذهنها من جراء الاسئلة الثانوية أو الوسيطة أو الفرعية التي تبهرها كأنها تحدس لا أهميتها وحسب انمـا جوهريتها أيضا تريد المزيد من التفاصيل مهما كانت محرجة • هل كان متزوجا ، هل كان له أولاد ؟ هل كان له من عشيقة ؟ أو من محبة ؟ هل كان له قلب وأحشاء وعاطفة وحس دقيق ••• أم لا ؟ كان أستاذا وعداء ومنظما سياسيا ، لكن حدثني عن الاشياء الصغيرة ، وسمها كما تريد : ترهات ، خزعبلات ؟ كما تريد ••• لكنني أريدها • ليس التاريخ آلة ركبت على مبادىء مجهزة نهائية أو مجمدة أو متخشبة أو متحجرة • حذار أن يتحول التاريخ الى مجرد ترجمة الاموات فــي سجل الوفيات ! حتى أنت أصابتك عقلية قدماء المحاربين ، يا عـم الطاهر ! واذا بضجرها يظليها ببنفسجية النزاهة • ثم تتراجع ، تعتذر ، تمحو عنفها وكلماتها الغليظة ••• لكن هـل التاريخ مادة

آلة ووقائع ومعارك ركبت على بضع مبادىء ومؤامرات وتصفيات ونضالات ، فقط ؟ هذه المعطيات لا تشكل الا الخطوط الكبرى فقط · التاريخ هو الآخر يتموج ويتعرج ويخفق خفقان القلب والعاطفة والاحساس من وراء الشفافية والعتمة ، أريد تفاصيل أخرى عن حياته وأنت تقدم لي شبه ترجمة رسمية كساها الجليد وغبار الموتى وبخار الكافور بصفيحة الموضوعية والحياد والوقار · ألم يكن يضحك، سيدي أحمد ؟ ماذا تقول عن لون عينيه وبشرته ؟ كيف كان يسرح شعره ··· كيف كان يعتني بملابسه الرياضية ··· ما نوع التبغ الذي كان يدخنه ايا من الروايات كان يفضل ؟ أي الافلام كان يحب ··· ما هي ألوانه المفضلة ··· هل كان يحب الفاكهة وأكل الدوارة التي تطهى بالفلفل الحار وبالمزيد من الكمون (وأنت تزرعه في أحد أدراج منضدتك بحجة أنه ينبت غزيرا اذا ما بقي بعيدا عن الشمس ومحاطا بالندى والرطوبة !) وبالثوم والبصل ·· ؟ وأنت تختار شوارع التاريخ العريضة وتترك دهاليزه وخلفياته وجزئياته ··· ستخجل اذا ما صارحتك بأنني سقط في شراك حبه ··· أي نعم ، حتى الاموات هم في حاجة الى قليل من الحنان ··· أحبه عم الطاهر ! كيف كان يسرح شعره ··· الصورة لا تقول هذا ! كان يرتدي شاشا · ما العمل ؟ هذا هو التاريخ بعينه ! يقول في نفسه : تكاد تجن ··· انها على قيد أنملة من المرستان ··· مسكينة ! انها تسقط في حبال الغرام والرجل مات منذ خمسة وعشرين عاما لقد توغل السوس في نخاريب عظامه وهي تعشق · تعصر نوبة من السعال (أو الضحك) رئتيه الرهيفتين كوردتين تترددان بين الذبول والاشتعال ، بين الحزن والنشوة · فرصة أخرى أضيعها · لو سكتت لكان الامر أهون · فيصمد حتى ساعة انصرافها وقد كانت جالسة على كرسيها المعتاد تعتريها موجة صمت مفاجىء بعد البربرة واللغو · لماذا تربط النساء الامور كل بالعاطفة ؟ يتردد بعد الاستفهام · ثم يطلق العنان لموضوعيته بعد أن كانت سالمة قد تركت الحجرة منذ لحظات : لعل زخامة التاريخ تتقلص في بضع قواعد ذاتية محضة ؟ من يدري ؟ من

يدري ؟ واذا به يفكر ويقطب جبينه · يحاول ان يتذكر · يعصر مخه · يضغط بكلتا يديه على صدغيه · على أي جانب كان يوجد مشقاء الشعر على رأس سيدي أحمد ؟ يهزأ بنفسه وهو يتأثر الى هذا الحد بكلام سالمة · وفجأة تغمره فرحة تغسل جسمه المتعب الهزيل : على الجانب الايسر ، طبعا يا رجل ! فيستلقي على فراشه وكأنما يكتشف بوصلة جديدة أو يخترع أول بوصلة عرفتها الانسانية · طبعا يا رجل كان يحمل فرقة شعره على الايسر ، طبعا ···

تقول له سالمة « أضرب خمسة عم الطاهر ؟ » وقد كان يكلمها في الهاتف مرتبكا ، خجولا ، غير مطمئن الى هذه الالة الجهنمية ويتساءل : كيف أضرب خمسة وبيني وبينها خيط كهربائي طويل طويل خيط يمدد فروعه تحت الارض بمدهاة ومكر · مجنونة هي ! لكن المسألة بسيطة · اني موافق · أضربي خمسة ، بنيتي ! هل أحدثها عن زياراتي الى سيدي عبد الرحمان وخطة التاريخ من أين يمر ، وتياره الجارف من أين ينبع والى أين يذهب ؟ أين أصله وأين مصبه ؟ طيب يا سالمة أضربي خمسة · حقيقة كان يفرق شعره الاسود · تقاطعه : ولون عينيه ؟ عم الطاهر ، ولون عينيه ؟ يقطع المكالمة تعرف مغزى مثل هذه التصرفات تندم والسماعة على أذنها تدفع بحرارتها المتقاطعة وكأنها سيارة الاسعاف تخترق طريقها لنجدة كل منكوبي الارض وكل معذبي الكون مثل أولئك الذين كان يتعامل معهم ، بعدما اعتصم في الجبل بسلاحه رفقة سيدي أحمد وأبو علي والالماني والحكيم والاخرين · المقهقهين على الصورة الذين يفتعلون الضحك أمام عدسة المصور وقد يكونون ممن لم يتعودوا مثل هذه المعاملة ، متسللين في نزوتهم هذه وقد أخذ الذعر بهم أشواطا كبيرة وهم يعلمون ما وراء هذه الالة الساحرة ، فيعاودهم تطيرهم رغم النظريات العلمية التي تدعمهم وتدعم كفاحهم – وهو كذلك على نفس الحالة ، لم يتغير ، بعد مضي خمسة وعشرين عاما ، انه يكره

آلة الهاتف والمذياع والشاشة السينمائية وكل الاختراعات الحديثة والقديمة ما عدا البوصلة ، انه يشعر وكأنه هو الذي اكتشفها عندما تذكر أين يسطر بو علي فرقة شعره وهو يسدله كل صباح ـ يندمون (وهي كذلك على هذه الحالة تاركة السماعة تبكي بكاء متقاطعا) على جرأتهم عندما قبلوا أن تلتقط لهم صورة ، فلا يجدون مخرجا اخر سوى هذه التفجيرة العصبية التي تخفف عنهم عبء المسؤولية ووزن التاريخ وعبرة الايام تتطاير شرارتها وهم يقسمون برؤوس الانبياء والصحابة والاولياء الصالحين والثوار المخلصين ، انهم لن يسقطوا مرة أخرى في مثل هذه المصيدات ، ومن يدري ما سيكون مصير هذه الصورة والعساكر تطاردهم والشرطة تربي الكلاب على شم رائحتهم وكأنما الجوع له عدة روائح ، من يدري ؟... اليقظة زادت الثوار تحفظا ، فحذار اذن ! يقسمون انهم لن يسقطوا مرة أخرى . لن ينسى أسماءهم رغم كثرتهم وأسمالهم المتشابهة ووجوههم الصائمة وجوزات أعناقهم النائية من شدة نحالتهم . يقطع المكالمة ويخرج من حجرة الهاتف العمومي وهو يلعن نفسه : أواه ، أواه ؟ رايحة تهبلني ، تخرجني من عقلي ! والى متى هذه الحالة وهذه العلاقة ؟ لا منطق ولا تاريخ ولا نهاية . ماذا تقصد من مفرق الشعر ، دخلنا في باب الاعين . هل أدري أنا ما لون عينيه ؟ يقف برهة يتأمل النوارس وهي تلتهم الماء على مرآته ، دون أية حركة . صحيح ، لا أعرف لون عينيه ! لكن أسقط في حبالها ، أدخل لعبتها . أترك عنك يا رجل ! أمور صبيانية . تريد أن تلقنني درسا في التاريخ ! انها حمقاء ! حمقاء ! أنت حمقاء يا سالمة ! فيهرع الى الميناء . ينزل سلما ثم آخر . ثم آخر . مدينة السلالم . سلالم متبعثة في كل مكان ، صاعدة ، نازلة ، طالعة ، منحدرة ، متعرجة ، ملولبة ، تدور على نفسها وتلف في دوارها المارة المساكين الذين لا يعرفون اليها سبيلا . يتسارع نحو الميناء والبقرات في انتظاره وهو يخاف كل يوم ألا يجدها في مكانها كالعادة ، تدور ذيولها مسترحبة ، فرحة بقدومه ، يسمي كل واحدة منها باسمها . جميلة ، حليمة ، يامينة ؟ ... يدندن لها :

يأتي بالشعير من مصندقة أخرى مفتوحة وأحشاؤها الزروعية منتشرة حواليها تذهب هباء في الميناء ويفرقها الريح نحو البحر فتنقض على حبوبها النوارس وقد كرهت أكل السمك وسئمته • يدخل الى الميناء والاسطل في يديه ، فتخيط جفنيه حركة الالات الدؤوبة ويصبح الفضاء عبارة عن متاهات ضخمة مكتظة بالرموز والاشارات والعلامات والتخمات والشواخص بتعرجاتها ومنعرجاتها وطياتها وشريحاتها وكأنها تنفلت وتتراكض من خلال شبكة دقيقة تشكلها الخطوط المتقاطعة والكسور المتصلة والفلق المتتابعة والسهام المتبرجة والرسوم المتكسرة ، وكلها أخذت طريقها الخاصة وكأنها مستغنية عن الاخرى ، مستقلة تمام الاستقلال ، رغم وجودها داخل بوتقة عامة من الرموز ، الى أن ينتهي به الامر أخيرا الى وضع أسم عليها: الميناء • الميناء يكون عدة تشابكات وتداخلات وتضافرات وتصالبات وركامات صعبة التأويل والفهم ، تتفجر في ذهنه على شكل كلم وأشواج وقروح تعذب عينيه ورئتيه في آن واحد • لكن ما لون عينيه ؟ وعمتي فاطمة تخاف من السلحفاة • أتذكرها بنابها الفريد اليتيم المجنزر ، تخرجه وتضعه على شفتها السفلى فتتوقف قلوبنا عن النبض وتكاد تتميع داخل قفصها العظمي ، كلما قمنا بعملية تلويث الدار أو الحديقة أو استعملنا تصرفات لا تندرج في قانون اللياقة الخاص بها ، أو تتصدى لنا من أجل أخي فؤاد ننتزع له بالقوة خبزا أو فاكهة أو فاكية • انه المفضل عندها ، تحظوه بامتيازات كبيرة لا حق لنا بها وتطوقه بحنان رهيب تغير عليه ، رغم وجهها وسنها الطوفاني (المائة عام تقريبا) وتجاعيدها المخفية وشاربها الكثيف • تغير على فؤاد وتسرق له في النهار ما تعطيه في الليل ، لكنها تطاردنا ، تقرصنا ، تضربنا وتشتمنا قائلة : « يا نفخي ؟ يا نفخي ؟ حبيتوا تتزبوا قبل ما تتعنبوا ••• آه ؟ فيأخذها الجنون في حباله اذ نسمع هذه المرأة العجوز تقول كلاما فاحشا ما كنا لنفهم معناه ونفهمه الآن عند الكبر ، لكننا كنا وكأننا نحدس ماذا تعني من ورائه وما كان يحوي من سفاهة ودعارة وايباح وحرية تعبير وهي العانس التي

لا تفقه في هذه الامور حاجة ، تركض طيلة يومها ، تدلك الارض بفرشاة حديدية ، لا تخاف الله ولا العباد ، الا السلحفاة و ··· فؤاد ، وتنام مبكرة كالدجاج (أتيته بدجاجة لانني أغار على البقرات الثلاث وهو يرفض أن أذهب معه الى الميناء لأراها بعيني وأكبح شطحاتي الجنونية نحوها ، وكذلك لأن البيض أصبح مفقودا في البلاد كلها ··· لكنني نسيت أن الدجاجة ليست من فصيلة الخنثى كالحلزون مثلا الذي لا يحتاج الى ديك يخصبها · ولم آت بالديك وراحت هي تضرب الأرض بمنقارها فترقشها بحفرات الغضب وتلوثها بذرقها فتلونها بلون الاستهتار) · تنام مع انتهاء النهار وسقوط الليل · وفؤاد معها ، ينام بين أحضانها الواهية ورائحتها الكريهة لأنها وان كانت تحرص على نظافة البيت دائبة على تطهره ، فانها لا تعتني بجسمها الهرم وقد أوشكت على موتها منذ سنوات ، لكن الموت نفسه لا يريدها ، ونحن تحت شجرة التوت نستفزها ونضحك من قفزاتها الجنونية ونشتمها : سحارة سحارة ! وهي ترد علينا : « آه يا نفخي آه ! حبيتوا تتزبوا قبل ما تتعنبوا » نتسلق التوتة ونختفي بين الاوراق ، على قمتها وأستغل الفرصة وأقطف أوراقها فيما بعد الى البقات الأخيرة وقد ضرب الوهن فيها بمطرقة الموت الفوسفورية، لكن بدون جدوى، أما السلحفاة فليست هكذا فانها تعرف كيف تعامل أوراق الخس تزخرفها بطربزة على شكل سنان المنشار · أما الأولاد فيربون دود القز على المستوى الصناعي ويحشرونه في علب تفتقر الى عتاقة علب البق التي تركها لي أخي مع دفاتر مكتوبة بالحبر الاحمر ما كنت لأفهم لها معنى في بادىء الامر ، ثم أخذت تتضح يوما بعد يوم · لكن ليس هناك أي عامل مرسوم في الكراس يوضح الظروف فهو مبحر في ليلياته يكتب التاريخ على وتيرته بصبغه الوردي وأقلامه القصبية ، لا يعرف ماذا يقول عندما أسأله هكذا فجأة وهو لا ينتظر مثل هذا السؤال : « لماذا لم يأخذ الحزب بزمام الامور سنة ١٩٥٤ ؟ كنتم الطليعة وتركتم المبادرة لغيركم · لماذا ؟ فلا يرد علي · كما أنه لا يجيبني عندما أسأله عن

التفاصيل والجزئيات، انه لا يفهم كيفية الربط بين الخطوط العريضة للتاريخ وأسلاكه الحريرية الدقيقة التي تلعب هي أيضا دورها ٠ لا يا عم الطاهر ، التاريخ ليس مادة آلية ركبت على مبادىء عالية رسامية فقط ، بل هو يهتم أيضا بالأشياء التي تظهر تافهة ٠ ما لون عينيه ؟ ما لون عينيه ؟ أجبتني عن مفرق شعره وأحجمت عن الباقي ٠ أو تظنني مجنونة ، تمارس نوعا من الأبوية ازائي ؟ وتتأسف ٠ لكن دور الحزب ، دور الطليعة ؟ عملت بين الفلاحين الفقراء ونسيت أن تجندهم وتسلحهم ٠ جاء غيرك وقام بالعملية ٠ عيب عليك أنت يا من تزودت بنظرية عظيمة ٠٠٠ أعترف : ركبت القطار بعد انطلاقه من محطة العنف والتمرد على الاجنبي المستغل ٠ تتذرع بحتمية التاريخ وتياره الجارف ، تتحدث عن الظـروف الموضوعية لكـن كان من الواجب عليك أن تمدني بالتفاصيل ٠ فبتراكمها نصل الى الجوهر والى الموضوعية ٠ كذلك موت أخي ٠ لا يمكن حصره في ادمانه على شرب الخمر ٠ أبي غطى الحقيقة خوفا من العساكر ٠ مات مقاتلا ٠ لقد نفذ حكم الاعدام في ضابط ورجع الى الدار فـارا حاملا جروحه بين يديه ومات على سجادة أمي ٠ كان ملحـدا ٠ ثائرا ٠ متمردا ٠ ثوريا ٠ كان يتعاطى الخمر منذ الخامسة عشرة ٠ أصيب في شعوره الرقيق كان يكره الحياة ويعشقهـا في آن واحـد ٠ خافت العائلة من ابتزاز السلطة القائمة آنذاك ٠٠٠ وراحت الدعايات تشق طريقها ٠ كان أولاد الحي يضربونه بالحجارة عندما كان يعود الى المنزل وقد استبد بـه الخمر ٠٠٠ يسكر ويكافح٠ هل من تناقض في ذلك ؟ لقد كنت ندرس القرآن ثم انخرطت في جمعية العلماء وقـد كانوا يهزؤون بك عندما كنت تتحدث عن جوع الفلاحين وعن أسمالهم البالية ٠ يا لناعورة الأيام وطاحونة التاريخ ! ومن هناك ذهبت الى الحزب ٠ أي تناقض ؟ يوم الجنازة حشروني في قعر البستان ، تحـت التوتة ٠ فهمت كل شيء وأنا لا أعرف للموت معنى ٠ لم أتسلق شجرة التوت على غرار سعيدة ومهدي في ذلك اليوم ، لكنني فهمت أن لوعة نخرت نخاعي وتأصلت فيـه ٠ وبعد انتهاء الحداد والمأتم ، لقبني أبي بالطائشة ثم انصرف في هواجسه ٠ هل كان ذلك نتيجة

شعور بالذنب ؟ هل كان وهن الشيخوخة ؟ لست أدري ، لكن أبي كان جبانا · خاف من الشرطة ومن التحقيق حول مـوت أخـي ، وكانت أسطورة الادمان وانتشر الخبر في الحي : لقد توفي فلان متمـولا على سجادة أمه · ولم يشك أحد في ذلك · كان يعمل في السرية وزجاجة الخمر لا تفارقه · ليس هو بالبطل ولا بالصنديد · أتعبته الحياة ولم يبلغ العشرين ، لم يجد الشجاعة الكافية لينتحر ، فوجد الحانـة مفتوحة ودخل بابها كفدائي يترصد للضباط ، يسكر معهم ، يتعامل معهم ، ثم ينفذ فيهم حكم الاعدام ، عندما يقرر ذلك · هذا هـو التاريخ ··· بلا زخرفة ولا تأمثل ولا تجميل · يربي البق ويروضه ويخاف من عمة فاطمة ومن نابها الاسطوري ويثمل ويقاتل ، عـم الطاهر : ما لون عيني سيدي أحمد ، بربك قل لي ··· ما لونها ؟



الفصل الخامس

لم يكن يحمل معه بطاقة تعريف ولا شيئا آخر فيشعر بنوع من الخفة تصعد من جيوبه الخاوية وهو يتناسى تلك الصورة الشمسية ولا يحسب لها حسابا وفجأة تسقط أمامه حمامة سمينة تسترق حركة بطيئة فينسى الصورة التي لا يحمل سواها ويتساءل عن الصورة ؟ ماتوا كلهم حتى آخرهم ، من قال ان الالماني مات في فراشه ؟ انها اسطورة ! لقد مات مذبوحا ! مات ويا لها من ميتة ! والان وقد اخذت تشك في اقواله ومزاعمه ، اثـر الصمـت ! ويتركها تتلـو الاحداث السياسية كأنما الامر يتعلق بقراءة ادبيات حزبية او روايات تاريخية شوهت كل احداثها عن قصد ، لا شيء الا لاثارة غضبه ودفعه الـى ممارسة لعبة الترابطات الخيالية حيث يجد نفسه محصورا في امـور غريبة يرفضها ذوقه ويستبعدها وكأنه عاكف على قراءتها في مجلات قديمة تجاوزها الزمن واكل الدهر عليها ، ففقدت محتواها حتى انه لا يتمالك ، وهي تسردها سردا من ان يقهقه قهقهة وكأنما الامر لا يتعدى قراءة باب الوفيات فـي جريدة اجنبية ، او مطالعـة اخبار سياسية لبلاد نائية موضوعة هكذا على قارة اخرى بعيدة جدا ، او كالوردة المزروعة في الثقبة التي تتوسط المنضدة حيث كتب عليها جملته الغريبة وكأنها لغز من الالغاز قد تفهمه وقد لا تفهمه وذلـك رغم ما بذل من محاولات ومن حيل شتى . ليضمني ظلهم ، ظل من ؟ لا يمكنها أن تتصوره يعشق امرأة رغم وجود هذه الاسماء التي لقـب

بها بقراته الثلاث ، ولا تملك أن تفيض بين الفينة والفينة بافكار غريبة او بشطحات جنونية قد تروح عنها وتشغلها بضعة اسابيع فتساعدها على التخلص - ولو مؤقتا - من السأم الذي يلتصق ببشرتها منذ ان اخترع التاريخ مثل هذا الغبار الذي يتناثر على اهدابها فتحرق صدرها وتشوه نظرتها الى الموجودات والى الاشياء والظواهر • وكلما ازدادت سالمة تمسكا بتلك الفترة التي عاشها هو وصورها بشخوص لا يفتأ يتحدث عنها : ١٩٤٥ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٨ ، كلما انزلقت من عصر الى آخر وحاولت تحديد وجهة الزمن والفضاء ، خاصة وانها قد تعرضت فيما مضى الى هذه العلامات التي يستدل بها طوال ايامه ، فتضيع وتتيه وتدوخ وتشحذ نفسها في آن واحد لكنه سرعان ما يعود فيتحدث عن الصورة بعد ان رفض حتى ذكرها مدة طويلة من الزمن ، ويتحدث عن الاشخاص الماثلين فيها ، ثم ينتقل هكذا دون العبور على اي جسر ، ينتقل الى الكلام عن القرية التي جعلت تيبس مع الزمن وحتى ان يلفظ التاريخ نفسه الاخير وهو عاجز كل العجز عن التخلص من ذكرياته فلم يتوفر له منها ما يتيح له تبديده ، بهذه السهولة ، وينسى حظه الملتصق بجلده وقد قدر له أن ينجو من الموت هو لوحده ، فيتوغل في عزلة مقيتة تزيدها سالمة حدة ومرارة ، فتأتي عليه وتقتحم ايامه تلك التي كان نظمها تنظيما وسطرها تسطيرا ، ثم عمل على تشطيبها واحدة واحدة وكلما ماتت واحدة شطبها ويترقب بشغف ولوعة وبفارغ صبر ان تموت الاخرى فيشطبها حتى انه دخل في لعبة ادى به الامر الى تشطيب الاسابيع ثم الاعوام فيستبق مرورها ويشطبها ويعيش داخل ذلك المصران المقصدر وقد لفقته انواع من الاشرطة والحبال الخيوط والاسلاك ، فيشبه اكثر ما يشبه بطن امه المعتم يتمنى الاستراحة فيه حتى اذا ما اصبح ضغط الايام عليه لا يطاق راح يتقوقع ويضم الصورة بين ذراعيه ويبقى على هذه الحالة اياما كاملة شاخصا بعينيه الى سقف الكوخ حيث تظهر عليه - يوم تقوى الهواجس وتشتعل الاستيهامات - تظهر تشققات عريضة ينبجس

منها دم احمر يأخذ يقطر قطرة قطرة وهو تحت الكابوس ابناء مثلوما للتاريخ أو اقتصارا عليه وعلى ما فيه من مجازر وحروب وابادات على انواعها ، فيتذكر السنة الملعونة ، سنة ١٩٤٥ ، يوم دخل الجنود الى كوخه في غيابه وقتلوا كل افراد عائلته بما فيهم زوجته وابنتيه الصغيرتين (جميلة ، حليمة ويامينة ؟ / ياسمينة) ، فيرى الدم ينزف وينزف وتصبح القطرة بحرا وطوفانا تشقق جمجمته فيتذكر أخا سالمة وهو يهوي من أعلى شجرة التوت على الارض تجرح ركبته وينزف الدم ثم تأتي سالمة بغليانها وضوضائها وورشنتها ودائرتها الانثوية وعلب سجايرها واقراصها ضد الحمل بدبابيسها تأتي بهولها وشغفها وبعلب المسحوقات التزيينية تنفض عليه غطاءه وتصيح (وسنة ١٩٥٤ ؟) فينظر اليها نظرة رحمة وشفقة ، فلا تتركه ولا تخفف من وطأتها عليه (كان عليكم ان تأخذوا بزمام المبادرة ، هنا تتمحور نقطة الضعف ... اما عن المعطيات الموضوعية فلا تحدث !) يخرج من فراشه ، يترك ذكرياته ومخطوطاته القديمة يترك كتبه الصفراء تلك التي كانت رطبتها الزنخة تساعده نوعا ما ، على تبيان الحقيقة وفرز الحقائق من التخيلات ، وتقف له بالمرصاد وتراجع تاريخ العالم وتاريخ بلادها ، فيدرك هكذا شمولية التاريخ ويعترف بعجزه لعدم قدرته على حصره وعلى ضبطه وتقييمه ويترك الفرص تفلت الواحدة تلو الاخرى : ١٩٤٥ ثم ١٩٥٤ ثم . وهنا يقف أو توقفه هي لكن وبالرغم مما يبذل من جهود جبارة رغم عصره الرأس والاصابع لا يمكن - وهي كذلك - من السيطرة على التاريخ عن كثب وذلك لشدة ما بدت له الامور بعيدة عن الواقع وشديدة الغرابة ، فمنذ المجزرة التي راح ضحيتها عشرات الالاف من المواطنين (ومن بينهم افراد عائلته وخاصة زوجته وابنتاه الصغيرتان) سنة ١٩٤٥ ، منذ ذلك الحين وقعت حوادث عديدة . فعلى الرغم مما يحيطه من جمود وعلى الرغم من الفقر والجهالة ظهر له ان هناك شيئا ما ، في مكان ما ، اخذ يسير بسرعة وان فترة التلعثم بدأت تنتهي ، فترك جمعية العلماء وانخرط في الحزب ، لكن الامور لم

تكن لتستقر في مكانها ، بل زادت في سرعتها وحتى ان يكن ذلك حصيلة مخيلته تلك التي تلتهب لادنى شرارة ، لقد احدسته قرون الاستشعار تلك التي لا ينفك يحملها ولا يتركونها تدل ولو دقيقة واحدة ، احدسته بأن الحوادث ، رغم ما يشكو من ظاهرة الركود والسبات تتأجج من تحت البشرة ، وكله يقين بأن الزمن مفتوح على مصراعيه كرمانة شققتها يد خفية فشطرتها الى شطرين ولكم تحدث مع رفاقه عن ذلك ولكم دحض وعلل ، وخاف ان تكون لعجلته عواقب وخيمة ، وسكت وترقب ، والآن وسالمة تعاتبه وتلومه وتنفض غبار الاستيهامات عنه ، الآن وسالمة تتهجم على الذكريات التي انتقاها له عقله ، الآن يفهم انها كانت هي الاخرى تضطرب وتنتفخ حتى تصبح زوائد تقلقه وتململه وتؤلمه مثل حصيات تدور في رأسه دون ان تقوى على التوقف ، فيقول لها ان السنوات كانت تدفع السنوات وان العمل الحزبي بين الفلاحين ووسطهم صعب وشاق ، فتنتفض وتعيد الكرة وتلقي اللائمة : زمام المبادرة ! لماذا لم تبادروا الى العمل سنة ١٩٥٤ أو حتى قبل ١٩٥٤ ، فيتحدث عن القمع ، عن الافكار المسبقة ، عن عزلة الرفاق ، فتنتصب وتمسح كل التبريرات بظهر يدها وباشارة منها وتدخن سيجارة بعدها سيجارة ثم اخرى ويسعل وتحترق وردتاه غيظا ، انه يكرهها ، لكنه يعلم انها على حق ، الم يكن الحزب يزعم ويطالب بالطليعة يزايد ؟ ولا تكف هي عن التدخين ولا ترحم رئتيه ، لا ... لا ... فينزلق الزمن في ضباب الماضي مثل فأرة داخل مصيدة ويطارده شغف لاذع ويعود الى تاريخ الايام القديمة وهي تنتفض ، مائة وثلاثون عاما والمستعمر يريش لحمنا ماذا صنعتم ؟ وماذا صنع الاسلاف ، اتركني افهقه ثم حدثني عن الوطنية ، كيف دخل الاجنبي وتوغل ، هذا هو السؤال ، اما خروجه فالامر طبيعي غريب انت يا عم الطاهر ، « تحاول الانفلات انت والحزب معا ؟ لما لم يأخذ الحزب بزمام الامور ويدمج الثورة التحريرية مع الثورة الاجتماعية ... فاتك القطار عم الطاهر ، اعلم انك ركبته فيما بعد ... والمشكل

يقبع في هذه النقطة بالذات ، أعلم أن من ماتوا كثيرون وعددهم لا يحصى ، لا يعلم بذلك احد ولا شارع يحمل اسم احد منهم ولا كلمة سطرت في كتب التاريخ تبجيلا وتعظيما لكن المهم هنا : زمام المبادرة أفلت من ايديكم وهو خطأ تاريخي سوف نعاني منه طويلا »٠
فيسعل هو وتزيد هي في استنشاق دخان سيجارتها « كيف حال وردتيك اليوم » ويترك الحكيم جانبا مقرا في قرارة نفسه انه من الصعب على الفتاة ان تصدق او تقبل حالة التنسل والتمزق والتحول الى طرائق قددا ، لقد جرفت البلاد اخيرا تلك الغزوة التي كانت قد تمت ذات صباح ١٨٣٠ فتجعل من البلاد منفى رهيبا سوف يحفل بالجرائم والمجازر والتخريبات والحرائق والتجويع والتقتيل والتمسيخ على انواعها فيسجل فيه اصحاب تلك الغزوة بكل دقة ومهارة جميع الاسباب التاريخية والقوانين العلمية التي كان لا بد منها لتغيير وجه البلاد ومحو ذاكرتها وخصي شخصيتها ٠ يعترف هو ويسعل وتدخن هي وتثرثر ٠ وتنصب في تلخيص تاريخ القرون والاعوام بجملة يرى في ايجازها مبالغة وتجاهلا للواقع ٠ انه مشكل حضاري وحياتي ٠ كانت الثورة الصناعية عندهم قائمة وعندنا نحن ٠٠٠ شهر يأتي بشهر ، اسبوع يدحرج اسبوعا ، يوم يمحو يوما واذا بالهوس يثقب نفقا عبر مادته الخاصة على شخصيته وخلياته العصبية وعبر نخاعه ومائه الداخلي ويرتوي بمطر التاريخ وفيضاناته وشلالاته وطوفانه الى حد الارهاق والسأم ، يقع في فخها من جديد ٠ تتكسر افكاره جذاذا ويبقى هكذا واجما في مهب الاعاصير ٠ روح المبادرة ، أين كانت روح المبادرة ؟ صحيح كانت المبادرة تنقصنا والجرأة تنقصنا ، كان علينا ان نصرع ثور التاريخ وأن نجعله يخضع لقوانيننا ، ثم يمتلىء حوضه بخليط من الامور الرديئة والمزوجات المشكوك فيها والتشابكات السرمدية والتدخلات الافقية والعمودية والتراكمات التاريخية ويعي اذا الى غرابة المحيط وجنون تصرفاته (لماذا الهروب والتسلل ورفض المسؤولية ؟) وفي ذلك التدخل المبهم المجرد بين الاشياء اليومية التي تمل هشاشة الموت وزنجاره والمصائر

المتخشبة الراسخة على الدوام ومرور الاعوام والمترابطة بينها والتي لم يتمكن الى حد الآن من فك رموزها اذ تنطوي الامور على اسرارها وروائحها الفاترة وتعطناتها الجسدية المتقلصة ، وفي آخر المطاف ، تدخل سالمة في يوم من الايام الى عرينه وتعري واقعة وتراشقه بالتهم وهي تتساءل بين طيات نزاهتها (وأنا ! ألسنت مسؤولة ؟) هل التاريخ عبارة عن خرقة تستخدم لتشرب هدر حيض الانسانية وهذيانها ؟ أليس التاريخ شيئا آخر لا يمكن تحديده بدقة وانضباط وصرامة ... هذا هو المشكل الاساسي الذي كانت تطرحه سالمة بعنف وحرج ، فك الرموز انما هي محور لا مناص منه ولنترك الميناء وخرائط السكك الحديدية والمسارات البحرية وعينات الهاتف وأدلة الطرق البرية ومناجد الكلمات الضائعة وقواميس الارقام الرمزية وموسوعات الاحداث التاريخية المتحجرة ودفاتر الصمغ الوردي ... لنترك كل هذه الامور جانبا ونطرح المسائل الحقيقية ، أهلا بشخوصك يا عم الطاهر ! ١٩٤٥ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٨ . وإذا نسيت فلا أنسى كل الانتفاضات والتمردات الاخرى ... فيخرج الطاهر الغمري من هذه المنافسات بآثار داخلية تتركها فيه رواسب ما قبل التاريخ وما بعد التاريخ، حيث يشعر بنفسه منهكة ويقر العزم على العودة الى مطالعاته القديمة حتى يفهم معنى الصدام القائم بين الحضارات والشعوب انه يحقد على سالمة ولكنه في الحقيقة يعلم انها الشخص الوحيد الذي عرف كيف يحبه ويخرجه من ناعورة الايام المعزولة، الموهومة، تلك التي يحس بها وكأنها وضعت عليه بصماتها الى الابد كوشم نقشه ازميل الايام على رئتيه الحريريتين، فتذهب سالمة وتغادر الغرفة (لماذا لا تتزوج ؟ انها آية في الجمال رائعة الذكاء ! هل ستفعل هي ايضا كما فعلت عمتها فاطمة ؟) ويستلقي على فراشه وصفحة الماء في كأسه تروح تتموج ، لعله حرك المنضدة عن غير عمد ، تضطرب تموجات كأسه على صفيحة الماء التي تعكس هيكلة الميناء ، وعندها يتذكر أنه لم يزر البقرات منذ أيام ويتذكر الدجاجة وقد جثمت على قضيب ناتيء في أعلى

الحائط ، ثم الميناء فالخطوط تلك التي تشكل شبكة معقدة مـن السكك المتتابعة المتتالية ـ التاريخ ـ فلا تلبث ان تتكسر في الافق وتتشعب فيه الى ما لا نهاية ! وبمشاريع تجريدية ومستقبلية تعج عجا يريد ايقاف رجفة الماء في الكأس وايقاف تحركه لكنه لا يقـوم بأدنى حركة ، وتحت لذعة البرد القارس المتسرب من كل شق وفج الى الحجرة القصديرية تنتفخ الرجفة فيها تنفخ العاصفة في الخارج، فتفجر دوائر الزمن الى الاف الشظايا في ألوف من المجالات المعوجة (هل يستقيم الظـل والعـود اعـوج ؟) وفي الهنـدسات المتوالية والفضائية والخطية ، أما هوفلميفهم منها شيئا ، لكنه توقعها او حدسها بصورة لعلها كانت مبهمة وغير واضحة من خلال تلك الرؤيا التي أتعبتـه فأرقتـه وأرهقتـه طـوال حياته وتركـت فيه ارتسامات لم تغادره ابدا ، فيشعر وكأن الفراغ ساده في الداخل وكأن اسلاكا اصطناعية مقطرنة خاطته من الخارج، وذلك منذ تلك الفترة التي كان يعلمفيها القرآن ثم الفترةالتالية التي ترك فيها الارضالبور والقرية واستقر في مدينة صغيرة حيث انخرط في جمعية العلماء ، ثم الفترة الاخرى التي انخرط اثناءها في الحزب وراح منذ ذلك الحين يعمل بين الفلاحين الفقراء والخماسين والعمال والفلاحين أولئك الذين يعملون في ضيعات المعمرين ، فقال بصوت خافت قبل ان ينام : حسبنا التاريخ قاطرة تقف في محطات حددت لها مسبقا ،وعنـد الطلـب ... كان هذا خطأنا بالضبط ونعتـرف بذلك ... لكنهم ذبحوهم ونزاهتهم هي مادة خام ، لا تعرف المساومة ولا المماطلة ! ذبحوهم ! ويخرج من متاهات الدم ويدخل في دوامات المطر المتقاطر على غلايته المنتفخة وقد نفختها ضربات الدهر وصدمات الفقر .

وأنت يا سالمة ؟ واذا بخطوط القلم وعصافير الصباح تتسابق . يراها في عملها اليومي ورسائل الغرام تنهمر عليها ، يبعث بها زملاء يعملون في المكاتب المجاورة لها ، تفتحها وتقرأها (حبيبتي ...) وترمي بها في صندوق المهملات مساكين والمواخير مغلوقة بقرار

ولائي ... والطاهر كذلك يكتب رسائل غرامية ويسلمها لعذارى سيدي عبد الرحمان يوم الجمعة في العشية ، لكنهن لا يفهمنها ويخلنها حروزا سحرية فيسرعن الى تخبيتها بين أثدائهن بقلوب خافقة فيما القشعريرة تدب تحت الزغب وتحت البشرة لذة واختلاسا وخرقا للقوانين البالية الرثة ، وهو يصنع صنعهن ويدخل اللعبة معهن فلا ينتظر ردا ولا جوابا ، انما كان يفعل هكذا نكاية ، في الاقطاع والشعوذة والاولياء الكاذبين ، وانت يا سالمة ؟ رسائل الغرام لا تنقطع ، لكنها لا تحمل اسما ولا علامة . الرجال جبناء وأيام الجمعة تثرثر تعصبا وتزمتا من اعلى صومعات التخلف واصوات الزملاء خنوعة وشبقية والصباح المتوبر يخفت من حدة الزوايا والاشكال الناتئة ، فتخامرها الشكوك ويسيطر عليها البؤس بعد معاتبة الطاهر الغمري ، وقد حاق بها غضب شديد زاد في بنفسجية تهجيجات عينيها الخضراوين حيث كاد قلبها يخرج من فمها شفقة عليه وهو ما زال يعيش تحت كابوس الخوف والهروب وهو يحسب ان الامور لا زالت على حالها،فلا يطمئن لاحد ولا يثق بأحد ولا حتى في نفسه ، أما نفسها فتغريها فتلقنه دروسا عليا في السياسة والتاريخ ودور الحزب وأخطائه ، تشطط عن المعقول . خطوط قلم الرصاص تجري على الورق فترسم صورتها على الصفحة البيضاء وتتذكر كيف انها كانت ، لا تفتح له الباب الا بعد عدة رنات يرسلها الجرس كالصدى المعكوس فيما هي قادرة على المكوث نصف ساعة معلقة على درباز الباب الحديدي وقد أكله السن وافقده لونه وبقعه بطوابع الهرم وها هو رأسها يتدلى والبستان من حولها يدور كالخذرف ،كخذرف يرميه فؤاد أو مهدي أو لطيف على الارض ويلتقطه (احدهم) بيديه ويتركه يدور على راحة يده ثم على قفا ذراعه وكل شيء يدور وأخوها الاكبر من وراء الباب يضرب الناقوس وهي على وضعها لا تتحرك ، تكاد تفقد حسها بالواقع لكنها تثابر فتتمدد بشرتها البيضاء ويملأ وجهها احمرار دم قد انحدر من جسمها من كل نواحيه ، وتغني بانفها حتى اذا ما بادر أحد الى فتح

الباب اجهشت في البكاء أو - في بعض الاحيان - صرفت عينيها وجحظتهما فلا تلبث أن تتحجرا وتتحول نظرتها الوديعة الى نظرة قاسية، صلبة وشريرةوكأنها اغلقت نوافذها وأسدلت ستارها الداخلي وهي تستغل كثافة شعرها الطويل الاسود ، وتمكث هكذا ويأتي احدهم يفتح هو الباب ويدخل ويتغافلها • يدخل الى الدار • فيأتي القط الاسود ويأخذ يلعب بشعرها المتدلي على ظهرها ويتشمم رائحة فرجها الصغير وقد ظهر انتفاخه المتواضع تحت قطنة سروالها الداخلي فيما أخذت نثورتها تتساقط على كتفيها فتغطي جزءا من وجهها ، وتبقى هكذا نصف ساعة أو ربع الساعة ولا يبالي بها احد أما اخوها البكر فيعكف على غسل فمه بالمعجون محاولا ازالة رائحة الكحول الفواحة ، من فمه ، وكان قد تناول بعض الكؤوس منها في بيت أحد الاصدقاء مرة ومثنى وثلاثاً ، من غير أن يثمل ، أما سالمة فلن تنسى عمرها تلك الايام التي كان يرجع فيها خجولا • متسللا ، ناكس الرأس ، لا يقول شيئا ، تاركا اياها هكذا تتعلق على مرتاج الباب •فسرعان ما تعود على تجرع كؤوس الكحول والخمور فيقفل راجعا الى البيت وهو بين صاح وغائب حتى اذا ما دخل ، هرع الى الحمام ، لا يبالي بها ، يغسل فمه ويغسل ••• وينتهي من الغسل ولا يثق بفعالية المعجون فيأخذ في مضغ عيدان السوس وفي أول الامر لم يلحظ احد ما طرأ على سحنته من تغيير ، الا سالمة فقد فهمت للوهلة الاولى انه يقترف في الخارج افعالا شنعاء ، وشعرت بكل دقة وقد تجلف جلده الناعم بخطورة فعله • فهمت وهي لم تناهز السبع سنوات ثم يأتي ويجلس الى مائدة العشاء ، وتجلس هي بجانبه وتضم رائحة لا تشمها مناخير الآخرين : رائحة هي خليط من روائح المخمرات والمعاجين وعيدان السوس ، والعائلة كلها متجمعة لتناول وجبة العشاء ، دون ان يتكلم احد فلا يسمع الا صوت الالسن تحتسي الشوربة فيما يتساءل هو كيف يجد الشجاعة ليقول لابيه الحقيقة بطريقة ما أيا ما كانت ، فجة كانت أم لطيفة ، وسالمة

بجانبه تشرب الحساء وتتمرغ في رائحة أخيها (خليـط مـن ٠
لا يكتشف أحد الفضيحة وما انتاب أحدهم من هول المصيبة الكبرى
التي اطاحت به هو الاكبر ،وهوأرق الجماعة شعورا ، وأخفهم روحا
وأكثرهم طيبة ، كـان يعلم وهـو في بداية تجربته ان عقل ابيه
كان يترك من حين الى آخر جسمه تائها في عالم غريب أشبه بعالمه
هو ، عالمه هذا الجديد حيث تغمره نشوة الخمر فتجعله يفكر فـي
التعبير عما يجول في خاطره لكنـه يسكـت ولا يقـول شيئا ويبرر
سكوته أمام نفسه مصرحا بأنه يحبهم كثيرا ولا يريد ايـلامهم ٠
وها هي سالمة ترمي برسائل الغرام في السلـة وتضحك في قـرارة
نفسها « لو كانوا يعلمون اني اعشق رجلا مات منذ خمسة وعشرين
عاما ، لهربوا ولخافوا من ان تلحق بهم عدوى جنوني ٠٠٠ جبناء
الارض افتحوا لي الطريق وابتعدوا عن طريقي ٠ كان لسيدي احمد
عينان رماديتان وشعر اسود تشقهفرقة على الجانب الايسر ٠ انه
عداء ويتكلم عدة لغات وهو مدرب وأستاذ وحزبي ٠٠٠ وأنتم تكتبون
الرسائل للفتيات مثلما تفعلـون معـي وتغلقون الابـواب والنوافـذ
والاعين على زوجاتكم وتملأونها منيا كل ليلة ، فتضعن كـل تسعة
أشهر ويكثر عدد سكان البلاد ٠٠ اخوزقكم يا رجـال بـلادي ٠٠٠
اخوزقكم وأمزق رسائلكم الطافحة دناءة واغلاطا نحوية واخطـاء
املائية و ٠٠٠٠ عجزا ٠٠٠٠ انتم عجز وعجز انتم ٠ كتع ٠٠٠ عـم
الطاهر ، ما العمل مع هؤلاء القوم ؟ أعتذر ، أكتب لك هذه الرسالة
لأنك لم تكلمني في الهاتف وأنا خجولة ، ولا أجـد الجـرأة الكافية
لزيارتك في عرينك بعدما قلت ما قلت حول فشلك وفشل حزبك ٠٠٠
كان عليكم ان تقوموا بالمبادرة وان تأخذوا بزمام الامور ابان حرب
التحرير ٠٠٠ أعتذر عن ردود الفعل هذه وعن استشارتـي ٠٠٠ الامر
أصعب مما يظهر عليه ٠ رسائلهم مليئة بالمني وبرائحة البغي ولا
أستثني احدا منهم عم الطاهر ٠٠٠ لا أستثنـي احدا الا أنت و ٠٠٠
هو ٠ انه عدائي ، بطلي ، حبيبي ٠ مات وأكل السوس عظامه ٠
لقد أحرقوه في الضيعة ٠ كيف حال رئتيك اليوم ؟ لا بد انك مسرور

بغيابي ٠٠٠ لا شك انك ارتحت من رائحة الدخان ٠٠٠ كيف حال الدجاجة ؟ لا بد لها من ديك ، اعدك بانني سوف اهديك ديكا في يوم من الايام ، اغار من البقرات ومن تلميذات سيدي احمد على الرغم من كونهن اصبحن متزوجات وأمهات لبنين وبنات ٠٠٠ خصبا في فروج النساء عم الطاهر ، فكيف تريد ان تنجب الارض عم الطاهر ، وهم يكتبون رسائل ويمضونها بمنيهم ؟ أتذكر مدة انتظار الحيض ولم اكن أتجاوز الثانية عشرة ، بعد موته بعام ٠ الزميلات كن يسخرن مني ويضعن قطنة الدم الشهري تحت انفي ٠٠٠ ما العمل عم الطاهر وانا أحمل أقراصا وكل الرجال يقززونني، اذني أشمئز من كلامهم، من رائحتهم ، من نظراتهم المنافقة٠٠٠ الا أنت عم الطاهر، الا هو أيضا (أخي) وهو أيضا (سيد أحمد) الصديقات والمعلمة لم يكن يفهمن حكاية علب البق هذه وعندنا توتة في البستان ، وكان يرفض تربية دود القز الذي يأكل ورق التوت ثم ينسج بخيوطه الحريرية شرانقة فيغلقها على نفسه ويموت فيها ومن موته يبعث دود صغير وهكذا دوامة النسل لا تنقطع ورفض تربية القز ٠٠٠ أما البق ؟ فلماذا كان يربيه ؟ كان يروضه ويحلم ان يصبح مديرا لسيرك خاص بالبق باستثناء كل الحيوانات الاخرى وكل الحشرات وكل الدواجن ٠٠٠ يستشهد بذكائه ، يقضي الساعات الطوال وهو يصنع للبق علبا من الخشب العتيق ٠٠٠ يا له من مراق ٠٠٠ لا بل كان صوفيا ! كان يدخل حدود الضوء ثم يخترقها ببساطة ٠ هذه هي الحقيقة : سأقول الحقيقة عم الطاهر ، اعتذر ، أكتب لك وسلة الاوساخ مملوءة بلعابهم ، لا يجرأون كما لم تجرأ المعلمة ان تجيبني لو سألتها وأنا أموت خوفا كيف تتم وقاية البق من الامراض المنقولة ٠ اوحشني عم الطاهر وسعالك ايضا أوحشني ٠ انت عبارة عن مدخنة او ميزاب وصدرك يتقيح لكل هموم المدينة وتناقضات الوطن يتفسخ بين يدينا كلما اردنا ان نرتقه نعي ولا نفلح وأنت أيضا ٠٠٠ تعبت ٠٠ حاولت منذ سنة ١٩٤٥ أن ترتق جواربه ٠٠٠ وفشلت ٠٠٠ والآن تسترخي يديك وتنظر الى العباد

من اعلى ربوتك ومـن خلال عرينك لم تنظر اليهم وهم يتململون ، يضطربون ويلحون بحركاتهم الفوضوية التي لا انقطاع لها ، تنظر اليهم وهم دائما يبحثون عن شيء ٠٠ اسمعهم يسألون هل من ثلاجة أو آلة طبخ أو سيارة أو بطاطا أو بيض ٠٠٠ والمدينة تـرى كل يوم ثيابها تضيق على جسدها والميناء يتكسر اجزاء ، حتـى سيارات الشرطة قد فقدت بصرها فلم تر وانـت تسرق الشمـع المتراكم على ضريح سيدي عبد الرحمان وأنت تحاول صيد الحمام المتكرش المتساقط عليك ، المنهال عليك من السماء فتخاله من خزف أو شنب وكل الاعمال بالنيات ، اكتب لك هذه الرسالة والضجر يملأ فرجي ملحا وزبدا بحريا ووحشة ٠

أراك تتجول في الطرقات لا تحمل بطاقة هوية ولا أية ورقـة مطبوعة بخاتم الحاكم ولا تحمل الا صورة رثة قرضها العث ولا تحمل الا خفقان قلبك ٠ سوف اهدي لك علبة من أقراص النفتالين ، تضعها في جيبك فتحمي قلبك وتقي صورتك من التلاشي ٠ لماذا تحملهم هؤلاء في الصورة وقد ماتوا كلهم ، فكأنك بحملك اياهم تقتلهم ثانية وثالثة ، فسيد أحمد أحرق حيا بدون ان ينبس بحرف واحد يفرج به كربه لقد مقتهم واحتقرهم ولا بـد انـه تذكر ذلـك اليوم الذي انهزم فيه امام العداء البلجيكي في سباق الالف وخمس مائة متر حواجز ، أما الآن ، فيصمد أمام التعذيب وقطع الايدي وقلم الاظافر وفقأ العين الاولى ثم العين الثانية ، انه يصمد وقد أصبحت ، كل لوعة حاجزا ، انه يطير الآن فوق الحواجز ، لقد علمه العداء الاجنبي معنى القهر فيما كان الجمهور يزمجر : لا تحرمنا من النصر ، سيد احمد ، فنحن حلفاؤك ، لقد مات اللحام ايضا ، بو علي طالب مات باهتا والضوء الازرق يتلوع في صنع قنبلة زمنية في ورشته ولكن وجوده على الصورة فما معناه ؟ كان يأتي الى الجبل من حين لآخر لتصليح آلات الارسال والاستقبال ، أما الحكيم فقد مات ، هو أيضا ، مات مذبوحا بسكين حافية ، والالماني ؟ ماذا عنه ؟ ما هي قصته ؟ هل مات في فراشه ام مات مقاتلا وماذا عن وجوده في الصورة ؟ لم

·يكن المانيا بل لقب هكذا لكونـه أشقر الشعر ، ابيض البشرة ، أزرق العينين ، طويل القامة وقد أسر في ألمانيا اثناء الحرب العالمية الثانية وقد كان يحارب في صفوف الجيش الفرنسي ، أرغمـوه على التجنيد في الجيش الفرنسي فتعلم الالمانية وقرأ كتبا كثيرة · لا لمْ يمت في فراشه ! لقد مات مذبوحا بموسى حادة قاطعة · اراك تتجول والميناء يصعد اليك ولا تعرف كيف ترد على اتهاماتي ولا ماذا تفعل بالدجاجة وهي تقاطعك وتحرد عليك من أعلى القضيب الذي اختارته لها موطنا مرموقا تشرف منه على كل ما يدور في بيتك وقد يئست من طردها بعد عدة محاولات، اعرف فكل هذهالاستطرادات تضجرك وهذه التعرجات والانتقال من الدجاجة الى الحرب التحريرية ومـن مشكل النقص في المواد الغذائية الى السباق ١٥٠٠ متر حواجز ، ومنه الى حياة سيد احمد ··· ثم الى لون عينيه كل ذلك يضجرك ولـم لا ؟

اسمع ، يمكن البدء بالحكاية انطلاقا من الوسط او من النهاية ، ثم الانتهاء منها انطلاقا من اولها وهكذا كل الطرق تؤدي الى عمق الواقع والكتابة (كتابتك انت بقلم القصب والصمغ الوردي الذي تحرص على الحصول عليه من المستنقعات البعيدة) الكتابة عبارة عن آنية مستطرقة ··· كل جزء يصب في الآخر حتـى يملأ العالم بضجة لا مثيل لها ، الكتابة تفتح كل الابواب ولذا تكتب ، تريد ان تترك شيئا عن تاريخ بلادك ، تحاول اقصى جهدك لتحقيق ذلك واخي عندما يسكر ويغلق الخمر كل منافذ وعيه ، كان يقف امـام باب الحديقة الحديدي ويأخذ يصرخ ، في البداية غضب ابي ورفض ان يفتح له الباب رغم توسلات امي ، لقد تعود اخي على خلق الضجة ونشر الفضيحة في الحي · لماذا كان ابي يغلق الابواب امامه وقد كان سكرانا لا هم له سوى الذهاب الى فراشه والنوم بعد أن تكون امي قد قصت عليه الخرافة تلو الاخرى ثم تحاجيه وقد كان غائبا لا يفهم (حاجيتك عليهم ، بلابهـم ماجيتـك ···) لا يفقه حتى ابسطها ، (حاجيتك وماجيتك ! طبيق جلجلان موزع على البلدان)

لقد تكثف زجاج الفهم عنده وتخبلت الامور، ولكن لا يدعها تنصرف ، يخـــاف الظلام وكنت أدخل الى غرفته في قميص النوم والنعاس يبرم عيني ويقعورها فيأخذني من يدي ويريد ان أقص عليه . ماذا أقص ؟ يلح علي ، فأتلو الذبابة والقاضي ... وكان يقهقه ورائحة الخمر تنتشر في ارجاء الحجرة ، لم أكن أعرف آنذاك ما هي الحروف الرخوة وما هي الصلبة وما هما الكلمتان الاساسيتان في اللغة العربية ، لهما تسعة وتسعون اسما والفارق بينهما نقطـة فقط حاجيتك ! ما هي هذه الكلمة ؟ أما عن الذبابة والقاضي ، فكنت أعرف الكثير مثلها آنذاك وقد كان هو ينتحب ويخاف ! الظلام عقوبة من الله ، يخاف فيطلب الغفران وتصلي أمي فيسقط على السجادة فيما كانت عمتي فاطمة غارقة في نومها وفؤاد ملتصق بجلدها القديم وهو نائم بسرواله حيث لم يكن ليدخل الفراش الا بعد أن يضع قطعة من الخبز في جيبه ، فيفتتها داخله ، ويأكلها طوال الليل ، كلمـا استيقظ اما الآخر فلا ينام ، كان سكرانا والخمر والسهر قد أرهقاه وزجاج عقله يتضبب يهذي وكنا وأنا وأمي نبقى حوله ، نحاول أن نطمئنه ، نبكي معه ، يطلب علبة البق فيضعها نصب عينيه على مائدة صغيرة بالقرب من فراشه وكان ينام كل الشتاء ، يطلع الصباح علينا ونحن قوسان مفتوحان بين شخير الابن الضال وقعقعة حديد الحافلة الكهربائية الاولى التي كانت تموج ستار الكتان المسدل على النافذة فتنهضنا من سباتنا وكان المطر يهطل في الخارج ، وتبـدأ واجهات العمارات والسطوح المطلية بمعدن الخارصين والمبللة بماء الفيض، في عملية بطيئة للبروز وسط المحيط الدليبي والضوء الرمادي الذي لا يمكن تعيينه بدقة، فأحدس والنوم يجرفني داخل دوامة مريبة، أن النهار سوف يبقى على هذه الحال ، شحيح اللمعان شاحبا غير قادر على التطور اكثر مما فعل حتى يسقط الثلج ويغسل السماء من نجارها والارض والاشجار والبحر والايام والعمارات من بخارها ، ويقطن الضوء نهائيا في حالة ما بين النهار والظلمات ، على حدود الغموض والكثافة ، فلا يتغير ابدا ، والمدينة هي ايضا تعجز عـن

تحطيم هذا الحزام المدلهم ، فتتقاطر وكأنها قطعة من الاسفنج تطلق ماءها المتكاثر المتدفق ، فلا يعرف اين يذهب وقد اصبحت الارض المتشبعة لا تقدر على امتصاصه فنترك اذاك الحجرة وقد تراكم هواؤها وطبقات طبقات تحت تأثير خميرة النبيذ والكحول وتعفن جوها منذ ساعات وتعطن ، وكنت انت عندما كانت روحك تفيض وتقطر بزخامة ودسامة في قصرية الايام الملتوية ، كنت انت لا تفهم ما أقوله او تتصنع البلاهة وتؤكد أنك لا تفهم كلامي ، تريدني بجانبك وكانت عنجهيتك القديمة تتصاعد الى شفتيك وتقفل عليها بقفل الصرامة والصمود يا معلم القرآن ! فانصرف انا وكنت تبكي واسمعك تنتحب وأنا وراء الباب واقفة ، الباب عبارة عن غشاية كتيمة مرصعة بنسيج مصلب ، قطيفي المخمل أو صوفي ـ من يدري ـ متعرج القطبات ، مقوى بألواح من الخشب المعاكس المتألف من شرائح متضاربة الاتجاه ، تربط الباب بأشرطة مضفورة متقابلة الخيوط وقد كان مزركشا بصفائح حديدية الخ . ولم تكن هذه الاحتياطات كلها لتنفع فتيلا ولا تصلح الا لاغراء الاطفال الذين كان يتبادر الى أذهانهم فكرة اقتحام العرين لا ليسرقوا متاعا او مالا او حليا وانما لمجرد الاطلاع ، كما أغرتني نافذتك وقد ظننتها نافذة حقيقية ملموسة وما كانت في الواقع الا مجرد رسم ماهر ـ اين تعلمت الرسم ؟ ـ نظرا لفنه وفنياته وعمقه واستعمال الفضاء على طريقة اكبر الفنانين ... كنت اقف وراء الباب أسترق السمع ، أريد الرجوع ولا أرجع ، أريد الارتماء بين أحضانك ولا أفعل ، أهرب أهرب ، وأقول : أرجال هؤلاء ؟ أرجال أنتم ؟ اسمع ، لنترك الطرق المعبدة ولنخترق المنطق ولنتتبع المنعطفات والمنعرجات ، نلف وندور حول الامور الجدية والتفاهات الصغيرة ثم نعود الى صلب الموضوع ويرجعنا المطاف الى حيث بدأنا ، فكتاباتك انت أيضا تلتوي وتدور حول الوتد وتشرنق حول التاريخ وأنت تسجله بنزاهاتك وحسن نيتك وصدقك وطيبة قلبك ، لكن أنت لست بالرجل الهين ولا تعرف ان لحظة الضعف اذا ما طغت

تؤدي بصاحبها الى الانقياد وراء عواطفه ٠ أعرف انك بلوري العاطفة ، لكن هناك فارق بين الزجاج والبلور ، اعرف ان بين رئتيك حطاما وبين قلبك جذاذا وأنك تنتحب كالطفل الصغير وأنك تعودت العادة السرية وسرقة الشمع من زاوية سيدي عبد الرحمان ، لكنك تخفي كل هذا ، ما زلت تخجل عندما أشعل سيجارة، ما زلت ترتبك عندما أكفر وأجلجل وأتسفه ، فتستغرب وتلومني : فتاة مثقفة ، واعية ٠٠٠ يا للأسف ! لا ولا وكلا ، يا عم الطاهر ٠ لماذا احتكر الرجال الكلمات الصاخبة والكلمات الفاحشة والكلمات الماجنة والكلمات الوقحة والكلمات الخشنة وتركوا لنا الحروف ٠٠٠ الرخوة ، ثلاثة عشر ، لا أكثر ولا أقل فمنها النون هلال منقوط ، والتاء ، فتحة مثقوبة مرتين ، والثاء ، فجوة (ثلمة ؟) مثقوبة ثلاث مرات ٠٠٠ لماذا احتكرتم الكلمات الكافرة والكلمات المتزندقة والكلمات الملحدة وتركتم لنا حروف العلة والمشقة حروف الصراخ والعويل والنديب ، لماذا ؟ وهنا أجيبك بلا لف أو دوران ، من كتب النحو سوى الرجال ؟ والعلاقة بين الجنس والنحو واضحة جلية : في كل لغات العالم يخضع المؤنث للمذكر وجمع المؤنث يخضع امام المفرد المذكر ، وهكذا ٠٠٠ والنحو ايضا يخضع لسيطرة الاقتصاد وتطاحن الطبقات ، كل شيء صراع ، عم الطاهر ، لماذا قلم القصب هذا لولا حنينك لأيام تعليم القرآن ؟ تقرمطت ، تزنجت ، تشيعت تمركست ٠ أهلا ٠ يا أنثى ! يا سيدي عبد الرحمان ! يا تعاسة الفقراء ! يا أنانية المعزولين هلموا ٠٠٠ فشمعة عم الطاهر الغمري مغروسة قربانا لمن يموتون في الجبال والغابات من أجل القضية ، وأنت تغرس الشمعة المسروقة كقضيب فخم ، مستطيل ، غليظ وترفعها في الوحدة قلاعا وتمارس العادة السرية ذهابا وايابا ٠٠٠ ذهابا وايابا ٠٠٠ ذهابا ٠٠٠ درست القرآن ولم يعرك أو يربكك أي شك ثم دخلت في بوتقة العلماء والمشايخ والقضاة والفقهاء ، فهمت أن من بينهم من ينافق ومن يكذب ومن يتعربد ومن يدمن في بعض الاشياء ، فهربت ٠ تركت الجمعية أنت وبعض الاشخاص

النزهاء المؤمنين ايمانا نزيها مطلقا .. أما أنت فألحدت وبدأت تروض نفسك على الشك بكل شيء دخلت الحزب ، انتهيت من الشكوك ثم اخذت السلاح وصعدت تقاوم الاجنبي . عاد الشك الى امعائك يقطفها بشفرته اللعينة . أتاك صديق وأخبرك انهم قرروا ذبحك . كنت في مهمة تنظيم احد العمليات بعيدا عن مركز القيادة هربت ثم سمعت أنهم ذبحوا رفاقك . وهنا كان أول رد فعل مخجل يصدر منك ، تساءلت : والآن من سيداويني وقد ذبحوا الحكيم بموسى حافية ؟ «كيف حال ورديتك اليوم ؟ » من سيعتني بسلك ؟ تمردت على هذا السؤال الذي اقتحم نخاعك ، كنت تسعل تسعل وتذبل رئتيك ، كنت تموت جوعا ، ترفض كسرة اخوانك الفلاحين الذين كانوا يعرفونك منذ عهد قديم يوم كنت تنظمهم وتبث الدعوة فيهم ، تحدثهم عن توزيع الاراضي الخصبة لمن يفلحها وقد كانوا ، لا يقهقهون ، لا يترددون على المواخير ، لا يكرونها فتغلقها المعلمة في وجه الشعب الذي كان يرجع بخصيه وهي تكتظ لبنا . والصورة ؟ أنت مصر على أن الجانب الآخر منها لا وجود له ، تقول : رفاق من اللجنة المركزية . فقط . حزبيون . بو علي عامل واع ولحام ماهر . سيد احمد مثقف متعاطف مع الفقـراء وأستـاذ . الالمانـي ليس بألماني . لقب هكذا فقط لانه أسر في ألمانيا وقد كان شعره تبنا . الحكيم . اختصاصي في امراض السل . تقول : فقط . أنا أريد التعرف على خلفية الصورة . أريد تقييم الرؤية وهذا الامر سوف يوضح الكثير من مهمات الجانب المعروض والمباشر والشفاف . أنا أبحث دائما عن الممحو ، عن المشطب وعن قصدير الاشياء وقصدير المرأة . خلطها تصفى ، عم الطاهر ! هـذا هـو السر في الكتابة ، نجر اقلامك القصبيـة ، وامسـح صمغـك بحشـائش المستنقعات والجنون ، لكن لا تنس فالكتابة خلط ثم فـرز ثـم خلط المفيد ؟ الفتيلة . السلك الحريري . الخط الكهربائي يربط الاحداث ويمحور البنية . لا يجب ان يفلت والا أصبح التاريخ غامضا ملتبسا مرتبكا . عملية المزج واجبة . انت خمياوي لا اختصاصيا في علم الكيمياء .

انت خطاط ! سحار ! رمال ! لا كاتبا يسجل ليلياته على دفاتر التفاعة والتزوير . كتابة التاريخ تجبرك على النظر الى خلفيات الامور . قفا الامور شيء هام جدا . أنت تتصور أنك محصت كل المعطيات ، لكن تتقزز وتغضب عندما أسألك عن لون عيني سيد احمد ... تقول ان هزيمته ال ١٥٠٠ متر أمام العداء البلجيكي خرافة وأسطورة : أريد المزيد من التفاصيل أنت تفهمني لكن تتهرب وان كنت في الحقيقة تعترف في قرارة نفسك بهذه الاشكالية الضخمة . كيف تكتب التاريخ ؟ لا أحد يريد توضيح الخفايا ، وأنت تختفي ، تسكن العرين ، تحلب البقرة ، تحاول صيد الحمام في الحدائق العمومية والاسماك في الاحواض العامة . لا ... تنحيل ! الواقع مدين للشكوك وهواجسك والاستفهامات والتخيلات الذاتية، كل ذلك يخلط الامور عليك ، فأهلا ! المفيد أن لا يفلت منك الخيط الناقل ، والبقية حسن وضبابية الامور وعتمتها بالحس تدرك . تقول في نفسك يا لها من صبية غبية ، قتلها غرورها ، من هي ؟ فما كانت قد خلقت بعد عندما حملت السلاح وطفت البلاد شرقا وغربا ، جنوبا وصحراء . لا تقل مثل هذا الكلام عم الطاهر : ولا تناقش هذه الامور وأنت تعلم ان كل مناقشة فيها عقيمة لا جدوى منها . لقد حملتم السلاح ، وبعد ؟ هل هو ذنبي انا اذا لم أحمل السلاح ؟ اياك وعقلية قدماء المحاربين ، أنت ثوري عم الطاهر وتسللك (عفوا ليست هنالك أية علاقة بالسل) هذا آني ووقتي : سوف تعود الى الميدان حتما . أضرب خمسة ! زهر النرد وقراءة الفناجين المقلوبة وضرب الخفيف ... أضرب خمسة ، هل تراهن ؟ ما أردت . الا بكارتي . فقدتها نكلة . هكذا . تخلصت منها . لا أتذكر أين ومع من . قضيب . آلة . شيء . هل تترك العود معوجا ؟ باستقامته يستقيم الظل . أتراهن ؟ زهر النرد سبعة ، خمسة ... الا بكارتي . بكارتي . تخلصت منها نكلة في الرجال . آلاف القرون من الاستغلال . لذا ، أنا معك ، مع الطبقة التي تحن اليها . بلا شعارات يا راجل . أكره الشعارات ، أنا بورجوازية صغيرة ، صغيرة لكن منقوضة ،

منفصمة ، منفصلة ، لنعد الى التاريخ • اسمع عم الطاهـر أنا أحبك • لا لست أبي لو تريدني لألبيك ، أنا تحت تصرفك ، اشتهيك لكن أعرف لو تضاجعنا ، لنفلت منا السليك الواصل • لنرمم التاريخ• أريد كل الحقيقة ، اسمع عم الطاهر ••• اعترف ! لماذا لم يشرف الحزب على اندلاع حرب التحرير ؟ في الحقيقة انه لا ينسى كتابـة التـاريخ لقد تفرغ لها • انما البقرات وحلبهـا تبرير للخروج والولوج في المدينـة والمدينة تبهره وتقطع امعاءه • تجـنـنه وميناؤها الضخم وبنياتها المتراكبة تجننه • انه لا ينسى التاريخ ولا القرآن (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) لقد آمن ، وهذا امر مفروغ منه • اتهمته بالفوضوية • فضحك في سريرته • عاتبته على العهد الذي كان يضرب فيه الاطفال على أخماص أقدامهم • (عم أسيدي : تبت يدا ابي لهب ••• وفي جيدها حبل من مسد ••• عم أسيدي •••) الفلقة ورائحة الدم ينبع ورائحة الصلصال ورائحة الفقر • عـم أسيدي ••• سيصلي نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب • يتذكر ويتحرج • هل تعلم ؟ هل تعـرف سالمـة هـذه الصورة ؟ لا بد ••• وامرأته حمالة الحطب • سوف تلقني درسا في القرآن • الغلاقة بين الدين والجنس ما هي ؟ مسكينة المرأة العربية ! لن أحدثها عـن ذلك وبنيتي تلومني ، تعاتبني • يا للمصيبة ، كيف عرفت حكاية الشمع المسروق من سيدي عبد الرحمان ؟ والعادة السرية ؟ تركتها منذ دخلت هذه الحجرة وبين يديك شعاع شمس• مسكينتان رئتاي لا تشفقي عليهما •أخاف عليك من الدخان • هل صحيح ان السرطان ••• تقرمط ، تزنج ، تمركس آمن بالقضيـة ، قضيـة الفقـراء والمستضعفين • لكن بلا شعارات عم الطاهر ، أرجوك • أهلا بنيتي• كرهتها أنا أيضا لكثرة ما رددتها وفي اليوم المعهود تركنا القطار يفوتنا ، لكن التحقنا به ، ضحينا كالآخرين - نسبيا - كنا قلة ، كنا قلائل • وهو لا ينسى تاريخه الضائع بين الناس ، جيلنا كاد أن ينقرض والاجيال الاخرى لا تهتم كثيرا بحربنا • سالمة عالمة بذلك • تقول : الغريب انكم لم تطردوهم من قبل ••• مهلا سالمة ! تثور :

وكيف اقتحموا البلاد واستعمروها ، أين كان الشعب ؟ قبائل ؟ أعراش ؟ لا أستثني الاتراك ، انهم مستعمرون كالاخرين ، لهم دينهم ولي ديني ، عم الطاهر • أجيال جديدة توغلت في الميدان تحاسب الاسلاف وتطالبهم • لماذا ؟ ١٣٣ سنة ••• أليس كثيراً ؟ يرد عليها : المشكل اقتصادي حضري محض ، ولا يمكنك تجاهل هذه المعطيات • كان الاتراك في المدن يخترعون الانقلابات العسكرية والشعب كان منحصرا في الجبال والصحارى ••• مهلا نظرة نخبية يا سالمة ، أنت تريدين ان تكوني جرحا مهما في زمانك • وتنفض هي رماد سيجارتها بعنف : انها من البورجوازية الصغيرة ، الصغيرة ، الصغيرة ، لكن أعلم انها قصرية الرأسمالية • من قال هذا ؟ لست أدري ••• هل هذا شعار أيضا ؟ لا أبدا! انها حقيقة صلبة متعندة • انها جادة في رأيها ، تفصله فصلا فصلا وجزءا جزءا ، وجزئيات • ومن رواسب العهد العثماني الى الانقلابات العسكرية يتضح الامر ويسري السلك الواصل • أعطني شايا من غلايتك العظيمة • يأتي به • منعنع ، حار ، موز ، في استكانة مزخرفة مكتوب عليها اسم الله بالحرف الكوفي ، تشربها برشفة واحدة وتقلبها : صنعت في اسبانيا ••• هنا ايضا الخط الناقل وان كان ليفيا نوعا ما ، الاندلس لا لنبق في جونا • لا تعرفين الا القليل عن ورشة اللحام عن سباق الالف وخمس مائة متر حواجز وعن التصوير بالشعاع في عيادة الحكيم وعن كرامة الالماني وعن تدريس القرآن ، لكن لم يترك الالماني ورشة اللحامة لبو علي طالب ، وكيف ذلك وقد انخرطا في حرب التحرير في نفس العام ونفس الشهر ونفس اليوم ونفس الساعة ونفس المكان • أما الآن فهو جثة ، أو لعله هارب من الذبح ، هارب من الخصيان • ألحت سالمة تطمئنه • لا تخف شيئا ، انقضى زمن الذبح ، يمكنك التحصل على أوراق رسمية وبطاقة هوية وحتى على جواز سفر ؟ ماذا أفعل به أبيعه ، أشتغل مهرب عملة صعبة به وسلع وبضاعة ؟ يضحك ، لا يا سالمة ، السرية حتمية ،لايجب اعادة نفس الاخطاء ••• وبقراتي ؟ لمن اتركها ، جميلة حليمة ،

يا أمينة / يا سمينة ؟ أحبها كثيرا ، ربيت الكبدة عليها ، اقرأ التاريخ ، لقد تسلقه ملوك الطوائف ، وقبل ذلك متى كان أول انقلاب عسكري في تاريخنا ؟ تبقى مذهولة ،متى ؟ أين ؟ معاوية عندما اغتال علي ، وبعد ، فملوك الطوائف ، كانت الدولة العثمانية • انها رواسب لا زلنا نعاني منها • فتنظر اليه ، تفهم / وتفهم شيئا ولا تفهم أشياء • عظيم يا عم الطاهر ، لكنك متسلل • لا يابنيتي لا ! أبدا أنا فوق العرين أراقب كل المدينة والميناء وحركة الشرطة وسلاسل الخلق أمام دكاكين التجار (لا بيض ، لا بطاطا ولو) قلت قصرية الرأسمالية ؟ نعم ، قلتها •

كانت الساعة تشير الى الرابعة صباحا عندما رجعت سالمة الى بيتها فمنذ سنوات لم يعد يتجرأ أحد على انتظارها مراقبتها ، منذ سنوات وهي لا تعرف ماذا تفعل بحريتها المطلقة ، أغلب أخوانها وآخواتها غادروا المنزل فهناك من تزوج ومن غادر البلاد للدراسة في الخارج أو لغرض من الاغراض التي تجهلها او للمغامرة ، ولم يبق في المنزل الكبير الا ابوها وقد فقد وعيه تماما وهرم الى حد كبير وتبقى أمها وقد شاخت هي الاخرى لكن بقيت على صحتها العقلية الكاملة واستبقت لياقة بدنها وقد تجاوزت الستين عاما ولطيف احد اخواتها يكبرها بسبعة اعوام لم يتزوج ولا يريد الزواج وتظن بين تلافيف نفسها انه يمارس اللواطة في الكتمان وتريد أن تصارحه في الموضوع لكنها لم تجد الجرأة الكافية لكنها صممت على أن تستفسره ، في الامر آجلا أم عاجلا ، وهو ـ لطيف ـ يعيش حياته بين عمله كطبيب في أحد مستشفيات المدينة كاختصاصيفي أمراض النساء وكتبه واسطوانته الموسيقية العتيقة لا يمل من الاستماع اليها من يشتريها من كل بلدان العالم عندمايذهب للتسوح او في مهمة اوبعثةمهنية ، وأختها الكبرى امينة التيلم يفصل بينها وبين الاخ الميت الا تسعة أشهر وبضعة ساعات بالتدقيق • تزوجت ثم طلقها زوجها وطردها من بيته تاركا لها أربعة أولاد يعيشون معها في دار أبيها وتقضي معظم أوقاتها في ورشة الخياطة

حيث كانت تعمل قبل زواجها ، تعلم أخواتها وبنات عمها وصديقاتها فن التفصيل والطرز والحياكة ، وهنا أيضا خادمة صماء عوضت عن عمتي فاطمة بعد وفاتها ٠ أما سالمة فتشرف وهي في الخامسة والعشرين على تسيير المكتبة الوطنية وتدخن علبتين من السجائر في اليوم وتطالع العديد من الكتب والمجلات وتحمل في حقيبتها اليدوية صفيحة من أقراص منع الحمل وتعشق ثم تندم وتقطع العلاقة كلما شعرت بأن صاحبها بدأ يتعلق بها فتشمئز وتتركه لتوه من دون أنذار او ارسال كلمة قصيرة لتبرير موقفها ٠ ومنذ أن تعرفت على الطاهر الغمري قطعت كل علاقاتها ، وفقدت الصديقات القليلات اللائي تعتز بهن ، حرة طليقة ، لا تعرف ماذا تفعل بحريتها ، ترجع الى البيت في ساعة متأخرة ، لا تبالي بالصعاليك الذين يجوبون الطرق وذكورهم بين افخاذهم تتلوى عطشا ورغبة ٠ كانت الساعة تشير الى الرابعة صباحا عندما رجعت الى بيتها مستقلة سيارة أجرة ، ذلك بعد ساعات من النقاش الحاد مع عم الطاهر ، وهي تنزع ثيابها ، تنظر الى جسمها في المرآة تضحك وقد تبادرت الى ذهنها فكرة ممارسة الجنس مع صديقها الوحيد ، فتعد على اصابعها الاعوام التي تفصل بينهما ، خمسة وعشرون عاما على الاقل ، تتلمس نهديها الرائعين وتضغط بأصابعها على حلمتيها تحوم بأنملة سبابتها اليسرى حول لعوتها البنفسجية ، تحاور نفسها : لن تقطرا حليبا أكره الامومة وكل النساء امهات ، وضعن لهذا الدور منذ الطفولة ، وانا كذلك الطفشة ، انا الطائشة ، لن أكون أما ٠ رجال العالم موتوا فجسدي ملكي وليس ملك احد ، لو أراد عم الطاهر ! لكن لا ، لو فعلت لندمت يجب ترك العلاقة على حالها ، له عاداته السرية والمباحة ٠ تعري جسدها من كل ملابسه ، تدخل الفراش ومذاق اللذة ملتصق بلسانها ، تشعل السيجارة الاخيرة ، تقول إنها سوف تتوقف عن التدخين لا لأسباب صحية وانما لمجرد امتحان عزيمتها ، على ذلك تستنشق الدخان ٠ روعة وبنة وخاصة السيجارة الاخيرة.تطفىء الضوء ، تدخن

في الظلام حيث لا تبقى الا عقب اللفافة المتأجج بحمرة جهنمية (وامرأته حمالة الحطب ٠٠٠) كل السيئات فينا نحن معشر النساء ٠٠ تسرق السمع فيصل الى مسامعها رنة موسيقى كلاسيكية حزينة جدا ٠ انه اخوها ، فهو يعاني من العزلة والارق والربو ٠٠٠ أخوها الطبيب ٠ هل فيه تلك الصنعة كما يقول فحول الرجال في بلادنا ؟ يجب أن أوضح الامور أسأله ، هل تمارس اللواطة يا لطيف ؟ فان كان الامر كذلك فأنا احبك أكثر ٠ ثم تبكي وتقول إنه التعب ، تريد أن تدخل بيته كما كانت تفعل مع المتوفي وهي صغيرة تسكت ، تسمعه يسعل من فرط السمنة التي يعاني منها منذ الطفولة ولعل مرضه هذا هو الذي قوى موهبته المهنية ٠ تغفو وهي تقول ، بل تتلعثم : كتا ٠٠٠ بة ٠٠٠ التا ٠٠٠ وينقض عليها النوم ، تتقلب على بطنها ، تغرس أصابعها تحت الوسادة ، تنام ؟ تموت ؟٠

بعد ليلة أرقه فيها ربوه كان لطيف يتمتع بنوع من اللذة يتسبب فيها عياءه الشهواني ٠ انه لم ينم ولم تغمض له عين ٠ سمع سالمة وهي ترجع الى الدار وهو لا يدري من اين تأتي فالامر لا يهمه ، لكنه يشعر بالاعتزاز يقتحمه ، امرأة فحلة ! أنثى قادرة وصارمة ، اخذت بعاتق المسؤولية ٠ يمكث في فراشه ، اليوم يوم جمعة ، ولا يذهب الى المستشفى وقد خفت الآن حدة الربو ، لقد شرب دواء بعد ترددات كثيرة وبعد اخذ ورد وهو يكره ككل الاطباء الادوية والمرضى ، لكنه يتقن عمله ، يضحي بكل ساعاته ، ينهمك في العمل هروبا من الواقع ٠ الى أين الذهاب ؟ المدينة تغلق أبوابها وحوانيتها وقاعاتها في الساعة الثامنة ٠ لا يبقى فيها الا دوريات الشرطة راجلة او ممتطية سياراتها الزرقاء ٠ قاعات السينما لا تعرض الا أفلاما تجارية والجمهور متعربد يضج لمجرد قبلة يتبادلها أبطال الفيلم ٠ انه الحرمان لا يشرب الخمر ٠ يكرهه ٠ منذ الصغر يكرهه وقد كان ينظر الى أخيه يتغلغل يوما بعد يوم في الهذيان الرعاشي ويفقد أجزاء من كبده من جراء الاشقرار الذي أصابه وهو مدمن على شرب الخمر ٠ الاوراق ، لا يلعب بالورق فيلجأ الى البيت بعد العمل ، يقرأ ويسمع

الموسيقى القديمة ويتوغل في فراشــه يفكر في سالمة وهو يشعـل سيجارة ، لا يدخن اكثر من خمسة سجاير في اليوم ، يبقى في الفراش يسمع الى الحركة المنزلية فيسمعها تعلو وتنمو شيئا فشيئا ويترقب امه تأتيه بقهوته الصباحية ، يتتبع الاعمال المنزلية الاولى : هــذه خديجة الخادم الصماء تخرج الزرابي من الغرف وتعلقها علــى حبـل الغسيل في صحن الدار وتضربها بعصا غليظــة لازالة الغبار عنها وها هي ذي النوافذ تقرع وتضرب الجدران عندما تفتحها امه على مصراعيها وها هو كتيب الزيت يغلي في القدرة الكبيرة المسنة التي نبرق بكل لمعانها فتحرص الام بنفسها على تنظيمها وحكها بمحلول القارص والامونياك تلك القــدرة التـــي تضـع فيها البصل والثوم وتقليهما بكل مهارة ودقة ، فتتدفق الرائحة فيها وتصل اليه امواجا متهاطلة مترددة على الاثير وكأن الجو في الغرفة لا علاقة له البتة بجوها العادي وهو يعلم ان هذا الانطباع انما مجرد احساس مربــوط بأيام العطلة والراحة والاعياد المدفوعة اجرتها كما تقول الجــرائد الرخوة ، هو متعود كذلك على مثل هذا اليوم من الايام الزلقة ، حيث يبدأ مضخم الصوت المعلق فوق صومعة المسجد المجاور في تلاوة القرآن وترنيم الآذان طيلة النهار الى حين نقل المباراة في كرة القدم على شاشة التلفزة وترتفع النغمات القرآنية ، فتغطى صوت المعلق – لا يعرف الموضوعية – أما هو فلا ينظر الى البرامج التلفزية ولا يشاهد المقابلات الرياضية ظنا منه انها منحطة المستوى ، ثم تأتي امه بالقهوة ، تضعها فوق المنضــدة وتعانقــه وتضمــه اليها ، فلا يسألها عن حال أبيه فهو يعرفه لانه يفحصــه من حين الآخر ويزوده بأقراص مسكنة . هل سمعت اختك تدخل ... ماذا يقول الجيران .. يضمها اليه ... اتركيها ... لا تفعل سوءا ولا تضر الجيران ... بوعيها ... دعيهم يقردشون ... مهما فعلنا ، وحميد ، لم يعلم حميد متغطرس لكنه جبان ، لا يجروء على مجابهتها ... انه على علم بالقلقة والقلاقل ... لكنه يخافهــا ... هونــي عليــك ... وتنصرف . كتيت القدور . تترك الباب مشقوقا ويدخل القط الاسود

ويثب على الفراش ··· ماذا يا مسعود ؟ ··· ماذا ؟·· لا تعرف الا المطالبة بالمزيد من التمسيح والفئران تسيطر على الوضع ··· انه يخاف الفئران ··· انه على حق ··· انت طيب ··· اتركها تعيش ! أهو قط طيب ام جبان ؟ انت كحميد ! حميد ينفخ صدره ، يشعل عينيه ، لكنه جبان ··· تهزأ سالمة به وبانذاراته المتعددة ؛ يضع اسطوانة ماهلر : سيمفونية الالف ··· يترنح القط ··· تكسو الموسيقى كل شيء وكل الامور وحتى القط ينطوي على نفسه ، فوق الفراش · ماهلو مات بعد وضعه السيمفونية · أشبعوه شتما فهرب الى ايطاليا ومات في عزلة فندقية بالبندقية · معزوفة الالف : ألف عازف · يتبقع بانطباعات الايقاع وتشابك الحركات المتموجة بتردد واحد ووتيرة واحدة والموسيقى ، تعاود نفسها ثم تعاود وتعاود ، فتخرق خامية الحس فيحاول عزل مقطوعة تلازمه فلا تفارق ذهنه بدون جدوى خاصة وهو يعمل في المستشفى وهو يفحص النسوة الفقيرات اللواتي تعبق فروجهن برائحة كريهة وقد يسميها هو رائحة الفقر وهن ـ النسوة ـ يترددن عليه ويضعن كل سنة جنينا وقلوبهن مملوءة بالسعادة فينهرهن ولا يفهمنه خاصة وقد اشتهر بحسن سلوكه مع المرض وبمهارة فنية فائقة وطيبة قلب معروفة لكنه ينهرهن : هذا العاشر هذا التاسع ، هذا الحادي عشر ··· يكفي سيدتي ··· كفاية ··· رحمك من لحم وشحم وعضلات ، لا من الاسمنت المقوى ، الشفقة ، الرحمة ! يضحكن من كلامه انه رجل طيب انه شاب لم يتزوج بعد وقد بلغ الثلاثين ونيف ، يا للخسارة··· « مسعودة المرأة اللي يعطيها سعدها وتتزوجه ·· » مسكين ! معزوفة الالف ، جنون ! مات ماهلر في البندقية وأنا أموت في هذا الوطن الملعون ··· لكننا نحبه ، لن نتركه ، وكلما ازدادت الموسيقى قوة وبهرجة ضعف الاحساس وتبدد في الصيغة الترنمية العامة واستمراريتها وما ان يبرز وقع جديد الا ويغرق في المجموعة نفسها وكأن سيلانها وغزارتها وطوفانها يجري من وراء الرحيق الخام قبل ان ينغرس داخل الكون الطنان · والقط لا يتحرك ·

تأكل سالمة وجبة الغداء وهي جالسة في فراشها ، مستندة على اريكة ضخمة ، تنقر لقمة من هناك ، تقطع اللحم ببطء مستعملة الموسى والشوكة وعندما تنتهي يأتي القط وقد انتهى من الاستماع الى الموسيقى وقد خانته روحه فيترك حجرة لطيف ويذهب الى الغرفة المجاورة ، فيخدش بأظافره فتفتح له الباب سالمة ، ينط على الفراش فتأخذ قطعة لحم بالشوكة وتضعها في فم مسعود ، وتتركه وعندما ينتهي يرفع رأسه نحوها وفمه مفتوح ولسانه الاحمر في حركة سرمدية ، فتأخذ قطعة أخرى بشوكتها وتضعها في فمه ، يأكل القط اللحم ولا تأكل هي منه شيئا ، ويتثاءب القط ، يتمطط ، فتقبله ، يدخل القط تحت الفراشية ، تقول : مسعود انت خبيث ، ماذا تفعل في فراش فتاة عارية ؟ الا تستحي ؟ تتركه ، يقبع بين رجليها . يأتيها النوم وللقيلولة يوم الجمعة طعم خاص وكأنها تتشرب كل ما تراكم من عياء ووهن طيلةالاسبوع خاصة وهي لا تعرف للنوم معنى في الليل ، فيعوض نعاش النهار الليالي البيضاء وتشعر وكأن مخيلتها ترتاح من عبءالايام ومن المسؤولية والقلق والحيرة ، وكأنها تستغرق في نومها ، تسحق وزن حواسها كلها المطلية بالحلاكة ، تحت ايناء جسدها المربع ، فيضمها ظلها وتحلم بمنضدة الطاهر الغمري المنقوشة (اي نوع من الخط ؟ كوفي ، ثلثي ، نسخي ، لم تسأله) وتحلم بالوردة الصفراء المزروعة (بدأت تشك فيها ، تظنها اصطناعية) وتشعر وهي تحلم انها لم تكن ابدا في حياتها وفي اية لحظة من حياتها على مثل هذا الوضوح الذي يغمرها في حلمها فتنسى موتاها (الاخ الاكبر ، عمتي فاطمة ، سيدي احمد ، بو علي ، الحكيم والالماني) وكأنها عمدت الى الابواب والنوافذ وجميع المنافذ التي سمرها عم الطاهر بعوارض خشبية اختلسها من المصندقات الضخمة التي بنى بها زريبة لبقراته الثلاث . تمكث هكذا داخل غرفة

قد ازيل عنها كل آثار المرور البشري ، فتجد امامها دفاتره المكتوبة بالصمغ الوردي فتفك رموزها وهي مخططة بحروف لا تعرفها وتسرع في قراءتها فتقفز الاسطر والاسطر كما تفتق التاريخ ومفاهيمه وخلفياته وتزييفاته ألحقت به عمدا وعزالته وجرائمه وأكاذيبه وطلامسه ، ولا تستفيق الا عندما تشعر بأن القط أخذ يلحس فرجها ، فتثور عليه وتغضب وترميه من أعلى الفراش وتفتح الباب وتطرده : لطيف خلصني من هذا القط الاحمق ... لطيف !.



الفصل السادس

استمر هطول الامطار في لب الصيف ، ولم يفهم احد سبب هذه المبالغة ، أما أنا فلم أر مانعا أن تصب السماء آلاف الاسطل من الماء الزلال • شعرت بتفاعل الناس وحلق على جو الدار رذاذ اليأس وكأن افراد العائلة ليسوا معلولين ولا باصحاء ، انهم بين بين ، كأنهم ناقهون من مرض عضال او على اهبة الاستعداد للسقوط في مرض لا يقدر احد على تسميته بوضوح وكانت السماء تلقي ما في وسعها من جلجلة هدامة وزوابع لا تحصى ولا تعد واعاصير آتية من وراء بلاد الثلج ، فتهتز لها السطوح وتنخسف الجدران وتشطح الاشجار وكأنها قد فقدت وعيها وجذورها وتقتلع السفن في الميناء وتطير في السماء باتجاه القمر وهلع الناس من هذه المصيبة ، قالوا ان الآخرة قد آن اوانها وان الله عيل صبره ولم يطق أكثر تأن فقرر أن يستعجل في الامر ويتخلص من العالم قبل حلول القرن الخامس عشر وهو الاجل الذي حدده حسب اقوال العلماء واصحاب الفلك والمشائخ والأئمة ، ليوم الطوفان • وحتى الاواني أصبحت لا تعرف في اي بحر تسبح ، كنت اذاك طفلة صغيرة لا ابالي بكلام الكبار وجعلت من شجرة التوت سفينة سيدنا نوح وجلست عليها بمفردي في عزلة شيقة والماء من حوالي يهيج ويهدر فيأمرني ابي بالنزول فأرفض ، يأتي اخي الكبير ويتوسل الي ويطلب مني ان اترك الشجرة فأرفض ايضا ، يصعد ويجلس الى جانبي ويفتح مظلة ضخمة ويغطيني بمعطفه

ونمكث هكذا اياما واسابيع نتفرج على يوم القيامة، لا نترك الشجرة الا في الليل وندخل الى المنزل حيث تنتظرنا عمتي فاطمة حاملة خيشة تبسطها على الارض وتجبرنا على مسح أحذيتنا عليها وهي تشتم وتضرب ونحن نضحك منها. قالوا اصبح صيفنا شتاء وشتاؤنا صيفا. مكث الرجال في المنازل يترقبون اليوم الاخير وتركوا المقاهي والحانات والشوارع ، وسرعان ما تحول خوفهم الى حقد ، فسأم فقلق . أخذوا ينظرون الى السماء المغيمة نظرة غضب وشراسة، يرجمونها بالحجارة ويتسفهون ، جهدوا كل الجهد للتغلب على الفراغ فلم يجدوا له حلا . اما انا فدأبت على المكوث فوق الشجرة يغسلني المطر الفاتر ، فيلحق بي اخي في بعض الايام ويتركني لحالي اياما أخرى . سئم أبي المكوث في الدار ، فأخذ يستغل كل فرصة للقيام بعمل ما ايا ما كان فراح يعوض عن امي في المطبخ او يساعدها على تقشير الخضر وقطعها ويختلس فرشاة عمتي فاطمة الحديدية ويغسل الدار ، يجبر كل افراد العائلة على تغيير ثيابهم كل يومين وينهمك في غسل اكوام الملابس بما فيها اقمصة النساء الملوثة بالدم الحيضي وخرقهن الشهرية ، جرب كل الوسائل للتسلية وللترويح عن نفسه لكنه كان جبانا فلم يجرؤ ولو مرة واحدة على الكفر وشتم الاله ، على عكس العجوز الشمطاء فقد راحت تهدد السماء بقبضة يدها ولا ترحم الطيور الذين كانوا يحاولون الالتجاء داخل المنزل . ابناء القحبة . ثم كانت تنحرف في كلامها وتأخذ في شتم الاطفال بعد ان تتخلص من كل الطيور المبلولة « قلت لكم ! آه ولاد القحبة ! حبيتو تتزبو قبل ما تتعنبوا ! شفتم ... رأيتم ... هذا سخط الله عليكم ... » تطلب مزيدا من المطر وابي لا يوجه لها ولو كلمة عتاب واحدة لانه يخافها . كان حميد ثاني الذكور يعيش على جناح اليقظة ويقتل الوقت بكل قوة وعزيمة وبطش ، وجد حلالا لا يمس شرفه واخذ يستعمل يديه لفك كل الاشياء وكل الالات وكل المحركات ، ثم يعمل على تركيبها من جديد ، فكان الحل بالنسبة له يسيرا ، فشمر عن ساعده ووقف بالمرصاد يتفحص الجدران والسقف والسطوح والنوافذ ، قضى اسابيع

عديدة ينتقل من مكان الى مكان ، داخل المنزل ، ويصلح ما تخـرب فيه ، فشحم مفاصل الابواب وكانت قد تصدأت بتهاطـل الامطار وسرح الاقفال وقد امتلأ بخارا لزجا كما انه رص قنوات المياه وقد فاضت بتدفق السيلان وعـوض براغم المزالج بأخرى من الصلب والفولاذ ، وطلى باب الحديقة البالي بطبقتين من الدهان الاسود ، ظل هكذا مدة اسابيع وانا رابضة فوق شجرة التوت لا يعاتبني احد خوفا من عواقب الله الوخيمة ، وكان اخي ينتقل من حجرة الى اخرى ومعه ادوات كان قد اختلس معظمها من دكاكين الخردوات ، وقـد انخرط منذ طرده من المدرسة في عصابة سوء يشكلها اولاد الحـي البطالون ، وكان هطول الامطار الطوفانية هذه في وسط الصيف لا يزعجه قط كما كان الحال لافراد العائلة كلهم وسكان المدينة جمعاء واهل البلاد برمتها ، اما هو فاستغل الفرصة الذهبية هذه واظهـر قدرته وشطارته على الاعمال اليدوية فانهمك اياما عديدة في اصلاح الثلاجة وهي خاسرة منذ اللحظة الاولى التي اشتراها فيها أبي ، ثم انفرد بالمذياع وقد كان على احسن حال فاخرج امعاءه واحشاءه وركبه من جديد وطلى جهازه بالشمع فاصبح براقا لماعا واكتسـب صوتا صافيا لم نكن لنعرفه له من ذي قبل ، وهكذا ، وهو في تراوح ودوران، لا ينام ولا يأكل حتى هزل جسمه وفش جلده وكبرت عيناه وشحب لمعانه العادي وأضاع الكثير من صفاقته وهو يترقب كل يوم ان يزيد المطر غزارته ويضاعف الوابل فورانه فيما كانت عمتي فاطمة تلعنه وتجري وراءه، تنظف المكان الذي يعمل فيه وتزيل نشارة الخشب وسحالة الحديد وغبار الجبس ومسحوق الاسمنت ورواسب الجير الخ . وما ان انتهى من ترتيق الدار كلها وترقيعها وتحسينها وتجميلها حتى فهم ان المطر قد تغلب عليه واكل صبره وكبت حيلته واوقعه في شرك الشكوك والهواجس والسأم ككل الناس ، فاغتاظ في اول الامر ثم قرر ان يعطل كل الساعات الجدارية التي ورثتها امه من احد اسـلافها الذي كان يعمل قرصانا محترما ماهرا من قراصنة القرن الثامن عشر وكان يجوب البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسي وحتى - حسب

زعم البعض ـ المحيط الهادي فأخذ اخي يعطل الساعة بعد الاخرى وينهمك في تصليحها مدة طويلة من الزمن لا يترك غرفته ولا ينام ولا يأكل حتى اذا ما نقص وزنه بشكل مخيف، اشفقت عليه عمتي فاطمة واهملت القيام بشؤون فؤاد وما كان حميد يبالي بكلامها ونصائحها ليطردها بعنف ويستطرد في اعماله الدقيقة وانتهى اخيرا من الاعتناء بالساعات الجدارية الصقلية وهز رأسه نحو السماء بعد سهو دام اكثر من شهر واذا به يدرك ويتأكد بنفسه أن المطر ما زال يتهاطل وخرب وعفن وصدأ من جديد كل ما أصلحه، فلاحظ أن عشبا زغبيا راح ينمو بين تبليطات الغرف ووسط الدار وحشيشا غريبا يكسو الجدران وصوفا بزاقية تؤكسد دواليب الآلات ، فراح يستعيد ذاكرته وقواه ومهارته ويأخـذ ثانيـة في الترقيـع والترتيـق والتصليـح والتفجير والتصقيل والتصبيغ والتشحيم والتفتيق والمطر لا يهفت ولا يخـف والرطوبة تكتسح حتى بوقال الاسماك التي لم تعد تفرق بين الماء والجو وبين المبلول والجاف ، وكأنها تسبح في الهواء وتزحف في المـاء وما كان من حميد ان أنهى اعماله وقد قام بها للمرة الثانية أما أنا فما زلت أصعد كل صباح الى أعلى الشجرة بمفردي لا يصطحبني الا أخي الاكبر الذي كان يغطيني بمعطفه ويفتح من فوق رأسي مظلة هائلة كان المطر يفرغ قماشها الحريري المشمع كتيما على وتيرة نبضات قلبي الصغير والمطر يستمر في تساقطه الجنوني والناس من حولـي مرايا لزقة . يقول احدهم ان الساعة الاخيرة قد دقت ويزعم آخر ان الطوفان آت لا محالة واننا سوف نشاهد عما قريب سفينة سيدنا نوح عليه السلام ويزعم ثالث ان هذه الامطار الصيفية غير المتقطعة انما هي انذار من الله واشارة الى غضبه وسخطه ، وعمتي فاطمة تهرول وراء حميـد وتهدد السماء بقبضة اليد « اولاد القحبة ، اصبحتم تخافونه ... يا لكم من جبناء ... الا سالمة ... فحلة .. قلتلكم ! حبيتوا تتزبوا قبل ما تتعتبوا ... » لكنها تضجر من السماء ومن لعنها وشتمها فتجري وراء حميد وهو لا يفارق علبة الادوات وهي تنظر تحت حوض المطبخ وتطارد جحافل البزاق وقبائل العلق وزرافات الرخويات

الوردية المتزحلقة وكأنها مطلية بصابون الغسيل تريل وتشرب الرطوبة في مرح وهرج وتعبث بحيل العجوز الشمطاء وتفكك كل محاولاتها للقضاء عليها ، متنقلة من ميزاب الى ميزاب ومن جعبة الى جعبة ومن صنبور الى صنبور ومن انبوبة الى انبوبة تاركة آثارا مقززة وقلويات طرية وخطوطا دبقة ، والمطر يهطل والسماء تعتصر والماء يترشح ويتسرب من كل شق وفجة ومن كل ثقبة ومن كل فرجة وفجوة ، والاب يسبح ويساعد في شؤون المنزل والاخوة تحت اغطية الفراش يختفون مذعورين وأنا في قمة التوته ما فتئت رابضة فيما بدأ حميد يسأم وكان قد طلب من السماء أن تمطر أكثر وخرج الى فناء الدار والى وسط البستان عاري الصدر يصرخ فرحا ويغتسل بماء السحاب ويعوي كالذئبة التي فقدت نطفتها ولقد مل الآن المطر وكره المطر والماء والرطوبة ، اما انا فلا امله واخي يحميني بمظلته ويغطيني بمعطفه ويسعل والماء يلصق خصلة شعره ، فيضحك وعمتي فاطمة تترك فؤاد لحاله وتجري وراء حميد وتحاول انتزاع علبة الادوات خشية تلويث الارضية فينهرها ويشتمها ويلومها يهزها ويرجها ويزعزعها وهي لا تسكت ولا تهفت ولا تسكن ، تفعل مثل البزاق والعلق ، ملتصقة بأقدامه ومتعلقة بأسماله وملتحقة بأذياله ، وهو يعمل ويكد ويرفض أية معاونة ويحفر الاقنية داخل المنزل لتصريف المياه وازالة الحشرات البحرية تسبح وتجول بين اقدام من لا يتجنبها وبدأت الغضاضة القرمزية تظهر على سماته وغزارة المطر تجعله ينزق كراهية ورطوبة فلا ينام الليل كله بل يظل مستلقيا على سريره بثيابه يستمع الى هسهسة الماء على السقف ، وتمر الاعوام وينسى الناس كلهم ذلك العام الغريب حيث هطل المطر في أوج الصيف ومات الاخ وكبرت أنا وهرم الاب وتزوج حميد وانجب اولادا ذكورا وحاول ان يمارس على حياتي بعض الضغط فوجدني بالمرصاد ، اصمد امامه واذكره بواقعة التوتة وكيف مكثت اربعة اشهر والماء قد حول الحديقة والمدينة الى مسبح وانا صارمة في عنادي لا اترك الشجرة الا ساعة النوم واعود اليها كل صباح مبكرة ، رغم عتاب

ابي وتضرعات امي وتوسلات اخي الاكبر ، ويحدق حميد في فاذكره بما تعودنا ان نسميه في المنزل وبين افراد العائلة بواقعة التوتة ، والناس في كل انحاء القطر يسمون ذلك العام الذي هطل فيه المطر في فصل الصيف بدون انقطاع مدة اربعة اشهر ، بعام الطوفان اما حميد فيظل جامدا ، لا يخالجه اي احساس تجاه هذه الذكريات فيقطب جبينه ويبدأ جملة اتلقفها : « تصرفاتك غير ٠٠٠ » اقاطعه ، لا يتذكر واقعة التوتة وعام المطر الصيفي وهو ينتقل من مكان الى مكان بعلبة ادواته المسروقة من دكاكين الخردوات « اترك الموعظة جانبا ٠٠٠ » يحاول ضربي ارد عليه : « تفحص فرج زوجتك ، تلحس طيزي ! » أصدمه بالكلمات الخشنة ، « خمسة اولاد ذكور ٠٠ ما شاء الله ! فحل وسيد الرجال ٠٠٠ لكن رويدا يا خويا ٠٠٠ تفحص زوجتك وهي تلفظ طفلا كل سنة ، حذار من الدود والتعطن ٠٠٠ الامراض النسوية غدارة ٠٠٠ » يريد صفعي ، اقف امامه اتحداه ٠٠٠ يسقط ذراعه على جسمه ، ينصرف ، نسي ايام شبابه الطائش ، (الطفشة انا ! الطائشة أنا !) يطرد من المدرسة ، يتكاسل في القسم ويرمي بممحاته تحت منضدة المعلمة ثم يذهب لالتقاطها ويستغل الفرصة فينظر تحت جلبابها وتفاجئه وهو يحاول ادخال يده بين فخذيها ، تصرخ وتبكي وتترك القسم هاربة وزملاؤه يقهقهون وهو يتنافخ زهوا وفرحا ويظل جامدا وبدون اي احساس في وجه هذه الذكريات المعتوهة ولا يقول شيئا ثم يأتي الى الدار لمعاتبتي قائلا : « الناس يقولون ٠٠٠ انت عاهرة ! » أذكره بفعلاته واتعجب أمام طاقته العظيمة على النسيان او التناسي : « وسعاد ؟ أتذكر سعاد ٠٠٠ حاولت أن تغتصبها وهي في دورة المياه ٠٠٠ في دارنا ٠٠٠ جاءت لزيارتي ٠٠٠ موش طيش ، بلغت العشرين انذاك ٠٠٠ والآن تتزمت وتنجب زوجتك خمسة اولاد في ظرف سنوات ٠٠٠ قيل انك تصلي ٠٠٠ لا تترك الجامع ٠٠٠ شأنك ٠٠٠ اما اموري فهي عندي ٠٠٠ » ينصرف يطأطىء رأسه ، لا يتذكر شيئا لا مرارة ولا وخزا ولا اذنابا : اصبح يصلي قيل انه تاب بعد ان ادمن على المجون واشتهر بذلك فلقب بركيزة ماخور «القمرة» المشهور .

يهددني عم الطاهر ا لكن طرد من المدرسة بسبب مجونه حتى المعلمة لم تسلم منه ولا سعاد ، كادت ان تموت من الهلع ، يرمي المحاة (ام المبراة ؟) ... ويعاتبني وانا في الخامسة والعشرين .

استمر هطول الامطار ذلك العام ، كنت استطيع الزعم ان الطوفان الصيفي منحني فرصة الجلوس على قمة شجرة التوت والتدريب على العزلة وعلى الرطوبة وكأنني شجر سمكي او سمك شجري . وانه نوع من التصوف ولم اكن قد بلغت السابعة واخي الاكبر يشتت اجزاء كبده من حانة الى اخرى ويغطيني بمعطفه الوبري ومظلته الحريرية والآخر يجهد نفسه في ترميم الدار وقد ايقظت فيه حمى الادوات المختلفة المسروقة من دكاكين الخردوات والمصففة داخل صندوق كبير مجهز من الجلد الخام ، ايقظت فيه الحنين الى مهن يدوية مختلفة ، احترفها في جميع انحاء القطر ، وحمى الايدي هذه كانت مرتبطة بحمى الارجل كان يحب التنقل والترحال ، حتى تزوج واستقر في مدينتنا وفتح ورشة الرصاصة التي كانت تغل عليه الاموال الطائلة فلا يعرف كيف يتصرف فيها فيخزنها : ضريبة الوصولية على زوجته وعلى ابنائه ويستعمل الفقه مثلما كنت تفعل مع تلاميذك ، يضرب اولاده ، يمقتهم يعذبهم بخزن الاموال ، يصلي ، نسي هسهسة المطر على سطح الدار وعام الطوفان وواقعة التوتة ، اما انت عم الطاهر ، فحمى المستنقعات ، كنت تفتش عن قصب جيد وتشلخ الاشجار وتبحث عن الصمغ الزخم بين الوردي والقرمزي والصلصالي . كانت أشهر الغيث والكارثة قد حلت بالبلاد ، ففاضت الوديان وخرجت عن مجاريها وتوقفت القطارات وخرجت عن سككها وتوقفت المواصلات وانقطعت الرسائل عن الدار وانقطعت الاخبار معها ، الا المذياع ، كان حميد له بالمرصاد ، يفرغه ثم يركب اجزاءه من جديد فيتغير صوته ويتحسن ويفقد خشخشته المعتادة وحشرجته المألوفة وابي يطوف حول المنزل ، غريب الاطوار ، وابتدأ في تلك الفترة يمارس عادة كريهة ما تفارقه حتى الآن ، تعود على ان لا

يسمي الاشياء بأسمائها فيلتوي لسانه حول الكلمات ويتلعثم ، خاصة وان المطر لا ينقطع فتتكون فكرة مخيفة في رأسي ولكنها لا تزعجني ، قلت : ان المطر قائم ابدا وسوف لا يتوقف وهذه الحالة ستدوم الى ما بعد التاريخ ، لكن لا سفينة هناك ولا سيدنا نوح والحق اني سمعته هو الاكبر يتقول بهذه الاشياءوهو جالس الى جانبيذات عشية كنت تخالها صباحا ضبابي المحيط ثم راح يسترسل في الكلام ويهزأ بحميد وباعماله اليدوية وبورشة الخياطة وبالاخوات يطرزن جهاز العرس ثم يسكت برهة ، ينظر في اتجاهي ، حاملا المظلة ، قابضا على المعطف حول جسمي الصغير وفجأة يفتح فاه : « ليته كان خمرا ... ليته كان خمرا ... فاعوم واسبح ... ليته كان خمرا ... » ثم ينقطع عن الكلام وتظهر على وجهه سمات مرض عضال ، سميته مرض الخجل ! ولم يخرج احد في تلك الفترة من الدار بل قعد جميع افراد العائلة في اماكنهم والابواب والنوافذ مغلقة وقد دجت كل ثغرة بالسبخ وكذلك اذان امي وقد عيل صبرها ولم تطق الاستماع الى وابل المياه يقذف زجاج النوافذ وخشب الابواب وحديد الشبابيك وصلب البوابة الرئيسية وورق الاشجار وتربة الحديقة وقطران السطح يطرق كل ذلك بعنف وقوة فتكاد تجن من فرط الايقاع ومن هذه الوتيرة التي لا تتغير كالاسطوانة المحززة التي تطحن الهواء على نغم واحد لا يتغير وهكذا الى الابد ، اما عمتي فاطمة فهي لا تبالي بهذه الجزئيات ولا تخاف من اي شيء فتهدد السماء ، وتطارد الطيور المسكينة ، وتوجه قبضة اليد نحو الغيوم وتهرول وراء حميد وتعكف على البيت تغسل وتحك وتحرص ساهرة على راحة فؤاد ونظافة فؤاد ولباس فؤاد واكل فؤاد ونوم فؤاد وخبز فؤاد ذاك الذي يضعه في جيب سرواله الذي ينام به فيفتت الخبز فيه ويأكل فتاتا منه كلما استفاق من نومه وهو بين احضان العجوز وقد شاخت وما بقي منها الا الجلد والعظم (لماذا لم تتزوج ؟ عانس حتى الموت ؟ هذا هو شعارها) اما عيناها فهما كحربة سهم اذبلهما طول التحديق في المطر المتهاطل وقد اكتسى عمودها الفقري

شفافية كأنه سلسلة من حلقات ركبـت على وتر من الاعصـاب المتهرئة ، يسيل من خلالها نخاع شحيح لم يعرف للخصوبة يـوما معنــى ، وقد فاض عمرها من حواليها فيطبعها بطابع الخلـود والحزن النهائي والعزلة الابدية وعند الغذاء او العشاء او الفطور ، ساعة تجتمع العائلة حول مائدة الطعام ينسى الاب المطر لبضـع ساعات ويوزع المطبوخ في الاصحن منتظرا كلمة التشجيع او علامة شكر على ما بذل من جهود متكررة وقد اناط نفسه بطهي الطعـام هروبا من السأم على انه يتصرف وكأنه لا ينتظر أي تعليق بالنسبة لمهارته وشطارته فيقول لاخفاء حمى الانتظـار : « مستحيـل ان يستمر المطر على هذا الشكل فيظل هكذا بلا انقطاع ما رأيكم يا اولاد ؟ » ولا يجيبه احد فيما تسمعه الام رغم القطن الذي ينجـد اذنيها فتجيب « اكلة رائعة وطاه عظيم اما عن المطر فلست ادري فالمطر من امور الرجال » فيشعر الاخ الكبير بدبابيس تنخز بشرته فيقوم ويترك المائدة ويخرج الى الحديقة ، حيث التوتة ، حيـث حشرونا يوم جنازتـه بتلك التـي لم أر شيئا منها وقد سمعـت الكثير عنهـا ...

لم يكن بوسـع الانسان ان يتخيل أهــول مما شـيع فيـه اخي الى المقبرة لقد وضع النعش على اكتاف الندامى والمناضلين ووضعت الجثة داخل كفن مطروز بأيدي الاخوات ولم يتوقف المطر في ذلك اليوم بل راح يسقط مــدرارا (ليس هناك أية علاقـة بعام الطوفان وواقعة التوتة) فازدحمت الشوارع بالحشد والخلق ، واغلق التجار بما فيهم اليهود حوانيتهم ، وقرب الماء تهوي على الحرير المطروز وعلى جثة الفقيد والنسوة يجلسن الى النوافذ وهي نصف مفتوحة يشرقن الدمعة والنظرة في آن واحد ، كأن الوحل يلطخ الجو نفسه ببؤس الموت الذي لا يراعي حتى المناضلين والسكارى . كان ذلك اخر الصيف وبعد الجنازة بثلاثة ايام ، ذهبنا الى المقبرة ، لـم نفهـم أي شــيء لا انا ولا مهدي ولا سعيـدة . لم نطرح أي

سؤال · كنت اعلم ان اخي ذهب الى ما لا عودة لكنني لم اربط ابدا هذا الشعور بصورة القبر وكانت امي تبكي وتفتت الخبز على الضريح وتصب الماء من زجاجة لعلها حملت في السابق نبيذا او كحولا · وعندما يحدثني عم الطاهر عن جنازة بوعلي ، اتذكر ذلك اليوم الذي حجزونا فيه تحت شجرة التوت ولكن كيف مات ؟ هذا ما لا اعلم ! مات قبل الزلزال الهائل اي قبل اليوم التاسع من شهر سبتمبر ١٩٥٤ لماذا لا افهم ؟ ألم تندلع الثورة في اواخر العام نفسه في اواخر ١٩٥٤ ؟ اذن لم يمت فدائيا · توفي في الخامس من سبتمبر ١٩٥٤ · هل قتله اشقرار المعدة ! وقتلته رصاصة ؟ يبقى المشكل مبهما ، لعله تشاجر مع ضابط ، فقتله ثم اصيب بدوره برصاصة شرطي طارده عبر شوارع المدينة الفارغة اما ابي فلا يقول أية كلمة حول هذا الموضوع ولا حول الزلزال ولا حول عام الطوفان · هل سبق الطوفان الزلزال ، أم العكس ؟ وعام الجراد ؟ واعوام المجاعة ··· لست ادري ··· هل من معين ؟ عم الطاهر كل هذه الاحداث تمتزج وتتشابك بعضها ببعض في ذهني فكيف الوصول الى الحقيقة ··· استمر هطول الامطار في لب الصيف فيما كان حميد يرمم المنزل ويسرح الميزاب ، اما ابي فكنكن طوال المدة التي دام فيها تهاطل السيلان وتدفقه · وحميد أصبح وصوليا ، زمن الزخارف ، يا زمان ! وهل سيبقى موته غامضا الى الابد ؟ زمن الزخارف عم الطاهر واليانصيب والرهان الرياضي وارباب ورشات الرصاصة · الوصولية قتلتنا ، يا عم الطاهر ، وقتلتنا البهرجة ، فحاول ان يرهبني قلت : وفرج امرأتك (وامرأته حمالة الحطب) ، يا مدرس القرآن ، كيف تحزبت ؟ لم يكن بوسعك ان تتخيل اليوم جنازة اخي ، زمن البهرجة ، عم الطاهر ، وانت تحلب وتذهب البقرة ضحية البيروقراطية واللامبالاة والتضخم المالي والتضخم السكني ولقد تفتقت المدينة وخرجت احشاء الميناء واقتحمت الطرقات حتى البحر نفسه فقد بصيرته والنورس يترنم لموسيقى السكاكين ، لقد هددني حميد ، قائلا : « لا بد من ذبحك ، انت عاهر ؟ الناس ··· » نسي

عام المطر الناعم وقد دام المطر اربعة اشهر من بداية الصيف الى بداية الخريف وكان حميد متفوقا في الاعمال اليدوية وانت كيف أتيت ؟ تقرأ الكتب العتيقة التي تهترىء منها الرئتان والارض تدور حول اعضائك الهزيلة ولا تتوقف عن الكتابة ... واقعة التوتة ليست خرافة ... ولا جنازة اخي خرافة ... اما الزلزال ، فأنت اعلم . اين كنت ؟ فأنت اعلم . اين كنت ؟ في سبخات الملح ، في مستنقعات العشب في فيافي الحلفاء ، في صحاري الصخور ، في شعفة العرين ... اين تحزبت بعد هروبك من جمعية العلماء ؟ زلزال ١٩٥٤ كان ينذر بشيء مأسوف يحصل ، لا تطير في كلامي هذا ، فالسياسة ، ايضا حدس . وقفت على باب كتاب ، ثم اخذت تطرح الاسئلة الواحد تلو الآخر وجوعك يدور حولك كما يدور جوعهم حول بطون اولادهم المنتفخة ، قلت لهم الحقيقة ، أردت ارضا خصبة لكل فلاح يخدم من طلوع الشمس الى غروبها ، يعمل بين غسق وشفق ، لكن ؟ ما زالت قهقهتهم تتابعك في ليلك وفي ديجورك ، وانت تعيش بينهم وتحاول ان يكون الدهر اقل خشونة واقل جفاء ورغم احتكاكك بجراب الفقر ، اصبت بالدهشة وقد رأيت بعينيك بأن الهواء يدخل اكواخهم حاملا في تضاعيفه مذاقا سمجا اشبه بمذاق نهاية العالم ، ثم أتى عام الطوفان لقد ظنوا ان العالم اوشك على النهاية وفات عام الرخو واتى عام الزلزال الجاف وقالوا الكلام نفسه وقالوا هذا والعرق الغزير يتصبب من اجسادهم ، تقضي الساعات وتحدثهم اثناءها وتعمل معهم وتبقى مشدوها على كل حال فمقياسهم الوحيد انما هو العرق الذي ينزلق من آنية الى اخرى ليحدد لهم وجهة الزمن والفضاء ثم اتى عام الجراد ، ثم عام داء الحفر ثم عام المجاعة ثم عام الانخراط الاجباري في الجيش الاجنبي ثم جاء من جديد عام الجراد حيث راح الوطواط ينقض ارجالا أرجالا ولا تترك حتى قنبع الشعير او الحنطة ، ثم كان عام الجفاف .

كان الطاهر الغمري عاجزا عن اسكاتها وهي تتكلم وتتذكر

وكان هو يشعر بأنها تبدد ذكرياتها هكذا رغم تكاثرها وازدحامها على زجاج الذاكرة كخفاش الليل يضرب بجناحيه بلور الصباح ويتهرأ ثم يحترق ، وهي ايضا تمشي على ذكرياتها بعد زراعتها على الارض جذاذا رقيقا . مسكينة سالمة ! بنيتي ! هكذا تهدرين طوال الليل وترجعين الى بيتك في ساعة متأخرة من الليل تفسحين للجيران ان يثرثروا وان يشتمك حميد فيقول : عاهرة ! ولطيف ، ماذا كان يقول ؟ كان يسكت لطيف ، كان يداعب القط الاسود ، كان يسمع موسيقى القرون الوسطى ، ويبكي عندما يموت احد المرضى لقد نصحك بأن لا تناقشي حميد وذات ليلة وقد كان حميد يهددك ، يخرج لطيف من حجرته ويقول له بصوت خافت حاد لا يخلو من الصرامة « هذه ليست دارك ، المطلوب ان لا تعد تزورنا ... سالمة بلغت سن الرشد من سنوات انصرف الى امورك ، واتركنا لحالنا ».

ينظر اليه ، يحدق فيه ولا يصدق ويجد نفسه محاصرا ... فلا يجد بدا من الانصراف . تقص وهو يسمع وعندما كانت تغادر العرين القصديري كان يكتب بقلم القصب فيما كانت المدينة قد خمدت منذ ساعات فيزحف اذاك الصمت على جسمه فيأكل قلبه ورئتيه ولكن لا بد له من الكتابة ... يدوزن أثاثه ، ينجر قلمه ، يفتح علبة الصمغ ، يحركه بشوكة صغيرة ، يبدأ كتابته ، يسرع ، يخاف من ان تستيقظ الدجاجة وهي على قضيبها المألوف نائمة ، يا لرهبة الصمت ويا لصريف القلم وهو يخدش الورق فيخيل اليه وكأنه يكتب بريشة حديدية على وردتيه الذابلتين ، لا حدود لها ولا اطرافا ، اما صريف القلم فهو اجمل موسيقى يعرفها ، والكتابة سياج مطاطي يلولب العزلة ويقولبها حسب الوتيرة التي يختارها لقد ذهبت سالمة وبقي هو وحده مع دفاتره وطلاسمه وعربساته ، يكتب عن المطر وعن التوتة وعن حميد وعن لطيف وعن جنازة الاخ الاكبر واختبال الاب وطيبة الام وجنون عمتي فاطمة ولا ينسى حتى السلحفاة والقط مسعود .

ـ انت خائف ؟

- طبعا الخوف نوع من الشجاعة والانسان حرب مدنية ٠
- اين قرأت هذا ؟
- ليس هذا في القرآن ، صدقيني ٠
- هل انت خائـف ؟
- لا تجرئين على الحديث معي مثلما يفعل الناس عادة مع المرضى ٠٠٠
- مرضى السل ؟
- لا مرضى الخوف ٠
- انك تحقد علي ٠
- هذا صحيح ٠ أنام ٠٠٠ أنام ٠٠٠
- لماذا لا تذهب الى المستشفى ؟
- تريدين قتلي واقصائي ٠٠٠
- لا ! أبدا ٠٠ أريد قتلك انت !
- والكتابة ؟
- يمكن تركها مدة محدودة من الزمن ٠
- مستحيل ٠
- لم اقل شيئا ٠
- والمرستان ؟
- لم اقل شيئا ٠

وفي تلك الفترة المطرية كانت أشنات الزعفران وأواني الملح تسيل والطناجر تتبعج ومراكن الزهور تتحرز والاشجار تتلوع والقط يفقد ظله والسلحفاة تتحرز واسطوانات لطيف تتموج ونشاط حميد لا يتوقف والبستان يبلل تيله وعمتي فاطمة يتساقط فكها واسنان ابي المستعارة تورق في كأس مائها الليلي والهراء يتخلل ، والمطر يبثر واخي الاكبر لا يفارق مظلته المطرية وانا لا اترك الشجرة ، كانت دوامة الايام تدور بسرعة مدهشة. لقد فقدت الاشياء قشرتها وترك الناس عوائدهم اليومية ولم يعد يتذكر احد مذاق الشمس التي لم

تعد تصدع صدوعها المألوف وابيضـت البشرات ثم اصفرت ثـم اكفهرت الوجوه وظهرت التجاعيد المبتسرة على جبين الاجنة وتهرأ قماش اخواتي في ورشة الخياطة وانا على الشجرة اشرب ماء المطر واتبلل بل رغم مظلة اخي الاكبر ورغم معطفه وحنانه ورغم حرصه على صحتي ، لقد ظن الناس انه جاء الطوفان ثم انه الطاعون وقد ظهر على وجوههم دمل صديدية وكنت انا اضحك وآكل من ورق التوت بأسنان تضرس من الحموضة وكـل افراد العائلة يعيشون تحت الحنابل والاغطية الصوفية وفؤاد لا يترك الفراش بل يموج في جو من الغبطة والغيبوبة وخبزه في جيب سرواله ، يفتته ولا يأكل غيره وعمتي فاطمة بحصار شديـد الزرقـة ، فورم وجهـه مـن تحالـف الرطوبة والخبز وهي الوحيدة - تضج وتصفر كقاطرة قديمة تتسلق جبلا ، تجري وراء حميد ، تكتسي نشارة الخشب وجذاذ الزجاج ورعام الحديد وطليان المعادن وشظايا القصدير تعاني كثيرا من مطـاردة الطيور المبلولة التي كانت تقرع نوافذ الدار وكأنها تستنشق صلابة العجوز ، ثم تتحيل معها وينتهي بها الامر الى الدخول وسط الفناء فتتسلل هناك الى الرف حيث تموت تحت الاسرة ووراء الاثاث وتحت الفرن حيث يخبز الطابون ، فلا تعرف كيف تتصرف وحميد يرمـم الدار ويشحم الدواليب ويطلي بوابة الحديقة ويترك اثارا لا شـك فيها ، والطيور تقرع بلور الشبابيك وتكسرها وتتساقط في اغدرة من الدم تاركة خطوطا مخضبة لا ريب فيها ، والعجوز تعاني من كنس الاوساخ التي يتركها حميد ومن جثث الطيور الميتة ، وامي لا تخرج من حجرتها بل تبقى مستلقية على سرير وحدتها وابي يقول ويكرر ان المطر سوف يتوقف يوما ما لا محالة ، وانا فوق الشجرة استغل الفرصة واغتنم هذا الحظ النازل من السماء واتدفأ بدفء اخي لقد اعتزلت به متجاهلة تمام الجهل وجود سيدنا نوح وقد افهمني مطولا ان كل هذه الاشياء لا معنى لها وانها خرافات مثل تلك التي تقصها عليه امي عندما يقحم الخمر فيه نشوة تكحت حسه الرهيف وهو يتعاطى شرب الكحول مع الانذال ولقد كان يحبهم ويعطف عليهم

فينظر الى صبوهم ويتمتم : نحن ايتام هذا العهد فأين الجذور ••• من انتم يا ايتام ••• كلنا نحمل اسماء مستعارة وكانوا يطأطئون رؤوسهم استحياء وخجلا ، يفرطون في احترامه وتبجيله ويسمونه بالفقيه لانه تحصل على شهادة البكالوريا وسجل اسمه في كلية الطب وهم لا يعرفون حرفا ولا يهجون كلمة وان كانوا يحفظون اشعارا وملحمات وخرافات جنونية ، وهكذا يقبع ابي في الدار ، مباركا مخزنه ، مهملا اعماله ويروح يجول في البيت • انه يبغض القط الذي فقد لونه فيفرقع بكل عظامه ويمسك الى تلابيب الوحدة والعزلة وزوجته لا تتركه يدخل حجرتها فيمسها او يضاجعها ظنا منها ان هذا الصيف المهطال انما هو اشارة وعلامة تحمل غضب الاله بين تلافيف السماء وفي طياته ، وعمتي فاطمة لا تبالي بهذه الامور الدينية ، تعاتب الله على هديره وضجيجه وتهدد الغيم بقبضة يدها ، وأمي في قعر الغرفة ترتق الثوب وتستغفر وتغذي السلحفاة بورق الخس وتقول ان الخلق احقن الهرطقة والشذوذ وأفرط في اللغط واللغو والكفر والزندقة وهي على سجادتها لا تترك زوجها يقترب منها وتنذر كل ما يقوم به بعواقب وخيمة وتخاف ان يغتصبها ، اما لطيف فيشغل آلة الاسطوانات فتعم الموسيقى المنزل كله ويصبح المطر عبارة عن صدى المتواليات الموسيقية المعزوفة على القانون او البيان ، تصعد الموسيقى فتمحو كل الروائح من خشب نخر وطعام متدعص وبيض مذر وبزاق متفسخ وطيور جوة وجثث متحللة وجو متعطن ورطوبة فاسخة وغنغرينا نتنة ومجاري منقعة وأواني قلحة وحشرات دسمة •

(دكان ابي • فسيح • فارغ الزوال في قمة اوجه • يتركه ابي ويعود الى المنزل في قيلولة هائلة • رائحة القرفة فواحة دائما ، والطحين والزيت الزيتون ايضا ، اعوضه مدة العطلة الصيفية بضع ساعات في اليوم . لا يفعل شيئا ويتراكم العدم والغبار يتراكم في الدكان وفي الدكان دفاتر المحاسبة وليست الا فواتير متراكمة، ورائحة

الحبر والكتان والخشب والزخرفة • الأحد الـه المستعمرين يستريح من عبء الدهر • أترقب امرأة • انه شبق احمر • اعضاؤه صقعة • قيظه رهيب . الاشياء تسير ببطء • أنثى • تدخل الدكان • لا تخجل من مراهق أمرد • تطمئن له وتثق فيه • تخال الحانوت ملجأ • تزيل الحجاب من على وجهها • انا في سن المراهقة • ما كنت قد بدأت شرب الخمر بعد • كنت أتجسس ذكري من خلال جيبي • وتثرثر الانثى • يزرورق الشبق الاحمر شهوة • كنت اتفاعل البلاهة . وتثرثر • يرتعش نهداها تحت كتان رهيف وشفاف • احاول الاحتفاظ بعبقها • أتركها تبيع وتشتري وتساوم ولا اتكلم • أنظر • أتجسس من خلال جيبي • ووجود الانثى عبارة عن حلم هش ومتزعزع يقف على حافة الجفون المحترقة وتراكم الكوابيس الملتوية • ارض جافة • قحط • لا وهم ولا شيء ولا مذاق لفتور ما • تتدلى الشهوة من الاعين تلفحها وتكحتها • يتعب الجسم وتثرثر الانثى • لا تخشى مراهقا أمرد • يتفجر الفراغ في الدماغ • جرس يرن : الهاتف • صدر الانثى ينتفخ غيظا او حرارة • عزلة تامة • تدليه • أمه • الجدار ابيض . نصنع حركات واشارات وكلمات في الفراغ • بشرتها حريرية • عانة معشوشبة • حلم الحيض وخوفه يطلياني • أفيق مبكرا • اهرع الى السوق • أمر على بائع الفطائر التونسي • اغتنم الفرصة ، في الشتاء ، وأدفىء يدي فوق المقلاة الضخمة المملوءة زيتا حاميا • يرمي العجين من انامله بحركة متناقلة لا تخلو من بعض الرشاقة • اقرع الرأس تبقعه السعفة • كمون • أمور مخيفة صراحة وخفية في آن واحد • بائع الفطائر يحاول لمس خدي • اتقزز • أبصق في اناء الزيت الحامي • يفهم • لا يلح • مساعدة يحمش النار • تتأجج • يحتسي جرعة شاي • يضرب بالسافود العجين المقلي • هزال ؟ محض صدفة • كتيت الزيت • خرشفة النخالة في الفرن • أقحم في فمي اصبعين ••• اتقزز • أنفر ••• أتقيأ . يحترق انفي سعال الصباح • يغطون القيء بالرماد • الانثى تثرثر • نهداها يتورمان • شبق احمر يتصاعد الغثيان عمودي

الفقري . تتفجر مرارتي في فمي . أبكي ... كماشة القلق الاخضر.
شجر ينبت في نخاعي ... أبكي والشبق يأكل لحمي ... تقترب
الانثى مني. مذاق الزيت المحترق . زهور الدم تتفتح في ماء . تعري
نهديها . تأمرني بغلق الدكان . لا تخف ! شيء لذيذ . أريد زبك .
اخرجه ، تأخذه بين يديها ... ميت . منفش . لا قدرة له ! لا تخف ،
سوف ترى تدلكه ذهابا ايابا . تأخذ بيدي العمياء وتولجها بين
افخاذها . علق الفرج وماؤه وعشبه وشعره . الغثيان . رائحة
الشحمة . زخامة البطن السمين . ميت . أتذكر خرق الحيض تخفينها
وراء باب الحمام ، في سلة خاصة . صمت رهيب . تدلك . انامل
الصقيع تمعج الهواء . شرس الاصابع . فوضاء بين فخذيها . البظر
كجعبة الحنفية . صمت رهيب . يخالجني هوس الصنابير المتقاطرة
في حوض الغسيل تدلك ينتفخ نفخها (أنفخي ! عمتي فاطمة
تنسفه) تمص . تدلك . ذهابا ايابا . لست رجلا ... مالك ؟ لا
تخف ! شيء لذيذ . خرق الحيض ورائحته . بائع الفطائر ، فتور
دسم لزق زخم . أأتقيأ ؟ تطلق ماءها . تتنهد . تضحك . سأعلمك.
اقول لماذا لا تقبلني مثلما تفعل البطلات في افلام قاعة « دنيزاد »
والازلام يصفرون ويضربون الارض ؟ ذهابا وايابا . يا خسارة !
ترفع جلبابها على صدرها . أغلق باب الدكان . انذار بمجيء أبي .
تطلق ماء خاثرا . تمص تمتص . ومن خلف الزجاج المطلي بالعتمة ،
أنظر الى المارة يتقلصون . خداع الحواس . اين الثقبة ؟ اين الثلم.
تزعم عدة اخرام وتقهقه . أرملة فقدت زوجها منذ عام . عيل
صبرها ، ولم تبلغ الخامسة عشر عاما . شيخ هرم . انا عذراء !
عذراء ! عيل صبري ... تطلق ماءها . أستنشق أصابعي . أبي
سيأتي . تدلك . ذهابا وايابا . تحترقها الحمى . تستلقي على
الارض . تفتح فخذيها . تتوسل وتغضب وتنهر : دم ام ماء في
شرايينك ؟ لا تخف ! تقودني . لكنه ميت ، فارغ كشكوة المجاعة
وفرجها يكتسح الفضاء كله . أتقيأ عليه . تغسله بقيئي . تدخل
اصبعها بين طيات الابدية تلعق اصابعها . لست رجلا ! وخرق الطمث.

وراء باب الحمام • اعرف السلة ورائحتها • تنهض • تلتحف • تضع قناعها على وجهها • لست رجلا . أين زبك ؟ تركته في مقلمتك المدرسية تضحك ، تبكي ، تنتفـخ غيظا ، تموت حزنا وعارا • ألست رجلا ! تصرف ، سأسكر هـذه الليلة • اعرف أين أذهب !! العم عمار عنده خمر • يريد ان انادمه • رفضت • لكن هذه الليلة أسكر •••)

من يوميات اخي الاكبر ، مكتوبة بالحبر الاحمر ، ممزوجة بالدموع.

- كانت بداية المصيبـة •
- قصي علي بنيتي ، لا تخافي •

هكذا تعلم شرب الخمر شهور بعد توقف المطر • كان عـام المطر • سنة واقعة التوتة • مات ولا زالت النسوة يحملن لوزنتهـن الطرية النيولونية في سراويلهن • تعلم شرب الخمر واعتنى بالتناقض الباطني • عشق استاذة الفلسفة . فسقطت في حباله • تركها وقال الكأس أيسر ••• أين أنا وكأسي تدور ، رفاقي ••• ندمائي ••• تعذبت من لوعة الصبابة • تقرأ له كتب افلاطون وابن رشـد ، تتبخر ، تذبل ، تموت ، يصارحها ، الكأس أيسر ••• أين كأسي ؟ أصدقائي معي كل ليلة ••• نشرب في كأس واحد والاسطوانـات تطحن الشجن وحبوبه المتفرقعة جذاذا جذاذا في قلبي .•• لا احبك استاذتي العزيزة • لكنني أحب المجادلة والمداحضة والازلام مـن حولي • كانت اجنبية ، هفهافة الجسم ، طويلة القامة ، خافتـة الصوت ، تزوره في دارنا ، يغار منها القط مسعود ، تصعد معه الى سطح الدار ومعها آلة التصوير • يقص عليها تاريخ المدينة وعـام المطر وواقعة التوتة •• كانت بداية المصيبة • كان يعرفها جيدا ، يرتعش السطح ويموج كلما مرت حافلة الترامواي الكهربائية ،

يومض الزجاج ٠ دخان بائع المرقاز يتصاعد اليهما ٠ يحكي لها تاريخ المدينة ، ثم تاريخ البلاد ٠ كانت اجنبية ٠ اتهمتها عمتي فاطمة بأنها يهودية ، منذ يومها الاول ٠ تقرأ كتب الفلسفة والادب الطلائعي ويصف لها المدينة : اوضاع الباعة في الهواء الطلق ٠ سلع مكومة بمهارة او لا مبالاة ٠ عفونة البوالات المتميعة تسيل على الجدران الخزفية بانعراجاتها القشدية المتثلمة المخضرة بكلأ الفقراء والسكارى والمتعربدين والازلام والانذال (اصحابه) ٠ مسجد كمنمنمة طفولية يسكنها العنكبوت ومؤذن خجول لا يجرؤ على الاجهار بصوته النحاسي ٠ الصلوات ٠ الله اكبر . قباب واقبية لا حصر لها ولا نهاية ولا حدود ، سرمدية الافق ٠ اجهزة وهياكل لوابس وأدلة المقام الوتري ٠ نغمات الباعة ٠ وتريات الشحاذين ٠ غرابيل الشمس ومصافيها ومناخلها ٠ سطوح نيلية ٠ سطوح صلصالية ٠ سطوح بيضاء ٠ ثم يترك استاذة الفلسفة يهرع وينزلق على الدرج المقوقع ويفتح البوابة ويتركها على صريفها تئن ٠ اغلقها انا ٠ تنصرف العاشقة ٠ تفهم ان وقت الخمر قد أتى ٠ تسأله امي : اين انت ذاهب ؟ اقضي صلواتي ! يقهقه ٠ تستغفر امي ، تستعيذ بالله ٠٠. سطوح شخماء ٠٠٠ سطوح نيلية ٠٠٠ حفيف الشارع ٠ لليفات ٠ أزيز ٠٠٠ أززز ٠٠٠. أززز ٠٠٠ طنين الذباب (اين قاضينا ؟ في بصرته ، طبعا يا ولد !٠ اضربي خمسة سالمة ! القستنائي ٠ خريف ؟ شتاء ؟ ضيف مهطال ولم يكن المطر مدة اربعة اشهر ٠ ماتت طيور كثيرة وانهمرت اكواخ اكثر ٠ من يعلم أي يوم بالضبط وقع زلزال سنة ١٩٥٤ في الساعة الواحدة و ١٢ دقيقة صباحا ؟ دكاكين مبهرجة يحمل البعض منها حدادا واضحا (حداد من ؟) الحشد والمارة ٠ تظهر الحركة من اعلى السطح غريبة وهزلية ٠ الباعة المتسللون يتجنبون دوريات الشرطة ويبيعون سلعا مهربة من الحدود الصحراوية ٠ حائك أبيض يثقب من حين الى اخر الكتلة البشرية وهي تفتقر الى شكل صارم ٠ الالوان تحفر البلاط وتنخره ٠ تشققات خفيفة تصدع الاصوات ويصل الشارع الى سطح الدار نتفا ، نتفا٠

قيلولة ثم غيبوبة بالتناوب ، مرة ، مرة ، تعب · يصف لها المدينة وهيكلها وجهازها الفقري وبنيتها المتراصة . تعب · دوار يلف برأسه · انفعال من ولع بالسرقة ، كأنه يسرق المدينة ويبوح بأسرارها · تبقى أجنبيته على كل حال ، وعمتي فاطمة تغار منها : « اكبرت وعدت تجيب بالنساء للدار ! اولاد القحبة ··· انت كذلك ، تتزبب قبل ما تتعنب ··· يهودية ! يهودية ! لا تحاول مغالطتي ··· أين السلحفاة ؟ أين فؤاد ؟ تتركه لحاله كأنه يفشي بأشياء يجب كتمانها · قباب وأقبية والبحر وراء السطح يطوق ضلوعه · ايماءات ، لا اكثر · تنويهات ، فقط ، بل المدينة شرنقة فضائية بحرا ومارة والرطوبة ايضا دائما ودوما · الجو شفاف وحساس والزمن يفلت بين الاصابع وهل هنالك شيء اكثر حزنا من اعقاب النهار المتلاشي وهو يلقن المدينة لاستاذة الفلسفة من وراء النافذة· لا شيء · قد تركا السطح الان وما زال الليل يمطر خيوطه الباذنجانية ، تلفح خدوده وكأن لحيته الطرية المزغبة بسن اخر المراهقة تبدو اقل ظلافة ، ثم يندفع صبر الحانة حيث الازلام .

الصورة البنية قد فقدت لونها ولم يبق لعم الطاهر شيء سواها وقد دارت البلاد ألف مرة ونيف على محورها وسينسانها وهذه المدينة التي لم يسكنها الا منذ فترة قصيرة ، قد فتحت على مصراعيها مائة مرة وبقرت صباحا ومساء فتشققت مبانيها وتصدعت محلاتها وبقيت القضبان الحديدية ثابتة من حواليها واعوجت الاشجار النحيفة بصفة خارقة وكانت الارض قد تفككت وتلاشت تربتها ونهش الجذام المواد الخام وقد فترت وغطى الزنجار الطرق وزحف عليها اكليل غريب فما عاد احد يعرف شوارعها وازقتها وسلالمها الحلزونية وجسورها · انه الان غائب مخفي بين طيات الجبال التي ابتلعته واصبح اسطورة تتحدث عنها الجرائد لقد اصبح فزاعة يخافها الاطفال قبيل النوم وذئبا تطارده الشرطة تستعين بالكلاب وقد تعودت رائحة "شاشة" الذي تركه وراءه وكأنه ··· كلام سمعته

وكتابات قرأتها واعادت قراءتها وراجعتها وحلمت بها وعاشتها داخل دهاليز الكوابيس وهو عجوز يلف عظامه في برنس بال ويجلس امام النافذة الخيالية التي رسمها بمهارة وحيلة ودهاء ومكر وانه يروي العجائب ويسمع العجائب ، ويتذكر عام الطوفان واشياء الناس عندما رجع الى طبيعته بدون ان يرى احدهم سفينة سيدنا نوح عليه السلام ولا اخر الدنيا وانعدام العالم ولا شيء اخر مما صرح به العرافون والمشائخ والائمة والعجائز (باستثناء عمتي فاطمة التي كانت ، تطارد الغيم وتسب وتشتم وتلعن) يحكي خرافات ربما عاشها امام النافذة الوهمية وقد كان يخفت صوته كما لو انه كان هنالك شباك حقيقي ومن خلفه نور يمر من خلاله فيأخذ ببصره الضئيل الشحيح ، ويتذكر ذلك العام ثم العام الذي تلاه ، عام الزلزال ثم اندلاع الكفاح المسلح ، لكنه لم يكن يستطيع تحديد ذاكرته بالشواخص القادرة على الانضباط والتفاصيل والجزئيات والاشياء الثانوية والصور الذهنية يدخله الشك والالتباس والتشويش وما كان ليعرف الا مقر اقامته انذاك · كان ينتقل من مكان الى مكان ، داخل منطقة محدودة ، لا يعرف الحنين والعاطفة ولقد تجرد منها منذ حقبة طويلة من الزمن ، يوم جاء الجنود وهدموا الدوار وقتلوا كل من فيه ، ونجا هو من الموت بسبب غيابه وتنقاله وترحاله واجتماعات اللجنة المركزية · وقد انتخب عضوا فيها منذ بضع سنوات ، وقد كان صوت سالمة يأتيه من اعماق الارض ويجلجل بين رئتيه وتوجه ذكرياته ، كأنها وان لم تفعل عمدا ، بعثرت الشواخص واللافتات ووزعتها توزيعا محكما فلا يفتأ نغم حنجرتها يراجعه يكثف الحوادث التي عاشها آنذاك ، فيزيدها وضوحا ووضحا في مخيلته على صغرها بالقدر الذي يزيدها ايغالا في احشائه والصورة - البرهان موضوعة في جيب سترته فيقتحمه !ذاك الماضي وكأن كلامها يقرب منه مرور الزمن وما كانت سالمة تقوم الا بمحاولة اخراجه من هوسه ومن عزلته ، فتعمل على اقناعه بترك كل هذه الامور جانبا ويخوض الحياة من جديد ، فتصبح له ايام كأيام الناس الذين

يذهبون الى عملهم كل صباح ويعودون الى بيوتهم في اوقات الاكل او في اوقات النوم ويلهون انفسهم في اوقات الفراغ بالتنزه والتسوح ومشاهدة الافلام ولو كانت سيئة وتجارية وبزيارة الاصدقاء والاقارب والتردد على ديارهم والاحتفال بالاعياد والمواسم حتى يستقر داخل عادات وطقوس ورزنامات ومواعيد وبرامج واعمال فتكون له اجتماعية كان قد فقدها منذ زمن طويل ، تريد له ذلك عوضا عن ان يعيش منطويا على نفسه منفصلا عن الناس ، لا يتكلم الا مع عدد من البقرات لا تعرف حتى كيف ترد عليه وهو يتفلسف ويصفن ويحاور نفسه بلا كلل ولا عياء تريد له ان « لا يبقى هكذا مغلقا على نفسه كل الابواب وكل النوافذ ، محصنا بجسمه داخل بوتقة قشر منها كل حواسها وعواطفها واحساسها وشعورها ، فلم يترك لها منفذا ولا لنفسه مخرجا ، يكوم اكداس العقد النفسية ، يشعر بمركبات النقص والذنب ازاء الذين ماتوا مهما كانت طريقة موتهم (مذبوحين ، مقاتلين ، معدومين ، مصقولة رؤوسهم ، مشنوقين ، محروقين الخ) لكنها لا تفلح ، فيحاول من جديد مس وترها الحساس ويطلق لها العنان لتتحدث اليه في خلوتهما فلا تبالي بتهديدات حميد ولا بالتساؤلات التي كانت تتبادر الى ذهنها كلما فكرت في لطيف وتصرفاته الغريبة . انه لم يتزوج ولا يحب امرأة وليس له عشيقة (أهو لوطي أم لا ؟ يجب أن تعرف) ولا تربطها به الا معزوفة الالف وهي تتخيله جالسا على فراشه ، يدير جوق الالف عازف ، ويقرأ عن حياة ماهلر وموته في مدينة البندقية ، والقط الاسود (مسعود) يتقاذفانه من حجرة الى حجرة . يتحدث اليها في خلوتهما ، يغلق على نفسه بخياله ووجهه وافكاره الثابتة لا يجد اين يعلقها ولا يعرف كيف يعلقها حتى عندما تقدم له سالمة عشرات المشاذب والمعلقات ، وهواجسه لا يجرؤ على اغلاقها بصفة ناجعة وتصميم صلب ، واستيهاماته لا يفيض بها بطريقة نهائية ، فيحفر لها الاحواض حتى تتسرب ويتخلص من الشمعة المغروسة في تربة الحبقة المعلقة وسط الحجرة القصديرية رغم انه يعلم منذ عهد ان سالمة

كانت على علم بزياراته الجمعيــة الى زاوية سيدي عبد الرحمان وعلمت بسرق الشمع نكلة ونكاية في الشعوذة والمشعوذين ويسترق قليلا من رائحة الانثى ، يحتفظ بها بين جلده وعظمه ، للضرورة ، فلا تفلح في محاولاتها هذه وهي ترفض ان تقيم له نصبا تذكاريا او تخدع فيه روح الغرور وعقلية الابطال القدماء الذين لم يتعـودوا الحياة اليومية بل وتمسكوا بتقاليدهم البالية ، حاملين اسلحة يدسون بها في حقائبهم والنظارات السوداء تغطي ثلثي وجههم وجوازات سفر مختلفة الجنسيات والاسماء ، قد نسوا ان الحرب قد انتهت والبلاد اصبحت مستقلة . لا ، لا تريد حثه على الغرور بنفسه وانما تريد تشجيعه على التخلص نهائيا من هذه العقد وكلما عملت على ذلك نهض هو من مكانه واخذ غلايته المحدودبة وملأها ماء ووضعها على الفرن تغلي وتغلي ، ثم يأخذ في تصنيف عملية الشاي حسب القواعد القديمة والاسس العتيقة ، لا لربح الوقت فقط بل محبة منه في تحضير الشاي بكل جدية وصرامة، رغم انه يجد في هذه العملية التي تتطلب تركيزا مكثفا ، تبريرا طبيعيا وشرعيا للتسلل مـن أخطبوط هيمنتها والحاحها ، لا سيما وقد كانت تأخذ تعاتبه لمجرد ايماءة تفهمه انه سوف ينقاد بنصائحها ، فتعاتبه : لماذا لم تأخذوا بزمام المبادرة لاشعال فتيلة حرب التحرير ؟ لماذا ! لماذا ! ينصرف ويتركها وغلاية الشاي قد نشفت من مائها وجف قاعها الـى حد التكلس ، فتبقى هكذا تستمع الى خطواتـــه يجرجرها في اتجاه المدينـــة .

لا يهتف لها هذه المرة ، لا تزوره هي هذه المرة ، بل يبقى كل واحد متشبثا بموقفه فيلومها ويصارح نفسه بأنها تخدعه ، انها تزعم اغاثتـــه للتخلص من العقد والاذناب ، ثـم تطرح السؤال الحرج فيحاول منذ البداية شرح الاسباب الموضوعية والذاتية وغيرها ، لكنها تتجاهلها كلها او تتناساها بعد بضعة ايام قلائل وتأتيه بنفس السؤال وتقول : كيف يستقيم الظل والعود معوج ...

أليست لكم بعض المسؤولية في اعوجاج العود هدايا طليعتنا يا مقدمتنا ! يحس بابر الوخز تلدغه ويتفجر حساسية وغيظا ، يتهمها باستفزازه وبمحاولة فسخه · ماذا تريد ؟ ان ينتحر ··؟ فسوف يفعل ذلك · يسكت ثم يسكت ثم يأخذ في الحديث ثانية ويستطرق « يبقى اننا كافحنا وتمردنا واخذنا السلاح ، قاتلنا ، صنعنا القنابل ، نظمنا شبكات المقاومة المسلحة في المدن ، كان من بيننا المسلمون المسيحيون اليهود الملحدون···لنا ابطال اعدم البعض منهم رميا بالرصاص وانزلوا المقصلة على رؤوس البعض اردت ام كرهت ··· اتينا بكميات هائلة من السلاح ··· نصبنا الكمائن ··· دفعنا ضريبة الدم ··· صحيح ترك البعض صفوفنا ، خانوا والخونة في كل مكان وفي كل الثورات ··· لو تعلمين ؟ في الاول كنا نخاف وشاية الفلاحين الفقراء اكثر من قوة الجيش الفرنسي وبطشه ·· ذبحنا الكلاب وبعض الائمة ··· اعدمنا بعض الفلاحين الفقراء هذه هي الثورة ··· يزني فيها ··· يخان فيها ، يذبح فيها ··· لو تعلمين ؟ كان لنا نقائص ··· لا انكر هذا ·· لكن المهم : دفعنا جزية الدم وضريبة الالتزام لا يمكن تجاهل الظروف التاريخية ، لكنه افترض ان هنالك قوانين اخرى تدخل في حساب اللعبة بصفة تزامنية (نوع من الازمة الرياضية) مثلما هو الامر فيما يتعلق بالاواني المستطرقة ، وهي تؤكد (تلك القوانين) ان مستوى المحتوى يختلف حسب تحولات بسيطة ، بل حسب سلسلة من التبديلات الداخلية والتنقلات الذرية ، مثلما هو الامر عندما يطرق معدنا ما لقولبته على الشكل المناسب فيحدث في باطنه عملية انتاج كاملة وبرمتها ، تقلب وضعية الهتافات المبدئية تقلبها رأسا على عقب وهكذا يخال له وهو يتلعثم ويتخبل ويضجر ويسخط ويكفر ويبكي (داخل جدرانه الخلفية) ان لا بد لبعض ما تقوله سالمة من معنى وصحة وقدرة ودقة ، لكنه ينقم منها ويحقد عليها لانها تفتح الجروح وتفقأ الدمامل وتفجر في ذهنه نزيفا لا يقدر عليه قدرة ولا يطيق له حاجزا ووردتاه تزيدان انذاك في الذبول فلا يجرؤ على مصارحتها في هذا الشأن خوفا

من ان تتهمه بممارسة مساومة عنيفة ضدها ، كيف يمكن اذن كتابة التاريخ والتخلص من كل هذه الشوائب ؟ يقول لها : لماذا مكثت فوق الشجرة مدة اربعة اشهر والمطر يهطل والطوفان من حولك ؟ نقول هذه رغبة منه في تغيير الموضوع وعزم منه على الرجوع الى جوهر الموضوع لقد كان هاربا ومجابها ، فارا ومقداما ، لا يعرف من كان وهي كذلك لا تعــرف ، وكل الاستطراقات مسـلك وجـداول ومنحدرات ، فأخوهـــا الكبير وموته ، واخوهـــا حميد ، وافكـاره الاقطاعية ، واخوها لطيف وشبهاته (من ناحيتها) وجنازة بوعلي طالب وورشة التلحيم وطيبة الالماني والسؤال الحكيم « كيف حال وردتيك اليوم ؟ » كل هذه التفرعات (من جهته) انما تصب كلها في بحر واد ، وتغره نفسه فيسميه التاريخ ٠



الفصل السابع

صعدنا الى الجبل ، او صعد الجبل الينا ، دارت الاشجار من حولنا مشينا ومشينا ومشنت اقدامنا وتهرأت احذيتنا ، ثم مشينا ومشينا حتى ارهقنا المشي والتسلق والزحف حتى خيل الينا من حين الى اخر اننا نمشي بجانب احذيتنا العسكرية ، أتانا الجبل ، كيف يأتيكم الجبل ؟ الجبل لا يتحرك وما شأني وشأن الجبل اذا لم يوصلني الجبل الى الثورة ؟ صعدنا الى الجبل ، او صعد الجبل الينا والاشجار من حولنا بحر يتموج ٠ وكيف يوصلك الجبل الى الثورة ؟ بل يوصلني ٠ أوصلني ٠ لقد أوصلنا ٠ حتى الاشجار اصبحت شريكاتنا في العملية راحت تدور من حولنا وكأنها مياه ونحن سمك ٠ الجبال لا تتحرك ! صعد الجبل الينا وحملنا الجبل فوق ظهورنا وجاءت الثورة بحكم ارادتنا ٠ عشقتم الثورة ؟ الثورة ليست امرأة ولا عشيقة ولا حبيبة انما الثورة دم وغوط وامعاء تفيض من بطوننا وكيلوس يسيل من مرابض العروق المتفجرة ونخاع قنوات الرفاق الملتصقة بالصخور ٠ انما الثورة دم وبراز وغائط ومياه حيضية وامخاخ هشة تزخرف الجو وهي تتطاير ودفقة من دموع وعرق ٠ انما ٠٠٠ انما ٠٠. يأتي الجبل الينا بحكم الثورة وحكم الحقد ، فتكلم الرشاش جل جلاله وأمطرت النبوءة اننا منتصرون ٠ لا ريب ٠ لا شك ٠ سحقناهم ٠ قصفناهم ٠ اكلنا أكبادهم ٠ ثرنا ٠ اصبحنا ثائرين وقد نبتت آثار الرجفة على جبهاتنا ٠ لم نترك لهم الفرصة

هذه المرة . مشينا والرشاش بين افخاذنا . توغلت فينا الحرمة . تعالوا يا اعداء الفقراء تعالوا خذوها بين افخاذنا . أي نعم ، صعد الجبل الينا كنخاع يتسلق اروقة الجسم ولم يبق منه الا الهيكل العظمي . تكلم الرشاش جل جلاله . من قالها ؟ جاءت الرجفة الاولى . وبعد اشهر جاءت الهزة الثانية . مشينا وسالت اقدامنا دما ودموعا وعرقا مالحا ـ هنا رائحة الصوف العطنة ـ تدفقت الاشياء . اعتصمنا وقلنا ان العصمة لنا وبمقتضى قرار فيه الشرارة والتحدي . حتى الاشجار اصبحت حليفاتنا . والغابة من حولنا تموج بحرا هائجا وفجأة تركتنا المجازفة ، قلنا الان لنتكلم بالرصاص ، مشينا ليلا تحت ضوء البوصلة . أية بوصلة ؟ لم نعد نعير الصدفة هما . جاء الرشاش وعوض عن رشاش اللعاب ها هي ذي خرائطي الجبلية وبوصلتي موصدة بين ضلعة وضلعة ، هذه هي خرائطي البحرية وهذا هو دليلي وكلاهما يدلني على السواحل . بوصلتي تأخذني الى حيث المغتصب الغاشم . لقد اصبح أنفي بوصلة ومرجافا . يدلني على رائحة العدو . وخرجت الانهار من مجاريها ودارت الاشجار على جذورها ولقد عيل صبرنا بعد ان استرجفت الارض بأسا وفقرا وظلما وكراهية وفاقة ومجاعة وأوبئة وسلا وطغيانا وحرمانا . ها قد اقتحمت الابحار المدن ، فلم يعد يعرف لها منبع ولا مصب . اوصلني الجبل الى الثورة واصبحت الشعفة عريننا والغيران شرايين البلاد وعموقاتها . بعد صمغ الشدق ورشاش اللعاب ، امطرت الثورة نبوءتها . مشينا حتى اصبحنا نشعر بأن احذيتنا تمشي بجانب اقدامنا ، على حدة . اصبح الطقس والمناخ والاشجار كلها حلفاءنا . تشذرنا وتموصنا وتزججنا بأعلام الشدة . دخلنا المعركة . خضناها . دخلنا في حوضها الدافىء وحلمنا بحلمات النساء البنفسجية والرشاش قد نبت بين افخاذنا . صحنا تعالوا اعداء الفقراء خذوها منا انتزعوها ! طاردتنا الكلاب والايمة وحتى بعض الفلاحين البؤساء . فذبحنا الكلاب وبعض الايمة وبعض الفلاحين العملاء . بكيناهم ونحن نذبحهم . هو الفقر أوصد عليهم

كل ابواب الوعي ، لم يفهموا • كانت الصدمة • وضعنا الرشاش على الكلمة وقلنا كلمتنا ، التحقنا بالثورة المسلحة منذ البداية • تفاوضنا • اتفقنا تعانقنا • مفاوضات وامضاءات وتسليمات • كانوا يقاتلون في سبيل الله ونحن نقاتل في سبيل القضية • لكن الفردوس كان بعيداً • كان مجرد فكرة مبهمة،مغلقة ، غامضة ، مضببة • أما جهنم ، فكنا نعرفه • الثورة جحيم ودم ووحل ودمع وقيء وسلاح • احشاء بنفسجية تتفجر وتتلقاها الايادي المفتوحة • قالوا بقبقة في زقزقة وصحفهم تتهكم بعناوين الاستهزاء الضخمة ، شطبنا الكلام ورشاش اللعاب وبصاق الفم وسعال السل وكانت الثورة بؤرة وجهنما مفتوحة الجوف • حتى الاشجار اخذت تمشي بجانبنا • لكن الثورة كالحلقة المفرغة لا يدرى اين هي اطرافها • وتصل الينا الاخبار السرية تشير الى انتفاضات مسلحة تشمل البلاد قاطبة والسلطة تنبح زاعمة انها مسيطرة على الوضع ومـا كان النظام الاجنبي ليعترف ان البلاد في حالة حرب حتى هذا اليوم الذي اعلن فيه عن انشاء المحاكم العسكرية والاحكام العرفيـة • احسسنا بلمعان عظامنا الفسفورية وهي تنفذ من جلدنا ونحن نتحرك تحت سترة الظلمة في جو من الشرارات اللامعة تتبين فيه رائحة البارود الخفية والصوف المتعطنـة •

كانت سالمة تستمع الى السيلان المتدفق وانا اقص عليها ملحمة الماضي • كانت واجمة • ساكنة • كفت حتى عن التدخين وكانت والسيجارة قد احترقت ولم يبق منها الا مصفاتها الصفراء • لم اترك لها المجال فتجد في سردي ولو شططا واحدا فريـدا من نوعه ، فألقيت جانبا كل عنجهية وكل تمرد وكل تهجم ، وكأنها باصغائها هذا كانت تريد مساعدتي على تنسيق الاحداث من جديد وربط اجزائها بعضها ببعض (كما كان يفعل بوعلي طالب وهو يلحم قطعة الحديد المستديرة بالقطعة المستطيلة والجو من حوله تطليه زرقة النار الغازية يلفظها منقار القوس كالافعى تبث سمها في

الفضاء ٠٠٠) تسعى لربط الاحداث بسلك الذاكرة الرهيف والخصب في آن واحد ، نهرع من خلال شجر الصبار وشجر القطلب وقد صعقتها الشمس بشعاعها الطاحن ، نلهث لملاحقتنا الاشباح والاساطير المتفرقعة والمهشمة ، نتساءل عن المستقبل ونشحن اذهاننا بالتوافيق الرياضية وقوانين السلاسل الحتمية والصدف المنسوجة بقطيفة السببية • نشك في انفسنا وحتى في مشكاك العصافير وكأنها تتجسس علينا وقد فتحت بين الفجوة والفجوة كتابات موسيقية • تفجر المصير وقد اصبح يغامر فيه بتصفية الحسابات وعنجهية بعض قادة المناطق . نمل ، نضجر ، نمشي • لهم دينهم ولنا ديننا والعدو واحد • نسأم ونقلق ثم سرعان ما نبرز من عدم الشجر والزيتون والطين والثلج ونطلق الرصاص ، تقهقه رشاشاتنا • ثم يعم الصمت • يموت العدو باهتا • نهرع ثانية • نهرع ثالثة نبرول مرة اخرى • كذلك نضرب في الصميم ونزحف زحفا لا نهاية له ولا مدى له ولا أفق • ثم نعاود الكرة • نمشي ونمشي ونسلك الطرق الجبلية الرجاجة فيسترجف الجو وكأنه شبكة من حبال تفتقر الى بعض الوضوح • سالمة تصغي • تصغي سالمة ولا تقاطعني • نتسلق الصعاد على وتيرة حشرات المغافير المتبعثرة المتوزعة بيننا وبين الظل حيث ينام هؤلاء الذين يريدون ابادتنا • وهم منهمكون في قيلولة حامضة لزقة تلصق بهم الكوابيس المعشوشبة ومن حين الى اخر يعبر جفوننا نوم خفيف فنسقط في فخ المنامات المتشوكة مثل حبات التين الهندي ، وعندما نستيقظ نجد انفسنا وسط المجازر ونتخبط في دماء الرفقاء • ننطلق فجأة ونلهث في ظل المقابر حيث ندفن من سقط منا وبين ايدينا ونطلق الرصاص ونرش العدو رشا ونترك جروحنا الحية المتفتحة تغطيها الندبات العميقة ولا يبقى لنا الا شق ضيق نملأه احتضارا ونحشوه نزعا ونعمره كربا وكرزا ، فتتحول انذاك كل الثلمات الدقيقة الى هاويات لا قعر لها جنونية المنطلق والمنطق تبرق داخل اذهاننا بوميض مستميت ، لا هدنة فيه ولا هوادة . وهكذا نزحف ونجري ونهرع

وامواتنا يتعمدون الزمن والفضاء بفضل زهرة الخشخاش يستنشقونها قبل التنهيدة الاخيرة والنهائية ، وقبل ان نردمهم تحت اكوام الجير الحي فيزيل كل الروائــح وكل الاثار وقــد هاج الصيف غليانه ٠ وتتعاقب الايام وتختلط علينا الليالي ، لا نعرف كيـف نفرق بين الشفق والشبق وبين الغسق والشبق الى حد اننا صرنا نتجاهـل الدروب اليسيرة التي امتطاها اسلافنا في غابر الازمنة وهم يحاربون الغزاة ويخسرون الحرب تلو الاخــرى فيصطدمون بواقع الخيبـة والهزيمة ويضعون ظهورهم على جدران الشبيهات والحلول الوسطى والخيانات فيتجرأ الاجنبي ويتصندد وهو لا يهدف الا الى ابــادة السلالة وسحق الاصل ، فكان علينا ان نفتح اسلاكا جديدة ونتحايل مع الواقع ومع الخرائط الجغرافية ولم يتركوا ـ الاسلاف ـ شيئـا يساعدنا على تحقيق ارادتهم وأمنيتهم فلا ثمة وراثة ولا ارث ولا هناك وصية ولا وقف ولا معنا مرهــف ولا مسير ٠ أيصيبنا اعتلال الذاكرة ؟، بلى ! الانتفاضات والعاميات مرقوشة وموشومة علـى عضلاتنا ٠ غير كافية ؟ اين مصيرنا ؟ نأخذ البوصلة ٠ نسأل من له دراية بعلم الغيب والعرافة ٠ تتصــدأ بوصلتنا ٠ نتيه في الفيافي وننسى رائحة البحر ٠ فلا نوتي سبقنا ولا قارىء نجوم نقاتل جنبا الى جنب ، هم يقاتلون من اجل الدين ونحن من اجل قضية ٠ لا فرق بيننا قط ٠ يأتي علي بو طالب لتصليح آلات الارسال والاستقبال ثم يبتلعه الليل ونسمع بعد ايام قلائل المذياع يعترف بأنه وضـع قنبلة اخرى في احد مقاهي العاصمة او ملاهيها ٠ نتعانق ٠ نهتف باسمه ٠ اضرب خمسة بو علي ! حمش النار يا بو علي ٠٠٠ لكن من حين الى اخر تنشب الحزازات والغيرات ٠ نتــركها فنقول الجهاد واجب والتاريخ سوف يحاسبنا فيما بعد ٠ وبين وقفة ووقفة نقــرأ بعض الكتب النظرية او بعض الدواوين الشعرية او بعض المجلات السياسية ويحقد علينا بعض اخواننا ويبقى الفلاح الامي يحذرنا ٠ نقول : العلم لا يكفي يقولون قلنا انه يكفي ! أتحسبونه خرقـة ؟ لا ، رمزا فقط ٠ يقولــون قلنا انه يكفــي ٠ يذربون امواسهـم

وسكاكينهم ببطء ويسترقون النظرة • تتدفق علينا نوبة من الضحك • ألا نستحق رصاصة واحدة ؟ لا يجيبوننا • نحن منكم ! صمت • سكوت • العلم لا يكفي ••• رمز لانه مجرد رمز للعبور الى مناطق اخرى • يتهموننا بالجنون والالحاد والخيانة • نقول : « بئس الاسم الفسوق بعد الايمان » • لا يفهمون • كيف الكفارة • ثم نهرع من جديد ويلحم البارود بين شراييننا نسيج الاخوة . نقول لعله اعتلال الذاكرة ؟ نرتبك يدخلنا الشك ويخال الى بعض رفاقنا ان الظل يلعب لهم ادوارا غريبة • يقول الواحد انه فقد ظله والزوال اطنب ذيله وتسري العدوى • يقول اخر ان ظله تجلد وتثلج من فرط الصقيع • ويجن اخر فيدعي ان ظله تمزق ويتركنا للبحث عن ابرة وخيط لترتيقه • قلنا له ان الظل ليس جوارب • يزيد في تعنده • نتركه عند الفلاحين المسبلين ونهرع نطارد العدو والخونة • في اول الامر ، كنا نخشى الكلاب والايمة والقياد • ذبحنا الكلاب واكلنا لحمها • ذبحنا الايمة في قعر مساجدهم وألقينا بجثتهم في الجب • ذبحنا القياد وبعثنا بأنوفهم الى عائلاتهم • استقر الوضع • الثورة مشكاة وكبة من خيوط الدم الثخنة • واذا نجا من بين ايدينا خائن ، نبعث بالاشارة الى بوعلي طالب ورفاقه • ينفذون فيه حكم الاعدام أية مدينة من المدن ، كبرى كانت ام صغرى • وبعد المعارك والمزاجر ، نختفي وراء شجيرات العرعار ونترقب زوال الروائح الكريهة ونغفو في غيبوبة زمنية وخمول آني ، ريثما تبرى ارجلنا المهشمة المشققة بتخاريمها الشرسة والعفنة تحرق البشرة وتملأ اخمص القدمين صدأ وقيحا أو ماء مشبوها فيه •

وتبقى سالمة صامدة صاغية تنصت • تسمع • لا تنبس بأتفه كلمة • ويخال الي وانا اتكلم انها تشاهد شريطا مصورا يدور في في رأسها حيث رفعت خيالة كاملة بشاشتها البيضاء وموسيقها الحجرية • نسيت تلك العادة الكريهة التي كانت تحدد بها الى البحث دوما عن شيء ما داخل حقيبتها اليدوية (علبة السجاير ، الولاعة ،

علبة النفطات ، الدبابيس ، المساسيك ، الاقراص (ضد الصداع او ضد) · وتبقى هكذا تنظر الي وانا اقرأ لها ليلياتي واقص عليها تلك الفترة الحرجة من حياتي - صور مشكوك فيها ومناظر عامة - أظن في بعض الاوقات انها مجرد هذيان · لا أصدق ، وهي لا تعارض البتة للمرة الاولى ، تتركني اتكلم ولا تقاطعني بأسئلتها الوعرة المكتظة بالحيلة وسوء النية والحيلة والازدراء ، فأستطرق · أتردد · الكلام عن سيد احمد مصيدة · اعلم انها سوف تسألني عن لون عينيه وفرقة شعره ورقمه القياسي في سباق الـ ١٥٠٠ متر حواجز · لكنني أراها هادئة · نوع من الاطمئنان · أسكينة هي ؟ كان سيد احمد معنا · يقوم بمسؤولية كاتب قائد المنطقة · لا أزال اتذكره يحمل حاجتين اثنتين لا تفارقانه ابدا : حقيبته حيث يضع الملفات والوثائق والخرائط ، وابتسامته حيث يضع رقة شعوره وخفة روحه وايمانه بالقضية · نخرق المسافات بسرعة البرق وهو أسرعنا ، عداؤنا وبطلنا ، لكن يده هشة ورقيقة تجرحها الصخور والمحيط مقفر ، لا حياة فيه ولا عشب · الصقور وحدها تعوم في جوه الصافي وهو ينظر اليها والشمس قد كحلت بشرته البيضاء (هل تسمعين ، بشرته بيضاء يا سالمة) واعطت عينيه الرماديتين (هل تسمعين ، ها أنذا اتذكر لون عينيه . اما عن فرقة شعره فلست واثقا مما قلته · على اليسار ؟ تقريبا) · غشاوة السكر والتيه والتهذيب وكأنها قماش شفاف وضاوي ومخدر) (وجود شجيرات الافنستين ؟) لكنها سرعان ما تملأها السكينة رغم التمزق والانكسار المؤلم ، لا يهتم به ولا يعيره بالا **ليلا نهـــارا** ، جاريا وراء الهموم يريد تحطيمها كما كان - سابقا - يحطم الارقام القياسية وكل سكان مدينة تلمســان وراءه يساندونه ويشجعونه ويهتفون باسمه ، وهو المتواضع ، المحتشم ، يردد لمدربه بعد كل فوز وكل انتصار ، لاهثا ، مرهقا بعد ان يعبر خط الوصول ، « انما في سبيل القضية » ··· لا لشيء ··· انما في سبيل القضية ··· ويريد سحقها ورفضها· « كلنا اخوة يا رفاق ، كلنا رفاق يا اخوة ؟ » يرفض الحزازات بيننا

وبينهم ٠ يشرح ويبتسم يرفض كل الخلافات وكل الاعمال الاستفزازية مهما كان مصدرها ، وهو بالمرصاد للعدو : الرشاش وحقيبة الوثائق والخرائط ولابتسامته المألوفة ، يهرع ويلهث ويصلح بيننا ويجري فيسبق ظله ويتركه وراءه ٠ كل هذه الايماءات الذهنية تتدفق في رأسه منذ بضعة ايام وصريف القلم يحثحث على الورقة وانا اقول ويا اسفاه لو كتبت مباشرة على اللوحة لكان الامر احسن ولكانت النتيجة اروع ٠ لكن فاتني قطار الحضارة الجديدة ، اكتب بقلم القصب وبحبر الصمغ والناس على واجهات الدكاكين آلات راقنات ولم يبق لي نصيب فحتى الكتابة العمومية تقنقنت ٠ اسعفني الحظ ببقراتي الحلوبات ٠ لكن الى متى ؟ الى متى نستورد حتى البقر وسيدي احمد كان مولعا بالاقلام الى حد العرة ، يضحك مني ويحب الفكاهة : « انهم امتطوا القمر يا مدرس وانت تفضل ركوب الجحش ؟ » يضحك . يضمني الى صدره ، وتتبلل عيناه ، « خذ قلما حبريا واترك قصبك يا رفيقي ٠٠٠ » ومن جديد احدثه عن انتصاراته الرياضية ٠ فيخجل ويقص كلامي ويقول : « تتذكر يوم اجتمعت اللجنة المركزية وتركت المنصة وانت ترأس الاجتماع ورحت تتوضأ وتصلي ركعات العصر وترجع ، وكل اعضاء اللجنة في انتظارك ؟ ألعبتها بنيناسي الطاهر ! ألعبتها بينا ! » يضحك ويضاعف الضحك في اصفاء عينيه (رماد ام خزامى ام بنفسج ؟) ثم يأخذ في كتابة التقارير وعندما ينتهي يأخذ « رأس المال » وينهمك في قراءته ، وانا اجوب من حوله في سلاسة صابونية وفي جو حليبي وتعاطف مريب ، وسالمة تبدأ حركتها وكأنها تستيقظ من نوم مغنطيسي ٠٠٠

- اذن كان رمادي العينين ؟
- على ما اظن ٠٠٠ يتغير لونهما حسب الاضاءة ٠٠٠
- متى تتبنفسجان ؟
- لست أدري بالضبط ٠

- كيف لا ؟ وانت تعرفه منذ عهد طويل وقبل ان تصعد الى الجبل ...

- من قال لك هذا ؟

- لا تنس عم الطاهر انا محافظة الخزانة العامة . اعرف القراءة بين الاسطر . والحبر السري يعرفني ! هل تعلم ، يا مدرس القرآن ، ان هنالك حبرا يسمى بالحبر السري ... لا أمزح . انني جادة كل الجد . وهو نوع من الحبر الخاص يظل بلا لون حتى يخضع لتأثير مادة يتعاطف معها يبقى مشدوها . لعله (اعني سيد احمد) كان يستعمله لكتابة التقارير ؟ لكن كيف يتغير لون عينيه بتغيير حدة الضوء ؟ أحبه عم الطاهر !

... تبدأ سالمة حركتها وكأنها تستيقظ من نوم مغنطيسي ورغم الاسئلة والاجوبة ، تبقى شاشة الخيالة مسدلة والصور تتعاقب بسرعة فائقة - صور ذهنية وصور بصرية وصور صوتية - وكأنها صادرة عن آلة عرض من طراز ١٦ ملليمتر تقنبل الذاكرة بأشكالها الغريبة والمضطربة وبألوانها السوداء والبيضاء والمائية والسبيدجية والحبارية والتدرجية والفاتحة والغامقة الخ ... وتمطر الصور مذبذبة ومخططة (عقبال الزمن وصدأ التاريخ ؟) وملولبة ومتشابكة على طريقة الدود (او البق ؟ لكن لا داعي لمجابهتها من جديد وشبح اخيها ما زال قائما بيننا ...) عندما يتكاثر ويغلي بغليان التكاثر ، وهو ما زال نصب عيني بابتسامته الخجولة وطيبته الطبيعية يقول للمقاتلين « لا العلم ليس بخرقة وانما رمز يمكن فكه وحله والبحث عما وراءه ! » كانوا يهزأون به . يقولون : « لنستقل اولا ثم نرى ... لا عجلة في الامر ... » يقول : « بلى ، يجب حل اللغز والا رحنا فيها ، رحنا فيها ! » يحدقون فيه . يوشوشون كلمة « مشوش » لكنه لا يعبأ ورشاشه بين يديه ومحفظته على ظهره وابتسامته على شفتيه . يقول : « يا من عاش

وشاف ··· » وسالمة تأخذ حقيبتها ، تبحث عن سيجارة وكعادتها لا تجد العلبة الملعونة والدجاجة تعودت الان الوقوف على المنضدة حيث اكتب واكتب واخطط ، فلا تجدها وتفرغ الحقيبة بأكملها ، تنفلت منها الاشياء ومن بينها علبة السجاير · تشعل السيجارة وتنظر الي : « كيف حال وردتيك اليوم ؟ اريد ان ادخن ··· هل تسمح·· » واسمح بطبيعة الحال والسيجارة تبخر بدخان كثيف وقد اشعلتها كعادتها قبل ان تطلب السماح (الرخصة) · وسالمة تعلم كيف مات العديد من المقاتلين ليس برصاص العدو ، بل بسكاكين الثوار انفسهم ، هم انفسهم وحتى في بعض الاحيان بأيديهم · تقول : اعلم ذلك · منهم من مات مذبوحا ومنهم من مات مخنوقا ومنهم من مات رميا بالرصاص وكلها تصفيات وحسابات · كيف نجوت انت ؟ يا معلم القرآن . لا بد انك تحمل حرزا يحميك ويقيك من جميع الاشرار ··· انها تعلم ان السيد احمد كان على حق وتتساءل : « ماذا جاؤوا يعملون في الثورة ؟ والله كل من نجا الا وشككت فيه ··· حتى انت يا عم الطاهر ··· أتوا بحسن النية وتاهوا في رواق الايام الدموية وقد جذبتهم رائحة التربة المتعطشة الى دم الاسلاف يروونها ويشبعونها بمياههم وقد اصبح الجو من حولهم عبارة عن حريق هائل يعبق برائحة الصنوبر والعشب الجاف· دخلوها من دون قصد وراحوا يدورون بها ويلفون من حولها ويعطسون في محارم تفوح زهرة القرنفل والتبغ المسحوق · ورفض البعض منهم ان يفكر في المستقبل · كانت الامور غامضة · والان ؟ تضخمت المدن وكادت تموت تحت شحمتها وسمنتها والارض المخضبة بالدماء لا تستغل كما يجب وتنبت المساجد كالفطور ويزنى في الدين وتكتظ الشوارع بالانتهازيين وتكثر الرشوة ، والاخرون يرددون – سابقا – العلم ليس خرقة ! كانواذوي نية طيبةولكن التاريخ صعب ، بنيتي وتحترق السيجارة الواحدة تلو الاخرى وسالمة في حركة دائمة لا تهدأ وتنظر الي · تحدق في ، وكأنها تلومني حقيقة لقد كان الموت افضل ! الموت افضل ، يا بنيتي · وهي كذلك باشاراتها الدؤوبة

وهيجانها المتوافر كانت وكأنها تضخ الظل وقد اكتسح الغرفة شيئا فشيئا · ويلتحق الليل بنا ويغطي جسدينا · انا من وراء المنضدة جالس على سريري وهي على كرسيها الاعرج تدخن سيجارتها تلو الاخرى وتحتسي الشاي وتبدد من حولها اشكال الاشياء وكان كل واحد منها يبتلع الاخر داخل بوتقة حادثة ومضجرة في نفس الوقت وكأنها - الاشياء - تحترق او تتبخر وتفقد هكذا ذاتها وقد تصبب بدخان السجاير التي لم تكف سالمة عن تدخينها منذ ان بدأت اتحدث عن سيد احمد وقد أتتني في يوم من الايام بقصاصة جريدة قديمة تحمل صورته وهو يبتسم ، بلباسه الرياضي ، والعرق يتصبب على جبينه (بعد انتصار) وتسألني : هل الصورة مطابقة عم الطاهر هل متشابهة للواقع ؟

لقد استشهد بوعلي طالب في شهر جويلية ١٩٥٧ وقد كان يصنع قنبلة زمنية في ورشة الالماني (لقب هكذا لطول قامته وشقرة شعره) وكثيرا ما كان يتردد على المنطقة الغربية من البلاد ، للاختفاء بعض الوقت او لتصليح الالات الكهربائية لقد اشتهر ببرودة الاعصاب وباتقانه تركيب الالات وتفكيكها مهما كان نوعها . وكان قد تعلم القراءة والكتابة على يد صديقه الالماني لكنه منذ مساء ذلك اليوم الذي طلب فيه من صاحب الورشة ان يساعده في حرفة التلحيم ، بدأ يكرس كل اوقاته للعمل والتعليم ، هو الفلاح الامي ، وقد أتى من الريف ليعمل وليرسل قليلا من المال الى ذويه اتقاء الجوع والفاقة · ثم اخذ الالماني يعلمه القراءة والكتابة خلسة ، في فندق السعادة (او وكالة السعادة ، او فندق الهناء ، او وكالة الهناء ···) ويعلمه الحساب في حمى الحجرة الضيقة القذرة على مرأى من جميع الحثالة والبطالين والموقوفين والمنفيين والكادحين والسوقة والزوافرية فيما تغطت جدران الحجرة التي يستعملها ساكنوها للنوم والغسيل والطبخ والحلم والتدخين (حشيش أو عرعار) ، قليلا قليلا بالملصقات الدعائية والخرائط السياسية

والصور البيانية وبوجه ستالين نفسه وبوجه ماو وهوشي مينه وبوجه الحاج بولحية وغيرهم من ثوريي ذلك العهد ، وبعد حصة الدرس كان الجو يتغير ويأخذ الألماني يبث دعوته مستعينا بالخرائط وبعضا من شجر الزيتون فيفسر السياسة الداخلية والمأساة الاستعمارية والاوضاع العالمية ، فلا يكتفي بحدود معرفته الشخصية بل يطلق العنان لخياله يسبح في اروقة الماضي ودهاليز الحاضر ودوامات المستقبل · والجمع الغفير يستمع له ويصغي بكل انتباه اليه فيستغل الفرصة ويستعمل كل اساليب التشويق ، اذ يترك الامور السياسية والدروس الاقتصادية والنماذج التاريخية ويفسر خياله على خوض عالم الاساطير والخرافات وما في العالم من غرائب وعجائب بسرعة فائقة ويمر الوقت وجمهور الالماني يبقى هكذا صامتا باهتا ، وقد استولت الدهشة عليه لا يسعل ولا يحك جبينه او رأسه رغم القمل والصيبان واحتراق العشاء على (كانون) الفقر ورغم دغدغة النعاس الذي راح يطغي على القفن ، ويبقى الرجال صامتين لا يبالون بشيء لا حس لهم ولا شعور وكأنهم اصبحوا تحت سيطرة جاذبية مغناطيسية يحملها صاحب ورشة اللحامة على أنامل اصابعه ، او تحت تأثير طلاسم عربسية الشكل · يرميها على وجوههم فيعميهم ، او تحت ضغط مخدر ما راحوا يستنشقونه في هذا الجو العابق الذي كان يطوقهم به ، يدس الافكار السياسية مباشرة (قراءة الجرائد ، تفسير الصراع الطبقي ، شرح استنتاجات الحرب العالمية الثانية) ويدسها بشكل غير مباشر (قصة سندباد البحار ، حكاية رأس الغول وسيدنا علي ، خرافة سيدنا موسى وهو يقطع البحر راجلا) مسترسلا في الحديث بكل هدوء وتأن وصرامة وبصوت جاهر واضح وما ان ينتهي من عرضه حتى يترك لهم الكلمة فتنقلب الحالة ويتحول الفندق الى قاعة مهرجانات شعبية وسياسية محضة ، فيخاف صاحب الوكالة (او الفندق) ويتوسل الى الحاضرين راجيا اياهم ان يخفضوا اصواتهم خشية الشرطة ومخافة العملاء وقد كان ، والكل يعلم ، كان يتعامل هو بنفسه مع مصالح المخابرات ·

كتابة التاريخ وصريف القلم على الورق وربو الدجاجة الملعونة التي يبحث لها عن اسم لئلا يخيب ظن سالمة الملحاحة هذا ما كان يشغل نهاره ولياليه وكانت سالمة قد ألحت عليه منذ ايام ان تأتيه بطبيب بعد ان لاحظت عليه تكاثر السعال وتفاقم حالته الصحية وقد تدهورت بشكل مريب ولكنه هو يصر على نفي ذلك فيزرع كل يوم وردة صفراء جديدة هشة طرية في سرة المنضدة بعد ان حرص على تغيير مائها ، ومن حين الى آخر يتذكر ان الحبقة في حاجة هي ايضا الى قليل من الماء فيرويها من غير ان يقلع الشمعة من تربتها ويحرص ايضا على تغييرها كل جمعة وذلك بعد زيارته لزاوية سيدي عبد الرحمان المكتظة بالنسوة المطلقات والعذارى المهفهفات حيث كان يسترق النظرة ويملأ قلبه برغوة الحنان وخصيتيه بمني الحرمان ومرة في غرة ، يدفع خلسة برسالة غرام لانثى كان قد ابهره جمالها فتأخذها هذه وهي أمية لا تقرأ ولا تفقه وتظنها حرزا وكلماتها طلاسم ، فتستكثر خيره وتدعو له بطول العمر ولا ينصرف الا بعد اختلاس شمعة كبيرة وغليظة وطويلة ، يتفنن حتى في اختيار لونها والمولى يتناوم بجانب الضريح ويتغافل ثم كان يعود الى قصدريته كما يسمي حجرته حيث كتب على بابها منذ ان تعرف على سالمة كلمتين فخمتين باذختين « دار الهناء » ، يستلقي على فراشه ويأخذ ذكره بين اصابعه ويبدأ بمزاولة عادته المنتظمة (مرة في الاسبوع) ذهابا وايابا حتى تتقيأ رئتاه مني اللذة وتقتحم جمجمته الكلمات المألوفة وهو على تلك الحالة : يا سيدي عبد الرحمان ، يا فقراء العالم ، يا تعاسة المعذبين هلموا فشمعتي مغروسة قربانا لمن يموتون في بحر العزلة والمذلة والجوع ، وقد اخضرت اعشابه المتأصلة عمقا المتحجرة صلابة كالنشاف المتخشب في قعر قلبه المسكين الذي تزغب بحشيش الخوف والكذب وعندها تطفو على صفيحة رأسه رائحة المتعة وصقال الروعة والفزع والغبطة والورع ، ويذوب شبقا متريلا ، والميناء لا يترك له مجالا ولا راحة بألوانه وتراكماته ونواريسه المختلفة ومصندقاته المتفتقة

احشاؤها ، وبعد اللذة كان يعود بسرعة الى التاريخ يدونه ويسجله على غرار ما عاشه هو وما مارسه من عمل سياسي وما خاضه من معارك لتحرير البلاد وما رأى من تصفيات ومعارك باطنية واغتيالات داخلية وحسابات سياسية ويشعر وهو يكتب ان كل هذه الحوادث التي يدرجها ويبوبها ويحاول ضبطها ويبحث لها عن منهجية صارمة ليست الا افرازات هذيانية وانه يكتب سجعا جنونيا فيقول محادثا نفسه ولكل صباح صبوح وأنا ابقبق في زقزقة مغلقة واذا وقعت المخاويف كثرت الاراجيف (هل انا مرجاف ؟ هل انا مرجفة تسجل هزات التاريخ ورجفاته ؟ تعقل يا رجل ... هل انت مرجاف ، لا لست مرجافا ، لست مرجافا) . ثم تأتي سالمة تزوره وهو في شبه غيبوبة وقد كان يخربش بقلمه الاسرب فيما الدجاجـــة في حجره تتماوت ربوا ودلالا ، فتلح عليه سالمة تريد منه ان يوافق ، اخي لطيف انما هو طبيب ماهر بامكانه ان يداويك ويشفيك ، كما كان يعالجك الحكيم ، انت عزيز علينا انت مسجلتنا ومكتبتنا ومر ... فيقاطعها : بلا لا . لا . ولا تعتم ان تعود فتحدثه عن صحته وتلومه عن اهماله وعن لا مبالاته بها أما هو فيتركهـا تتحدث ويكتب وهي واقفة والدجاجة في الحجرة يشرئب عنقها واذا به يرفع رأسه نحو سالمة : لم اجد لها اسما ... حرام عليك .. تعودت حضورها (وسالمة : وهل تعودت العادة السرية كذلك ؟ يا لك من غبي عم الطاهر تظن انني حمقاء الى هذا الحد ... اتتبع خطاك وادخل معك الى سيدي عبد الرحمان لابسة حائكا وتعطيني رسالاتك اللذيذة ولا تعرف لمن تمدها) ، لا اجد لها اسما ، كتابة التاريخ ! ماذا تحسبين ؟ بطولة عنتر بن شـــداد ... يا لك من عبلـة ... فالتاريخ ايضا مخرأة ... لا تتفاعلي الدهشة .. انت تعلمين ذلك ... أتريدين الحقيقة ؟ من قال ان التاريخ يصنع ؟ لا يصنع التاريخ ونحن لا نراه يتكون ... كالعشب متى ينبت ... اتريدين الحقيقة؟ التاريخ مخرأة وكل ثورة ضاجة صافرة وكل ثورة لها نصيبها من البرازية والتلوث والاوساخ والدم المسفوك مجانا ... التاريخ ؟ لا

اكتب للتاريخ ... اكتب للترويح عن نفسي والتخفيض من سعالي ووقاية اوردتي ... لا حاجة لاخيك انه اختصاصي في امراض النساء ... ماله والسل ؟ يولدهن ويشارك في جريمة التضخم السكني ... يقهقه ، يضرب رأس الدجاجة فتتوغل في حضنه ... ها هو ذا التاريخ ؟ لم أره قط ينسج كما لم أوقظ في حياتي العشب ينمو ، نترك الارض جرداء ، ملساء وفي الصباح يغطيها زغب اخضر ، كذلك التاريخ! نحن لا نراه ينمو ويمشي وبعد اعوام وقرون ، نفهم انه مر علينا بتياره الجارف ...

وتتركه سالمة وتنصرف الى امورها ولكن غضبة الطاهر الغمري ادهشتها ، انها ترى فيها خيانة . كيف لا يصنع التاريخ . الانسان يصنع تاريخه وها هو يقول العكس ... ماذا يريد بقوله هذا ؟ الام يهدف . حقا نحن لا نرى العشب وهو ينبت ولكن التاريخ قاطرة خارقة للزمن والفضاء التاريخ ، يصنع بالدم والوحل والخرى وليكن ... لكنه يصنع ، الانسان يصنعه والمجموعات والامم والشعوب تصنفه . اما بالنسبة للبقية فسالمة تؤثر الا تغرق في الحديث والجدال والصخب . تترك الامر للزمن . للتاريخ وهي على يقين من انه سيأتي يوم يقر برأيها لكنها حدست، أن الوقت يكون قد فاتها حينذاك وان عم الطاهر سيسارع بالانزلاق نحو مراعي الموت والفناء ورئتاه تذبلان يوما بعد يوم . كيف وصل الى هذا الاستنباط ؟ بعد ذبح رفقائه ، فر بروحه ولم يستقر له بال ولا عقل ولم يرتح ولو يوما واحدا . لقد فقد كل شيء منذ سنة ١٩٥٤ بعد المجازر وقد ابيدت قريته عن بكرة ابيها بما فيها زوجته وابنتاه ، فتقرمط وتزنج وتمنبئ وتشيع ، ثم صعد الى الجبل وقاتل وفي يوم من الايام فهم اللعبة ، هرب بروحه ، قاتل العدو الاجنبي بمفرده ، تعلم العزلة والحذر والعادة السرية ... سوف ينسى ما قاله حول التاريخ والثورة . انه رجل نزيه ، قادر على القيام بالنقد الذاتي . تخاف ان يستولي اخرون على مخطوطاته حيث سجل وصيته السياسية

وعندها تكون العاقبة وخيمة اذ اكون قد تحولت انا الى يتيمة من أتعس ما خلق الله والى مخلوقـــة منعزلة انعزلت عن الدنيا كـل الانعزال ولم يعد يضمني شيء حتى ظلهم هذا الرمز الذي يمثلهم ويمثل معاناتهم وكفاحاتهم وعندها تقول لنفسها : انه لـــو كان اخوها الكبير هنا لفهم موقفها وروعتها وارتباكها امام هذا المنطق الجديد ـ اهو تحد ؟ اهو فلتة زمنية سوف تزول بعد ايام ؟ـويساعدها حتما ، بصفة مدققة ، على ايضاح الدور الذي لعبه الحزب في حرب التحرير ، ولكنها تعلم هي الاخرى انه لا ينبغي ان تضخم الامور ، لا بموت اخيها ولا بغضب عم الطاهر ، حتى ولو لم تؤاتها الفرصة لتوضيح مسألة اللغة الجديدة هذه،تلك التي اصبح صديقها ينطـق بها . وبعد العمل كانت تذهب الى المستشفى ، تعبر المدينة وشهوة الذكور المتراصفين يمينا ويسارا ، محاولين قنصها وقد حسبوهـا فريسة سهلة ويسيرة ، فتستفزهم وتشتمهم وتراشقهم بالكلمات الغليظة (روحو تنيكو اماتكم ! ما كمش رجال ! عطايين ! جبناء ! مخصيين ! قضبان لا اكثر ...) تدمدم وتثور وتهز الهواء والفضاء من حولها وجسمها الممتلىء الهفهاف الشبقي يتمايل يمنة ويسرة وقد حشرته في فستان مـن الحرير ا لبنفسجي يكاد يكون شفافا ، هكذا تستفزهم وترمي بأنوثتها في خضم الشارع وتسلط الفـزع والولع على أولئك الرجال الذين يحومون في المدينة املا منهم في اصطياد جنية البحر وهم يعلمون كل العلم ان المسألة اسطورية وان حظهم في الوصول الى هذه الكائنات لضئيل كل الضآلة ، انما وخزة الحرمان هي التي تجعلهم يفقدون عقولهم ، وتزيد سالمة في النار زيتا ووقودا وهي تشق هذا الخلق من الرجال شـقا وقد كادت أعينهم تخرق قماش فستانها فيما كان صدرها يتموج ومؤخرتها تتلوى وهي لا تحسب لهم حسابا. وهكذا تمضي في طريقها الى المستشفى بغية مقابلة اخيها لطيف في اسرع ما يكون لتحدثه عن الطاهر الغمري وعن سله وربو دجاجته ومسيرته السياسية وحتمية انقـاذ جسمه وعن مخطوطاته الغالية التي لا تثمن ذلك أنها في رأيها تزيل الستـار

(او الغبار) عن زاوية مظلمة من دهاليز التاريخ الوطني واروقة الثورة التحريرية ، وعند وصولها الى المستشفى يعلن لها الممرض ان اخاها في قاعة العمليات عاكف على توليد امرأة تحمل في بطنها ثلاثة توائم وان المخاض يدوم منذ الصباح ولعله يستمر طيلة الليل.

وعندما كان يفاجئها الارق في أويقات الفجر ، وهي تذرع غرفات المنزل وهو لا ينفك متغلغلا في نومه ، يحدث لها ان تشعر بنوع من الحقد على ذلك الذي صنع ايامها وهرب في طفولة لطيفة متحديا الكلام والاعوام والخوارق بعد ان سماها بالطفشة وقد كانت انذاك بوابة العائلة لا تترك احدا يفتح الباب سواها ثم سماها بالطائشة بعد موت اخيها ، انه لم يقم في رأيها بواجبه ولم يضطلع بمسؤوليته لا ازاءها فحسب بلْ ازاء الجميع وفي عزلة تحس بثقلها يتراكم على مر السنين ويجبرها على ان تعيش على هامش الحياة وعلى هامش الامور والاشخاص فراحت تعشق ، تضاجع من تحب ثم تهرب تتقيأ في مراحيض الغيظ والوحدة ، لا تتعلق بأحد ما عدا الطاهر الغمري وهو ايضا غارق في هامشية تشبه تلك التي تعيشها هي ولقد تركها ايضا لطيف اخوها الطبيب ترتبك في امره وهي تراه يتبحر بدوره في هامشية من نوع آخر ، يربكها امره اذ انه لا يخالط احدا ولا تعرف له صديقة او عشيقة ولا صديقا ولا رفيقا وكأنه كسا نفسه بنغمة الموسيقى وأخوها لطيف هذا بامكانه ان يحدثها الساعات الطوال عن حياة ماهلر ومعزوفة الالف ، انه يجمع الاسطوانات القديمة المصنوعة من مادة الآهن ذوات ٧٨ لفة المحتوية على الاغاني العربية العتيقة من جميع الاقطار ، وغالبا ما تراه يبكي لسماع اغاني السيد درويش وأم كلثوم واسمهان والشيخ العفريت والشيخة الرميتي والخنشلي والجرموني والمصاري والحاجة حدوية والحاج العنقة وعبد الغفور وشعيشع وعبد الباسط ، وهو كلما سافر يشتري اسطوانات عتيقة بالية ويجمع اصوات المغنين من يهود قسنطينة ووهران والجزائر وتونس ومراكش ، واسطوانات

المواخير وقد أصبحت كلها مفقودة يقضي ايام العطلة في تبويبها وتنظيفها وازالة الغبار عنها والاستماع اليها ، لا يطالع الا الكتب التي تروي حياة الموسيقيين الكبار ويقرأ عن زرياب والموصلي كل ما صدر او يصدر وكأنه طوق حياته بشريط موسيقي مطاطي رخو كبطن امه حيث عاش وحيدا طيلة تسعة اشهر ، وحيدا لا شخص له ولا أنيس يتحدث اليه ، يعيش على وتيرة نبض الدم في جوف الامومة الى ان يلفظ منه في احدى الصبيحات الشتوية حيث ينهمر المطر قارعا نوافذ الدار بموسيقى شبحية سلسلية الرنة ، يا لها من لفظة رهيبة عبر النافذة تلك التي فتحتها له امه بين فخذيها وقد كان النهار كليل الضوء والصرد شديد الهول والالم رهيب الحذوة . انه يعيش في عزلته منذ ذلك اليوم الذي قذفته فيه امه ورمت به الى مناطق الحياة المجدبة ، فترعرع وفتى وتخرج لا هم له سوى الموسيقى . وسالمة ايضا تنطوي على نفسها بعد ان خيب الحب املها ، تكرر التجربة تلو الاخرى فلا تفلح ولا تقبل عنجهية الرجال ولا سيطرتهم ولا غيرتهم ولا غطرستهم ولا شرفهم وهم يحسبون انفسهم محاور العالم اسيادا واشرافا . انهم لا يفهمون كيف انها لا تخضع لهم ابدا وكيف لا تقبل ارجلهم وتذهب الى تسميتهم قضبانا رخوة ... سالمة تعيش بين مكتبها في الخزانة العامة التي تشرف عليها باحكام وضمير مهني نادر وبين دار الطاهر الغمري القصديري ومنزل ابويها . ولطيف هو الاخر مثلها وما بينهما الا الموسيقى والكتب والتاريخ والسياسة والقط الاسود (مسعود) الذي يحاول التوغل بين فخذيها وترمي به عرض الحائط وتخرجه من بيتها « لطيف ، خلصني من هذا القط الحرون الفاجر ؟ خلصني ورحمة أخي » . وتبقى صاحية تترقب صوت المفتاح في قفل الباب الخارجي ثم صريره الابدي ثم خطوات اخيها المتثاقلة بعد يوم قضاه في العمل بين افخاذ النساء ، انها تريد ان تقص عليه ما قال لها عم الطاهر ، « التاريخ لا يصنع كالنبات ينبت ولا نراه ينبت » اذن ما هو التاريخ ؟ وما هي صلاحياته . من يصنع التاريخ؟

تترقب والقـــط يحاول التسلق الى فراشـــها فتشير اليه برأس سيجارتها الملتهب وتفزعه وتفتح لنفسها في الهم والاسى شراعا اخر ، فتبحر في كتب النظريات الفلسفية والنظريات السياسيـــة والتحاليل التاريخية وقد تأخر لطيف ولم يرجع من المستشفـــى بعد وتتذكر ، وهي تتصفح الكتب وتدخن السجاير وترقب القط ، ما قاله عم الطاهر عن مهنة لطيف ، فتبتسم : هل جن الرجـل هكذا فجـأة ؟

وأثناء صبيحات السهد كانت تتساءل فيما اذا لم يكن موت اخيها مجرد انتحار مقنع في شكل عملية فدائية وذلك بضعة اعوام قبل اندلاع الحرب ؟ وحين ينال منها التعب ولم يدخل لطيف الى الدار لان التوأم الثالث يرفض الخروج من بطن امه المسكينة وهي لا تزال تفتح فخذيها منذ يومين ، متضرعة بالرسل والانبيـــاء ، متشبثة بذراعي لطيف وهو يبذل كل جهده لاعانتها وتصبيرهـا وتخفيف الالم عنها وتجنب عملية فتح البطن اذا تعنت التـوأم الثالث في الكمون بأحشاء أمــه ، فلا يريد ان تقطع صلة الرحم بينهما ، وتنطلق في الهذيان وتقول في قرارة نفسها أن اخاهـا انما ترك نفسه يموت تحت رصاص العساكر بعد ان اوغل خنجره في احد الضباط الذين تعود الشرب معهم نكلة في ابيها وانتقاما منه لانه سماها هي سالمة بالطفشة بعد ان توقفت قدرته التناسلية واضمحلت فلم يعرف أي حل يجد لهذه المأساة النفسية ، فتعقـد الرجل وراح يكرهها وكأنها قد اغلقت الباب من ورائها اذ لـم تنجب امها من بعدها قط • ولطيف لم يرجع بعد من عمله على ان الفجر قد بدأ يزجج الفضاء ويبلوره ، فتقرأ عن الجاحظ وتتذكر النص الذي كان يفسره الاستاذ ابن عاشور وقد كانت تلميذة في ثانوية المعري ، يقول : الذبابة والقاضي ويستطرد ويركز علـى هزالة حرف الذال وفخفخة حرف الضاد ، والاستاذ يقص عليهـن حياة الجاحظ ويشرح اسلوبه ويمثل مشهد القاضي البصري الوقور

والذبابة تنغز وجهه • فلا سبيل في الاسهاب واللغز سهل التفكك : فالقاضي يمثل السلطة الاستعمارية الغاشمة والذبابة الشعب الثائر على الاوضاع المهيمنة عليه ، اما الجاحظ فهو ذاك الذي وضع ما لا يقل عن ثلاثمائة وسبعين مصنفا في مختلف العلوم بدءا من علوم الحياة وانتهاء بالبرهان الرياضي على وجود الله • وهكذا كان يمهد الطريق - يقول الاستاذ ابن عاشور - للتنقيب التاريخي والفلسفي ويفتح في المعرفة ثغرة وكان يتزايد حماس الاستاذ فينسى الذبابة والقاضي البصري وقد فهم اننا ادركنا مغزى القصة السياسي ، ويشتط به الامر فيستعيد ترجمة حياة ذلك العالم الذي ولد سنة ١٦٦ هجرية وتوفي سنة ٢٥٢ منها بالكوفة ، مسحوقا هو الاخر تحت كتلة عظيمة من المخطوطات (وعم الطاهر لا يتوقف عن الكتابة طيلة الليل • لا ينام الا عند الزوال بعد الانتهاء من الكتابة والنزول الى الميناء لحلب البقرات والتنزه في الحدائق العمومية حيث الحمامات السمينة المتثاقلة التي تظهر وكأنها من خزف) . قيل انها وقعت عليه من رفوف احدى الوراقين وبغضب الاستاذ رافضا تلك النظرية وذلك الاغتراض ويصيح فينا : « لقد اغتيل لانه كان ينتمي الى الشعوبية سرا • لنغلق القوسين ». سوف نعود الى هذه الاشكالية في درس آت لا محالة - حيث تعود التردد عليه كل صباح للتزود بالكتب • وتقول سالمة وهي تتذكر عهد المدرسة وسن المراهقة ، مسترقة السمع في اتجاه البستان لعلها تسمع صرير الباب القديم فتعلم ان لطيف عاد من المستشفى ، تقول كان يعلمنا السياسة والتمثيل والنحو والصرف في آن واحد • اين انت الآن يا أستاذ ابن عاشور ؟ ويزداد خيالها جموحا بسبب الارق وحنين الماضي المدرسي ودروس الاستاذ الشيقة وتلك الفكرة الجديدة التي أتى بها صاحبها ودجاجته الموبوءة في حضنه « التاريخ لا يصنع بنيتي ! مثل العشب ينبت ولا نراه ينبت » هل يهزأ بها ؟ تقول : بدأ يدخل في منطقة الزوابع • لعله عصاب والرجل لا يأكل ولا يشرب الا الشاي (يقول لها في

يوم من الايام الودية : « هل تعرفين اسطورة الشاي ؟ » تقول :
« لا » يقول : « انصتي ··· كان يا مكان في بلاد اليابان رجل
وعد الرهبان ان لا ينام مدة اعوام ليكون في حسن ظن الربان ···
أنصتي : كان يا مكان في بلاد اليابان، لكن الرجل نام بعد عـام
من التخمام ، فغضب لخسران الرهان واراد معاقبة العينان (لا
يهمك النحو · المفيد هو السجع) فقص جفنيه ورمى بهما على
ارض البستان ··· كان يا مكان في بلاد اليابان رجل معناد ···
وبعد يومان خرج الى البستان حيث الجفنان فوجد في المكان شجيرة
شاي ··· أنصتي كان يا مكان في بلاد اليابان ··· وهكذا شرب
الناس الشاي وفقدوا المنام ··· انتهت الاسطورة ، أحضري لنا
شايا بنيتي ··· ») ولا ينام الا بضع ساعات آه لو يقبل فقط ان
يفحصه لطيف ··· انه لا يريد طبيبا غير الحكيم ، والحكيم مات
منذ قرون ودفن تحت احد عشر متـرا من التـراب · ماذا فعلـت
بدروس الاستاذ ابن عاشور ؟ تسأل نفسها وقد ارتبكت منذ ان
سمعته يقول ان التاريخ مخرأة · يا للوقاحة ؟ هل حزن ؟ هل طفت
عليه الردة ؟ لا ؟ مستحيل لقد كرس الرجل حياته لتوعية الفقراء ·
ان وراء هذه الجملة لغزا لا بد من تحليله ؟ لنعد الى الجاحظ · كيف
مات ؟ قتلته الكتـــب أم قتله اعداؤه ؟ فتستبـــد بها الشكوك
والفرضيات التي لم يكن غموضها ليغيب عنها بطبيعة الحال ،
وينتهي بها الامر الى الحمام حيث تغسل جسمها وكأنها تريد ان
تنزع عنه وحل التاريخ وقد عيل صبرها ولطيف لم يعد وهي تدمدم
تحت مـــرش الماء الحار : « متى ســتغلــق النسـوة ابواب
فروجهن ··· عم الطاهر له الحق ··· اخي يشارك في الجريمة ···
حقيقة يحب الاطفال ··· لماذا لم يتزوج ولم ينجب اولادا مثـل
حميد مثلا ··· أحدس انه ··· سوف اصارحه في الامر والقط الاسود
مبرر لكـل المصارحـات والتصـريحات والاباحـات بكـل الاسرار ،
وتغفو وهي مستلقية في حوض الحمام المملوء بالماء الحار المحرق
وتنام وتحلم بأن الجاحظ يقدم لها رقا من الحرير المخطط بـالحروف

الكوفية ، رقا مربوطا بحاشيـــة بنفسجية وهو صاحـــب العينين الناتئتين الضائعتين ، كأولئك الذين يبذرون بؤبؤ اعينهم في قراءة الصفحات الصفراء المصففة داخل المخطوطات المتبجة ، جريا وراء العلم والمعرفة وحب الاطلاع والتاريخ والفلســـفة والرياضيات ، وهو يحملق فيها وينظر الى عريها من تحت الماء   وقد ضخم ثدييها وطوق حلمتيهما بهشاشة اللامعنى .

فهمت كل شيء عـــن الاشخاص الخمسة الموجودين علـــى الصورة وعرفت عنهم الكثير . كان عملي يساعدني على جمـع الوثائق والبيانات والبراهين والمعلومات . دونت حياة كل واحـد منهم ، فتحت ملفات اربعة وملأتها بالاوراق والملاحظات والوثائق : اولا : بوعلي طالب . ثانيا : احمـــد اينال الملقب بسيد احمد . ثالثا : الدكتور كنيون الملقب بالحكيم . رابعا : محمــد بودربالة الملقب بالالماني . يبقى ملفه هو فارغا . ملف الخامس : الطاهر الغمري . كانوا كلهم اعضاء اللجنة المركزية ، كانت اهتماماتي تدور حول الثلاثي المتكون من بوعلي طالب (عامل) واحمد انيال (مثقف) والطاهر الغمري (فــلاح فقير) . مثل رائع لتحالـف الطبقات التي فهمت ان الثورة شيء حتمي وطبيعي لا يكـون الا لصالحها . لكن لماذا هذا الفشل ؟ لم اعد اتردد على دار الطاهـر الغمري انما اعطيه مهلة حتى ينتهي من نزوته الجنونية هذه . أتحدث الى لطيف . أقص عليه . أسأله : « لماذا لم يقودوا الثورة المسلحة ؟ كان ذلك شيئا ممكنا ، مر القطار وهم يترقبون بنيتهم الحسنة في قاعة الانتظار يترقبون تفجر الثورة العالمية . هل فاتتهم طبيعة الاستعمار ؟ هل سبب هذا الخلل الهائل : كان عدم وجود طبقة عاملة قوية وواعية ؟ هل كان لا بد للثورة الوطنية من مرحلة انتقالية تقودها البورجوازية الصغيرة واحزابها ؟ نحاول   ولطيف وجود الاجوبة على كل هذه الاسئلة ، حقا لقد صعدوا الـى الجبال وكونوا فيالق المقاتلين ونظموا عمليات الارهاب في المدن الكبرى ،

لكنهم لم يبادروا بالعمل المسلح ، لقد تركـــوا المبادرة لاعضاء الاحزاب الاخرى • واليوم ؟ ما هو دور الاحزاب العمالية في العالم الثالث عامة وفي العالم العربي خاصة ؟ لا نجد حلا لهذه المعضلة فيقترح لطيف ان نترك الامور على ما هي عليه وان أستشير فيها الطاهر الغمري لعل في نظريته الجديدة ما يشير الى مفهوم ثوري لم يتضح لي كما ينبغي ؟ التاريخ ليس عشبا • أعلم انه مسلخة ومذبحة وسفك دماء ، لكنني لا أوافق على قوله بأنه مذبلة ، مبولة ومخرأة ... وهل اثارة منه ؟ هل هذا من باب ردّ الفعل بعد الحديث عن اغتيال اصدقائه وعن هروبه وموت بوعلي طالب بقنبلة كان يصنعها بيده وعن موت سيد أحمد وقد أحرق حيا في ضيعة معمر ؟ لا بد ان الحقيقة تكمن هنا • وكل الاشياء الاخرى (جملته في شأن التاريخ أنه لا يصنع كالعشب ينبت ولا نراه ينبت) انما هـي مجرد رموز وألغاز مغرية تحدو بنا الى الانزلاق في شرائح الذاكـرة وثناياها وطياتها وغضوناتها ، والى دوائر المخ وتلافيفه والـى شوارد الهوس وتلاعبات الوهم ، وأنا لا استوضح بصفة جليـة نزقي وتمردي ليس فقط على الطاهر الغمري وعلى الحزب الذي لم يعرف كيف ينتهز الفرصة بعد زلزال ١٩٥٤ فحسب، بل كذلك على الوضع السائد وعلى عيشي انا كامـــرأة شيدت التحدي محـورا أساسيا لحياتها ومؤسسة حياتية برمتها • انا لا اكره الرجال • أنا حاقدة على التاريخ فقط • الرجال ، أضاجعهم ، أسقط في حبالهم من حين الى اخر ، ثم أتركهم واشكالياتهم الصبيانية • وقـــد علمتني ممارستهم أنهم يفتقرون الى أم يضاجعونها بدون شعور بالذنب ولا ارتكاب المحارم • فأنا منذ ان قاطعت الطاهر الغمري ، لم أعد أستوضح تماما كل المشاكل السياسية وأسقط في فخ لطيف وهو يمضي يقص علي حياة ماهلر وحياة المواخير كما كانت سابقا وقد كانت تعج بالحنان والحنين والاغاني المتحدية للاخلاق السائدة والمتزمتة والمنافقة والعاملة على انتهاك التقاليد المشحونة بالحرمان وعلى خرقها وتكسيرها : « الوشـــام عالسرة والضرة مرة » •

وأدخل لعبة لطيف وهو يقول : « أين وقاحتنا وصراحتنا ؟ من هو الكاتب العربي الذي يجد في نفسه الجرأة الكافية لكتابة ما كتب بشار يوم قال :

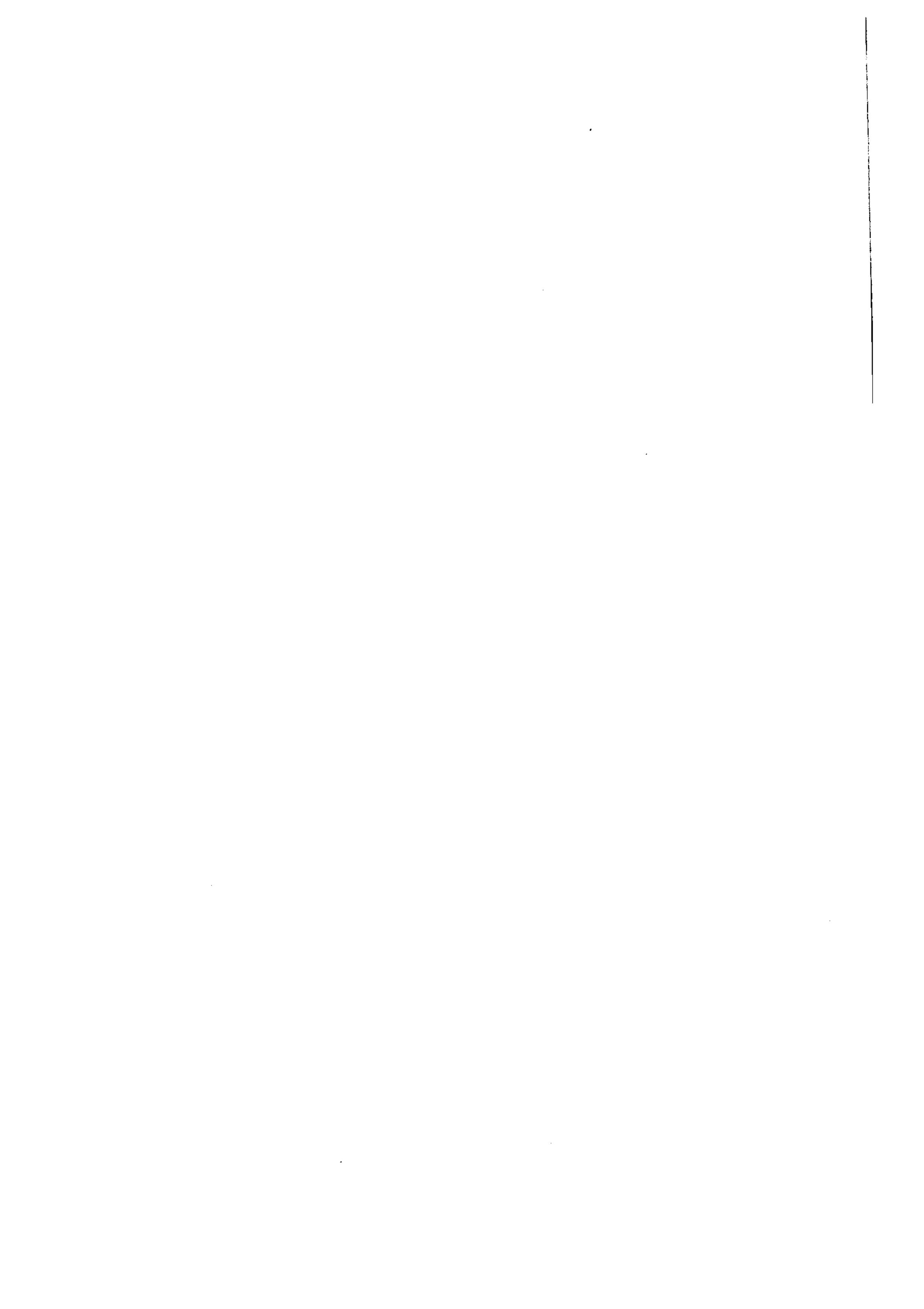
يحب النكاح ويأبى الصلاح ... كذلك النباطي لا يصلح
اذا شئت لاقيته رابضا ... على ظهره رجل يسبح
تراه يسر بنيك ابنه ... على أنه سبة تفضح
وما كان الا كأم العروس ... اذا نكحت بنتها تفرح
وذي مال وليس بذي غناء ... كزب الشيخ لا يعلوه نضج

وأستغل الفرصة وأقول : « لطيف ، أرشدني سامحك الله ، من قال هذا البيت ؟ هل هو بشار بن برد أم أبو نواس :

أنت خنثى تناك والليث فحل ... لو ما تراه خريت ما قد أكلت

ويضحك لطيف وأنا أحدق فيه · « قل لي لطيف ، صارحني : اولا ، هل أنت خنثى ؟ ثانيا هل التاريخ مخرأة ؟ » ويتوقف عن الضحك · يعانقني وأحس بدموعه تخرق قماش قميصي · فهمت· فأقول : « لماذا تبكي ؟ أخي ، أحبك أنا · لا عار في ميولاتك · هذا حق من حقوقك · ولم الخجل ؟ لا تخجل · أحبك أنا . ولكن لماذا لم تصارحني ؟·· » ويقول : « وهل أصارحك بأنني أنا مسخرة الناس ؟ حتى مساعدي في المستشفى لا يطيعونني ··· أين القط ؟ حتى القط يريد التهرب مني ، يريد الانزلاق من أيدي » · وأشد أنا على رأسه وأغرس عيني في عينيه اللتين تفيضان دموعا فيما معزوفة الالف تتصاعد وكأنها تعبر عن صخبنا وضجتنا وجنوننا· فأحدثه عن الجنس وعن السياسة وعن حبي لاخي البكر وعن حتمية مجابهة المجتمع وعن تخلفه وافكاره المسبقة وجهله وتجاهله واقص عليه بالتفصيل كيف صعد سيد أحمد الى الجبل بعد أن كان عضوا نشيطا في الحزب ينظم الخلايا في ثانويات البنات

بمدينة تلمسان ويدرس اللغات ويقفز على الحواجز في سباق الـ ١٥٠٠ متر فيتسابق السماء معه من أفق الى أفق ، وكيف أحببته ـ وقد مات منذ خمسة وعشرين عاما ـ ذلك الحب الحارق المطلي بلوعة الاستحالة وكيف استعوضت أبي المسكين بعم اسمه الطاهر الغمري ، ذاك الذي يكتب ليلياته ويروض البقر في ميناء الجزائر ، وقد أهديته دجاجة شمطاء مربوءة لم تعد تترك حجره ، انه يكتب ويكتب ويعشق صريف قلم القصب على الورق ، وذلك رغم النذور والشموع او بسببها ومن اجلها ، وذلك رغم عادته السرية ورسائله الغرامية ، أو بسببها ومن اجلها ، وكنت أبكي وأقبل لطيف واللوعة تنتش أحشائي ومعزوفة الالف هي الاخرى تغني : « الوشام عالسرة والضرة مرة » ٠



الفصل الثامن

هكذا تحصلت على أخ جديد وجاءتني مع لطيف ومع اعترافه بميوله الجنسية الخاصة ومع عم الطاهر وتلفظه بتلك الجملة التي يحدد بها معنى التاريخ ، جاءتني تلك الايام والاسابيع التي ، اذا قستها بالثواني والدقائق وتعاقبها المطرد ، كانت تومض لـي بهشاشة العالم ولوعته ، فبدأت أشعر أن الايام السابقة التهمت نصف حياتي وأضافت ألف عام وعام على قدر عمري الى حياتي ٠ لقد أصبح كل موقف تحديا وكل ساعة محنة ٠ كل يوم اصبح قرحا في الاجناب وخاتم الصراحة يشرح شفاه الجرح وكل ليلة جموحة تنداح بي نحو جدران مغلوقة كل يوم أكثر مما كانت عليه ، فينتفخ فرجي ويتضح اتساع الكون ووسعه وتغدو كل نطفة من رحمي تدور تحت خذروف الاحاسيس المحترقة ببزوغ الشمس ولهفة الشموع ٠ لم أعد اعرف لجسمي حدوده ومحيطاته واطرافه وحوافه وحواشيه ، فيمتزج الحلم بمذاق اليقظة ٠ أما المدينة فهي عبارة عن ضوضاء ترج قلبي وتزعزعه وقد كان كل صباح أغبر قارس والجرائد رخوة ٠ اكتب رسالة لعم الطاهر أخبره بالنبأ الجديد وبما ركن الى مسامعي . ثم أمزق الرسالة وألعن كل الرجال والتاريخ والسياسة والصحف القميئة ٠ لماذا أريد ان أكتب رسالة لعم الطاهر وقد اصبح النزاع بيننا هاوية ؟ هل اخبره عن لواطة لطيف ؟ اسمعه يتأوه ويدمدم : « ما شأني ولطيف ؟ قلت لك انه

اختصاصي في امراض النساء وأنا مسلول وهو يعشـق الغلمان ٠٠٠
ما شأني واياه ؟ لا أرى مانعا لذلك ، تحسبينني متزمتا لانني
درست القرآن ٠٠٠ المفيد : ماء الوجه ٠٠٠ أين أنت والتاريخ
وما ذقنا من عذاب التعاسة والتشريد والمشي على الاقدام أشهرا
واعواما ! قلت لك التاريخ لا يصنعه احد كالعشب ينبت ولا تراه
ينبت ولا كيف ينمو ٠٠٠ قالوا لا بطل غير الشعب ٠٠٠ كل ذلك
استفزاز ! دعاية ! تصفية حسابات وخوف من الموتى ٠.٠ الشعب
بلا طليعة لا شيء هذه هي الحقيقة ٠٠٠ « أكتب رسالة اخرى ٠
مطر ٠ عيناي تمطر ٠ مزيج من الغبطة واللوعة تمطر ٠ ولد لطيف
من جديد ٠ كنت في شك والان أمطر اليقين على جفوني ووابل
الصراحة في فؤادي والمطر الداخلي ينقر جدراني ويخرخر في امعائي
ويخترق قنواتها اللزقة المسكينة ٠ فيكثف زجاج عيني ويسربل
الكون بغلالة من الماس فيما الناس يذهبون في الطرقات فيتقون
التشمخ بالمظلات الشتوية والجرائد الكسلى والمعاطف الاصطناعية
واللفافات الصوفية ، يمطر في صدورهم والمطر الداخلي يجعد
خدودهم بتعريجات مرقوقة والدموع تطلي كل شيء بألوان الكهرباء
والناس يعجلون في مشيتهم ، يشكون من الضجر بعد ان ترقبوا
المطر عدة اشهر وهم ينظرون الى السماء يحلمون انها حبلى وكلما
فتحوا نوافذ النعاس يستاؤون منها وقد اصبحت عبارة عن
مصفاة لا ترحم أرق وأتفه سحابة ٠٠٠ مطر ٠ مطر ٠ داخلي
وخارجي ٠ أمزق الرسالة مرة اخرى والماء يندلق على بلور الكؤوس
كنا قد تركناها على الزربية بعد ما سكرنا أنا ولطيف طيلة الليل
وقد عزمنا على ان نحتفل بهذه العلاقة الجديدة بيننا ، والان وقد
صحوت والمطر يسكب على الحديقة أسطلا من الحبر الرمادي ،
أكتب الى عم الطاهر ويخالج ضميري بصيص من الخيانة ازاء
أخي الاكبر وكأنني وأنا أدخل في عالم لطيف وأسراره ، أنسى
معاملته هو الذي مات منذ زمن طويل ولم يترك الدود من جثته ولو
نتفة شعر ٠ أكتب : « اشتريت أخا جديدا في الاروقة الكبرى فيما

ينهمر والمطر حلزوني التهاطل وانت مخطىء يا عم الطاهر اذا حسبت ان التاريخ لا يصنعه احد وانما ينمو هكذا عفويا كالطحلب على حيطان البشرية .٠٠ » دموعي تقف حاجزا بين المعاني والحروف وتمحو كل شيء بممحاة الأسى ٠ قال لطيف البارحة ان وضعية المثقف في البلدان المتخلفة قاسية جدا ٠ ليتنا لا نعرف ولا نفهم كل الاشياء والهاوية رهيبة بيني وبين النسوة الحاملات وهن كالارانب يعدن الى المستشفى لوضع حملهن كل عام ولا يبالين بعتابي وضجري وسخطي ، بل هن فخورات بتحطيم ارقامهن القياسية كل سنة ٠ فهمت بعد محاولات كثيرة ان الصمت أنجع من العتاب والسخط ٠٠٠ أما أصعب ما في الامور اننا لا نقدر على مجاسدة هذه الازمنة الآسنة والجهل يطغى على كل الاشياء والرداءة تسيطر على الميدان ونحن آيتام واشكال في نفس الوقت ٠ يتكلم ويشرب وقسمات وجهه تسترخي بعد ان فاه بسره وانا اسأله عن حياته العاطفية والجنسية واستخبر وأسكر ٠ أريد كتابة رسالة حيث أدبج كل هذه اللحظات الغريبة فأتخيل عم الطاهر وهو يقرأ رسالتي كيف يتأوه ويسعل ويقول : تريد ان تأتي بطبيب اختصاصي في امراض النساء ؟ وأنا مسلول ٠٠٠ مسلول أنا ! طيب خنثى ، وهكذا نصل الى قمة المهزلة ٠٠٠ حمقاء هذه الفتاة انها حمقاء ٠٠٠ وان كنت أرج التاريخ فلأنني مدرس قرآن وبدأت كفلاح فقير أجبر على ترك أرضه اللجوء الى القرى حيث تعليم القرآن شيء يسير .٠٠ كنت مدرس قرآن نزيه وأوصلني القرآن بعد مطاف طويل ، لا الى مكة ! لا ! ابدا ! أتركها لهم مكتهم ٠٠٠ ليحجوا ويهجوا ويرجعوا متطاولين متنافخين بنيشانهم الجديد ولقبهم اللماع : الحاج فلان والحاج فلتان ٠٠٠ أهلا ٠٠٠ أترك لكم مكتكم يزنى فيها ٠٠٠ مسكينة هذه الفتاة ! بلى ٠ انما هي متعنتة ٠٠٠ لا تفقه شيئا ونحن قد دخلنا في أزمنة الزهري ٠٠.

لقد بعث لطيف من جديد ٠ بكى في احضاني ٠ أشهقت على

خديه · أتى بزجاجة من الكحول كانت مخفية تحت سريره وشربنا محتفلين بهذه المناسبة وتكلمنا طيلة الليل وتحدثنا في شتى المواضيع · أخرج من محفظته الجيبية صورة عشيقة · رفضت ان أنظر اليها · خفت ان يشبه صاحب أخي سيد أحمد · قلت لا داعي لهذا ··· لا شك انه جميل ، يقينا ··· حدسا ··· من يعشق معزوفة الالف ، لا يحب انسانا تافها او قبيحا (ماهلر يكتب لزوجته : ان السماجة سب في الله) · ارفض الصورة · يعيدها الى مكانها · نسترسل في الكلام حتى الصبح وتثقب الكحول كلماتنا وتغسل افكارنا وايامنا القادمة · لا ينقطع لطيف عن الكلام · يقص علي حياته الثانية المخفية · يحب ويعشق ويخاف على حبيبه ، لكنه يعترف ان الواقع مر كالدفلى وقساوة الناس لا يمكن تصورها · انهم يشتمونه وهو يتجنب كل تمظهر او استفزاز لكننا معقدون نحن والرجل الخنثى بدعة وشذوذ لا يقدر المجتمع الذي نعيش فيه على استيعابه والتاريخ يشهد اننا رجعنا الى الوراء حضريا · تقهقرنا ولم نبع لا الكتب القديمة ولا الكلمات الرثة ولا الافكار المسبقة ولا حتى احذيتنا المثقوبة · لم يبق لنا الا العنتريات وحتى الرباب مات ، قتلته الطقطوقة الشرقية والغربية · لا بد من نكش التاريخ من جذوره ، والاخر هناك يهذي في عرينه ويسعل ويشتم ويكتب ان التاريخ طحلب عفوي ، ينبت هكذا على مخرأة الايام · لا بد من نكش التاريخ . يكتب عم الطاهر · وأخي يشتم (عطاي ازامل ! خنثى !) لانه يمارس الجنس مع الرجال ويعشق الرجال ويداوي النسوة ··· أين العيب ؟ أين الخطيئة ؟ أين الزلة ؟ أين التناقض ؟ أبناء القحبة وحتى صوت المرأة عندكم عورة ! (الوشام عالسرة والضرة مرة ؟) وأنتم تجوبون الشوارع تحت المطر متعانقين ، ومتماسكين ومتكاتفين ··· النفاق يعرفنا وصريف القلم الذي يكتب به عم الطاهر ليلياته يحك الفضاء ويقرضه والمطر يخدر المدينة ويبللها ويرطبها وصورة أخي الميت لا تفارق ذهني وأنا أشعر بأني خنته منذ ان اعترف لي لطيف

بميله للرجال ٠ أخي واقف على اجفاني والارض برتقالية زرقاء مملوءة بعصير الشتاء تارة وبرتقالية بنفسجية تارة اخرى والقط يعرج ذهابا وايابا والكتابة تمحوها الدموع وكأني اكتب بالحبر السري ، وسويداء المدينة انما تهطل داخل احشائي والقط يستأنف ظله المفقود وقد غابت الشمس منذ ايام وألعق أنا شعور الوحدة وما زال أخي الميت واقفا على اجفاني وكأنه علـــى عتبة الدار وشعره أسيل وقد صقله المطر وفي عينيه مياه الموت الراكدة تعوم والصداع لا يفارقني ٠ لم أنم ٠ ولا لطيف عرف النوم ٠ انصرف الى عمله في الساعة الثامنة بعد ان افرغنا كلانا زجاجة الكحول وبقيت وحدي في غرفتي احاول جمع اطرافي وحوافي وانا أتململ في محيط غريب زاده المطر بلة ٠ أسبح في الغرابة ورائحة الخميـــرة تتصاعد من المطبخ حيث تعجن امي العجين كعادتها مرة في الاسبوع وهي ترفض خبز الخبازين وتقول « الله لا ينزع عنا عادة » وأبي يعبث في طفولة وديعة ويعمل مثلما كان يفعل فؤاد وهو صغير ، يخلط المواد الغذائية ويصب الزيت على الدقيق والخل على اللحم ، ويمزج بين الايام ويبول أينما كان جالسا ٠ أحاول ضبط الامور ٠ كيف أسكر لاول مرة مع اخي وهو يعترف لي ويصارحني أنه خنثى؟ ماذا أصابنا ؟ حتى انا تعودت على الكذب وأمام هذا الواقـع الجديد ، أخاف نفسي ٠ أشك ٠ أنظر الى وجهي في المرآة ٠ مالي فتنت ؟ مالي جننت ؟ أيغير أخي الاكبر ؟ انه لا يزال واقفا على جفني والكون برتقالة تارة تسيل مطرا ووحلا ودما وقيئـا ومشاء واسهالا لفظيا ودسما وهذيانا . القط يحوم حولي ٠ يثب على الطاولة كالسهم ٠ يلوث أوراقي بوحل الحديقة حيث يذهـب من حين الى اخر بغية ابتلاع العصافير بعد عملية مغناطيسيـــة طويلة ، بدون ما جدوى ٠ أضربه ؟ لماذا تطارد العصافير المسكينة، يا لقيط ٠ يتمطط ولا يبالي لا بضرباتي ولا بعتابي ولا حتـــى بنفسي ٠٠٠ يلوث اوراقي وقد قعرها الدمع نجوما نجوما ، انتهز الفرصة وأمزق الرسالة العاشرة ٠ هل أنا أحبك يا قطي ؟ محظوظ

أنت ، انك لا تبالي بالامور ولا يهمك تحديد التاريخ . سكنت اللوعة انامي . عذبني الحنين الى عم الطاهر . كيف حال وردتيه وأحوال بقراته ؟ أريد فجأة ان أموت . انني اعلم انه ليس ثمة شيء وراء السياج العشبي والموت مرآة الحياة تقشر طلاؤها . أستلقي على الفراش بعد ان أسدلت الستار واغلقت النافذة واشعلت الشموع . ابحرت نحو الموت ولم انجح ولم افلح . انما أكتسحني النوم وبعدما استيقظت رأيت ان الشموع قد ذابت كلها والقط يكحط رواسبه وسحالته .

وفي أماكن اخرى كان التاريخ يفتقر الى الوضوح وازدهرت المدن السفلى وتكاثرت ، متجاهلة الدم وموقع المسالخ . كذلك الامر في هذا الوطن وفي هذه المدينة بالذات حيث رمم الطاهر الغمري عرينه على ربوة تشرف على الميناء واخذ يكتب التاريخ بكل نزاهة وشجاعة ، يعطي للذاتية قيمتها وللموضوعية نصيبها وينتهي به الامر الى التفجر وهو يعاني من سل الرئتين واختفاء الرفاق وقلة المصادر وتحذر الشهود ، فيكفر ويجلجل ويقول ان التاريخ لا يصنعه احد لاننا لا نراه ينسج خيوطه انه كالشرنق يتكوم تدريجيا وهو كالعشب لا نراه ينبت . لكن الرجل مصر على كتابة التاريخ ، يريد ان يترك شهادة عن موقف فئة من الشعب وعن اعمال رفاقه الذين ماتوا وطوقوا بكتان النسيان . في كل مكان يفتقر التاريخ الى الوضوح والظل لا يكفي ليحفظ الاحياء من تجار الاموات وطحلب العتمة والظلمات . الظل يمر على قيد شراع من حافة الرؤيا واضغاث الاحلام . المدن تتهرأ والنساء في تخمام وهوام ، وعلى عتبة « دار الهناء » ذلك الفجر الفخم والضخم يسميه بحرا وهو ألطف من لباس الانثى عندما تتراءى له من وراء الاحتمالات والاحتلامات وقد انقطع منذ شطحته هذه حول التاريخ عن زيارة سيدي عبد الرحمان ، بصفة مؤقتة ويتفتح قلبه كفرج الانثى بين ميدية وفراشة يحشر فيه الرجال اصابعهم

ويشتمونها لصيانة العرض والتبجح بأنهم ضاجعوا أنثى واغلبهم لا يعرف شيئا عنها ومن أين يبدأ بها وما هو الفرق بين وجهها وقفاها ، وهم يملأون المدينة ببلبلتهم وفخفختهم وتغنجهم وقد تهرأت وتفتقت تحت صرخات النساء تلسع الليالي الممطرة والمصحى • وهو يعرف كل ذلك ، لكنه قرر ان يعيش في عزلة تامة في تسابق مع الموت ، يحتذر من رئتيه ، يخاف ان تلعب له لعبتها الماكرة فيموت قبل الانتهاء من تدوين ذكرياته وتدبيج ليلياته وتبقى سالمة تترقب ان يهتف لها من حجرة الهاتف العمومي ، وهو لا يفعل ، ولا يزور مطلقات وعذارى سيدي عبد الرحمان ولا بقراته المسكينة التي يكون قد تركها للزمن وللميناء تبكي داخل المصندقات الضخمة وكأنها تحدس ان مصيرها يتلخص في كلمة واحدة : المسلخة • ويكتب ان الابطال ماتوا كلهم والتاريخ أثكل ويملأ الاوراق تلو الاوراق يقص فيها كيف عذب سيد أحمد مدة عشرة ايام وكيف قطعوا أظافره الواحد بعد الاخر وقلعوا اسنانه سنا بعد سن ، وفقأوا عينيه أولا اليمنى ثم اليسرى وهو صامد ، لا يتكلم ولا يدلهم على أتفه المعلومات • تمكث سالمة في المنزل وتهمل عملها مدة ايام فتحاول اثناءها الالمام بكل هذه الاشياء المتلاشية ، المتوبرة ، النفيذة والسماقية ، التي تنفلت منها ، تنزلق تحتها وهي امرأة قد شرحت قلبها وافتحت جسمها بسمات الانوثة تكتسيها نشاثة الماء الاخضر المالح ، كأنما هو مزيج من بذار ونسغ ومرونة وأكسير الحليب المختلط بالملح والخل والحمض واليود ، غريبة المذاق ، فيه مرارة النحاس وطعم الحديد وخلفه دم الشهر والقبلات المتربلة والشفاه اللحيمة والمصبوغة باللون الاحمر وهي امرأة كاملة ، بشبقها وأقراصها وعزيمتها وعاطفتها واسنانها الطاهرة تحت سوط لسانها المتشبع بهمجية القرون والحضارات والامم وتحت صدأ البحر وملحه ، وهي تعيش على مقياس ضيق وكسرة تفجر جسدها من الوسط وماؤها مشبع بشبق الرجال فتمتلئ غرفتها الصغيرة بسافورات اللذة الحمر وبأوشام

بلاد السودان النيلية فتقرح جبهتها وتنقطهـــا بزرقة فاتـــرة .
تستفيق في الصباح الباكر وتصغي الى جسمها والى موسيقـى
اخيها الصباحية ونعاء القط يخدش باب غرفتها طالبا الدخول ،
وتستمع الى غوغائها تتصاعد مستمطية سلم روحها الحزينة فيما
السماء شاحبة يشعشع النسيان بمصفاته ويبعثر الشعير علـى
الحيطان وقد لطخت زواياها اجنحة العصافير البيض ، والبحـر
يهدر في جوفها وقد أكتظ بفقاقيـع الخصوبـة وبحكمة الاستتـار
وبغليان الاحرف الحليبية ، وتبقى سالمة هكذا ، بين السماء الشاحبة
والبحر المكتظ وقد راح النعاس يجعد رســـوم بشرتها ويزخرفها
بأشكال تتكلم عن السفر بين الحبر والورق ، وأعضاؤها طافحـة
سكرا بين الفـــزع والفتنة والشـــهوة والغثيان والانصداعات ،
وتتكوكب المدينة حولها وهـــي بين زوبعة شهواتها الصباحيـــة
وموسيقى ماهلر المتلولبـــة وروايات التاريخ التي محتها جثـــث
الثوريين ، وترن حرجا اذ لم تعد تعـرف لاي مجرى هواء تسلـم
نفسها ، فتقبع في حجرتها عاطلة لا تفعل شيئا ولا تفتح للقط
بابها ولا ترد على تصبيحة اخيها ولا تكتب أية كتابة على الورق
وتمكث هكذا محشورة في فراشها حتى يأتي الليل ويوغلها في غابة
الغرابة والخوارق وتطرق صدرها خشخشة صوفية معلنة عن ليلة
ليلاء طويلة ومقيظة وقد عيل القط صبره فترك بابها وراح يعرج
للمرة الالف حول الحديقة يحاول جذب العصافير المبلولة بمجرد نظرة
عينيه الحادة ، ولا يفلح كعادته ، فيدخل الى المنزل ويتسرب داخل
المطبخ ينقض على سمكة موضوعة في صحن على رخامة ، ويفـر
بها والسمكة تتدلى من فمه كأنها لسان ازرورق فجأة . ومن جديد
تغطي معزوفة الالف الكآبة وتتسلق في الحزن درجة اخرى .

ليس المهم ان تلبس سالمة الحـــداد وان تعافي فرجها وان
ترفض النوم وان تتهلوس وتهمل عملها بحجة انها عرفت ان اخاها
ليس كالرجال الاخرين وانها قادرة على تجرع الكحول وان عـم

الطاهر يقاطعها ولا يهتف لها ، بل ان تعرف سالمة كيف تدبر، الامور وتتحكم فيها وقد هطل على رأسها المسكين الكثير من الاخبار الغريبة والاحداث التي لم تكن تتوقعها ، على انها كانت تشك بعض الشك في تصرفات اخيها وحبه للعزلة والموسيقى وتقززه من صاحباتها عندما يأتين لزيارتها في البيت ، كما كانت تعلم انه لا بد من سكرة في يوم من الايام ، وهيالاخرىلقد فكرت اكثر من مرة في معنى التاريخ واتفقت اكثر من مرة على انه مصيدة ومصفاة وانه قرح لا يكف ابدا عن التعفن ٠ كانت تحدس هذه الامور كلها لكنها لا تملك اية حجة صلبة وأي برهان عنيد. تمشي على حافة الايام برشاقة تجنن المارة وتتجاهل أنها وصلت الى حدود المستنقعات الجنونية وهي كذلك بين تيه وتيه ، تعمل وتأكل وتشرب وتطالع وتعشق وتهرب وتحب وتكره وتندم كلما اعطت ثقتها الى رجل يتسارع في البرهنة عن تخلفه وبلاهته وفطريته ٠ وهكذا تجري الايام والليالي حتى أتى اليوم الذي تعرفت فيه على الطاهر الغمري ، فتغيرت حياتها وخف تيهها واخذت تتزلج على ثلوج الذاكرة والوعي السياسي وتدخل الحزب وتطرح الاسئلة وتناقش الامور وتنظم النقابة وتخوض بحر السياسة وتريد فهم التاريخ ، فتجده - عم الطاهر - يرد عليها ويقنعها وقد جعل من كتابة التاريخ مهوى لا يبعده عنه شيء يذكر الا هي سالمة ، والبقرات الثلاث جميلة وحليمة وياسمينة / يامينة ؟ والدجاجة التي اهدتها له كما كان يفعل أولياء تلاميذ الكتاب حيث كان يعلم القرآن ٠ كانت العلاقة تتمتن بينهما حتى ذلك العهد الذي جاء فيه يفاجئها ان التاريخ لا يصنعه احد وكالعشب لا يزرعه احد ٠ فتدهش في اول الامر وتظن انه يمزح ، لكن الرجل يصر ويعيد الكرة ويغضب ، فتقاطعه وهي على يقين من ان التاريخ تصنعه البشرية من شعوب وأمم وأفراد وهو كذلك عبارة عن تطاحن مستميت بين المغلوب والغالب وبين المقهور والقاهر وبين المستغل والمستغل ٠٠٠ هذه هي النظرية التي دخلت ميدانها وخاضت

معاركها ، فتلومه على دور الحزب أيام ابتدأت حرب التحـرير وهو يوافقهـا وكانـت الامور بينهما واضحة على الصعيـد السياسي ولكنها غامضة كل الغموض على المستوى النفسي ٠ واذا به يأتيها بفكرته الغريبة حـول التاريخ ٠ لا تصدق ٠ تقول : عصاب ٠ بسيطة ٠ عصاب بسيط سيمر ٠ أطلب من لطيف ان يقدم له بعض الادوية المهدئة للاعصاب واخرى لمعالجة رئتيه لكن عم الطاهر يرفض ويضع الدجاجة في حجره ويصمد امامهاتحديا ، رافعا بينها وبينه علم الرفض والعراك ٠ فيسب ويهزأ بلطيف : «طبيب امراض النساء وخنثي الله الله ! دعيني وخرافاتك وموت اخيك وهلوسة عمتك فاطمه ودروشة أبيك وزواج اخواتك وورشة الخياطة وموقف حميد بالنسبة للاشاعات التي يتناقلها الحي حول حياتك الشخصية وموسيقى ماهلر وأغاني المواخير ٠٠٠ دعينـي ٠٠٠ أقول انهم ذبحوا الكثير منا وخططوا لاغتيالي ٠٠٠ فهربت ٠٠٠ لا اصدق ٠٠ الى يومنا هذا لا أريد أن أثق في احد ٠٠٠ من قال انك نزيهة ؟ لعلك تعملين مع مصالح الشرطة او المخابرات من يدري وأنا أثرثر وأنت تسألينني عن الرقم القياسي الذي كان يمتلكه سيد أحمد في سباق الـ ١٥٠٠ متر ٠٠٠ مجنونة ؟٠٠٠ وتسألينني عن لون عينيه ! وتقولين انك تحبينه ٠٠٠ أمجنونة أنت ؟ وتلبسين الاسود وتعلنين هكذا عن حدادك بالنسبة لرجل مات منذ خمسة وعشرين عاما ٠٠. اذن اسمعي : التاريخ مخرأة ! اذن ، اصغي الي : التاريخ لا يصنعه احد ، فهو كالطحلب ، لا نعطيه اهمية الا بعد مروره كالقاطرة التي تزج الفضاء وتهزه بسرعة البرق ٠٠٠»
قلت عمتي فاطمة ماتت وفؤاد اصبح طيارا مدنيا وأبي ما زال في طفولته غارقا وأخي لطيف طبيب ماهر وصاحب ضمير مهني لا بأس به سوف يأتي لفحصك فيزودك بأدوية من النماذج التـي تقدمها المخابر الصيدلية مجانا للاطباء ٠ فتغضب وتتبنفسج وتعيد نفس الجملة كالطفل العنيد يعوي ويضرب بقدميه الارض ولا يوقفه عن ذلك لا ضرب ولا توبيخ ولا مداعبة ولا ملاطفة أتركك وارجع

الى المنزل أترقب لطيف ، بعد ان بحثت عنه في المستشفى فقيل لي أنه يولد امرأة قذفت بتوأمين ولم يرد الثالث الخروج ٠ استقرأت حياتك على هذا الوجه يا عم الطاهر وأنت تتغير ، أولم افهم شيئا منك منذ ان تعرفت عليك ؟ سأبقى أناقشك وأخاصمك وأحاجك وأدخن السيجارة تلو الاخرى وآتـي بديك لدجاجتك الموبوءة حتى يخصبها وسأجد لها اسما وانت لا تحفظ من أسماء النسـاء الا ثلاثة ٠ اعلم اني سأعود أتردد على دارك واننا سوف نجد الحل الملائم ٠ لا بد ان هنالك سوء تفاهم بسيطا جدا وطفيفا للغاية ؟ هل تنفي ان التاريخ ثورة وتقلب مستمر ؟ أما الباقي فشعر او بالاحرى كيفية خاصة للدلالة عن تشعبه وصعوبته وقسـاوته ٠ لنفترض ان التاريخ لا يصنعه احد ٠٠٠ هل يعني هذا ان التاريخ ملك الجميع ٠٠٠ سوف نجد حلا ٠٠٠ سوف نجد حلا ٠

وهنا تسترجع سالمة ثقتها في نفسها وفي الاخرين ٠ تعود الى عملها ٠ تفتح باب غرفتها للقط الاسود ، تقبل أن تنظر مليا الى صورةعشيق اخيها ولا تجد اية شبهة بسيد احمد ، تعطي أجلا لعم الطاهر قبل زيارته من جديد لعله يهتف لها اثناء الاسبوع وهو ان لم يفعل ، تذهب هي الى العرين ٠ صادف يوم خروجها من الدار توقف هطول المطر الذي تسبب في أضرار كبيرة وقد تهدمت بعض مدن القصدير التـي تطوق المدينة وتعطلـت بعض آليات الميناء ٠ صباح مغسول كجسد عروسة بعد حمام الزفاف ٠ توقف المطر ٠ عاد ضوء النهار واسترجعت الشمس حيويتها المعتادة ٠ القمرة مطلية بلون الشب ٠ الطـرقات تقلد الصواريخ وتتطاير بسياراتها وحافلاتها وزحامها وترمق الى اعلى الربوة حيث « دار الهناء » التي لم يقلعها الريح فبقيت على أسسها ومحـورها متشبثة بالتربة ٠ الازقة ذات الاتجاه الواحد تغلق المدينة علـى نفسها وعند السادسة مساء ، تمتلىء الشوارع بالبنات الجديدات المبهرجات وقد حملن ، تحت نيلونهن ، لوزة فرجهـن الهشة ٠

وسالمة من بينهن والرجال لهن ولها بالمرصاد . العزلة تملأ قلوب الرجال وتكتظ داخل الحجيرات المتداخلة بعضها ببعض المغلوقة بشمع الحرمان ، يحملونها بين ضلوعهم ولا تطيق خصيّهم من ذلك اكثر . يسقط الليل بسرعة وترى سالمة فوانيس اللوعة والشهوة مضاءة في عيون المارة فيتصاعد الغثيان الى صدرها والدموع الى حنجرتها . لا تتقيأ . لا تبكي . تحس بالبرد يغلفها ويغلف المدينة من حولها . أبرد . ليضمني ظلهم . عم الطاهر ، وقني من الصرد وكن معي ضد برودة الليل . أمسك بخصري وأضغط على حزامي . أبرد . أمسكني بكل قواك حتى لا يعتريني الشك ولا ينزح الاموات عن نعاسي . تصل الى المنزل . تدخل بيتها . تأخذ القط برفق ، تدندن له رنة معزوفة الالف ويخيل اليها ان مصباحها الكهربائي انما هو علبة دود براق فتتذكر وتكبح على الفور عنان الوديان التي بدأت تتضخم في فيضاناتها نفسها . فتأخذ كتابا تفتحه هكذا على سبيل الصدفة . تنسى موت اخيها ومعاشها اليومي كامرأة عربية متمردة على طقوس الاسلاف وتنسى التوتة ويوم الجنازة وعنجهية عم الطاهر وتقرأ قصة غرام وتبكي وتقول - لماذا لا أعشق ، سأبقى عانسا كعمتي فاطمة وسوف ينمو شارب فوق شفتي العليا وأفقد أسناني الا نابا واحدا أحتفظ به لتخويف الاطفال - وتقرأ وتبكي وهي تعلم انها اغلقت بنفسها فردوس الجنة ورمت المفاتيح في فضاء الكون الكوكبي . ثم تترك غرفتها وتلتحق بأفراد العائلة المتحلقين حول مائدة العشاء ما عدا أبوها الذي يأكل لوحده في احدى زوايا غرفة الاكل ، جالسا على الارض ، متربعا ، ملطخا وجهه بدسامة الاكل ، مقابل الحائط ، يحدث نفسه ويستهل كالجنين . فتتصاعد ، وهي تتصنع الاكل ، من ابطها الزعفراني كل توابل الارض التي تستعملها امها لطهي ألذ المآكل . فلا تأكل شيئا وهي تنظر الى أبيها بتصرفاته الصبيانية وانصرافاته الجنونية وتحن اليه وتشفق عليه ، وتترك المائدة وتتجه نحوه وتأخذ بكتفيه شاخصة في عينيه الغائبتين وتقول

« أنا الطفشة ، بابا ، أنا الطفشة ! » فلا يعيرها اهتماما ويريل ويأكل ويستهل كالرضيع تدغدغه امه • ترجع الى بيتها • كتب مقروءة . احلام مغلوقة • وجوه معبودة (كم من رجل ضاجعت ؟) أيادي محكوم عليها ان تبقى محشورة داخل الجيوب الى ما بعد التاريخ • قط أسود وفاجر • تعرى جسدها • (أين بوصلتك عم الطاهر ؟ اين أنت يا لطيف ؟) تقف امام المرآة • تمرر أنامل اصابعها العشرة على خصرها ونهديها وبطنها تنحته نحتا وكأنه قربان من الفخار الامرد قدم لاله ينقصه الكمال ، وتتنامى القشعريرة على بشرتها الناعمة دونما كلل كما تتنامى الفسائل في أرض بور بقعتها الامطار بمستنقعات صغيرة وسنجات ضيقة ، وهكذا وسالمة في حركتها حتى يصل بها المطاف الى فرجها • تجلس على الفراش وترفع فخذيها وهي تنظر الى جسمها في المرايا وتدخل خنصرها في ثلمتها وتأخذ في الذهاب والاياب والخروج والدخول والولوج والبلوج ، تمارس هي بدورها العادة السرية ، لكنها لا تشعر بأية لذة أو متعة • تصر • تستمر تلهث • ترهق نفسها • تعرق • تسيل • لكن دون جدوى او فائدة • لا شيء ! لا شيء ! لا شيء ! تصرخ • يفزع القط الاسود ويريد الهروب لكن الباب موصود ومبلج • تتوقف سالمة من عمليتها • تتصاعد دموع الاسى والغيظ • يتصاعد الغثيان • يأتي القيء . تخرج عارية نحو الحمام حيث كان يحملها هو على كتفيه يوم كانت تبكي وتصرخ وتلطخ وجهها السمين بطين البستان ووحله وهي تحك عينيها ، ورويدا رويدا تكف عن البكاء وتأخذها نوبة من الضحك •••

الشعب بلا طليعة لا شيء والطليعة بلا شعب صفر مثقوب • عم الاستهتار والرجل يتنبأ • لقد اصبح مشكاكا انه يخاف ظله ويعيش في ظل الاموات وينقش على منضدته تلك الجملة الغريبة وهي تعلم الان علم اليقين ان الوردة اصطناعية

ولا تفهم لماذا يغير ماءها • هل من رمز اخر وراء هذا الامر ؟ هل هذا رمز الاصولية ؟ الشعب بلا طليعة ... الاصولية ضربت اطنابها وتوغلت فينا وحتى الفقراء يظنون ان لهم قسمة ونصيبا فيها • عقمت الدجاجات • كثرت مدن القصدير والرجل يخرج على عتبة داره القصديرية يحاول ايقاف المطر • مثل المتنبي • لم يفقد عقله ، انمايستهزىء ، يضحك من نفسه ويبصق على المدينة التي تعهرت وقد اغلقت المواخير بقرار ولائي وتزمتت فخصصت اركان للصلاة حتى داخل الحانات فيها زجاجات البيرة تحمل علامة أبي نواس • مسكين انت يا شاعرنا .. علامة بيرة رديئة هذا هو مصيرك ، لو علمت لعدلت عن الكتابة • يبصق على المدينة ويحاول ايقاف المطر ويقول ان عام الطوفان وواقعة التوتة وغطرسة عمتي فاطمة وموت الاخ البكر ودروشة الاب وطلاق الاخت الكبرى (أمينة) وغيرها من الامور التي سمعها ، كل ذلك انما هو هذيان لطيف ودلالة على الولوع بالكذب وعلى سعة خيال جارف • الطليعة بلا شعب ! يضحك من نفسه • هنالك مراحل لا بد من اجتيازها والمرور بها وحتى الوقوف فيها طيلة مدة لا يمكن لاحد تحديدها بالضبط • كل فرد منا راح يتخيل مع الايام وعليها الفقراء يعودون بخفي حنين • لا شيء • انهم يقلدون الانتهازيين ، لكن الانتهازية ليست بالشيء اليسير (موش غير أجي وازدم) لا ينجح فيها الا القليل وهكذا تصنف الطبقات وينتشر الاحتكار ويعيث النهم والجري وراء البرق • لقد راح أثرياء الثورة يخزنون ثرواتهم داخل صوف المطارح التي ينامون عليها ويحتالون ويتضخمون • جعنا طويلا والان قتلتنا التخمة والسكر والمذلة واصبح أبو نواس مجرد علامة بيرة رديئة • يبصق على المدينة • فكل محتكر خبيث والتجار الصغار يسطرون النقص في المواد • قصرية الرأسمالية • من قالها ؟ لست أدري • أحدهم • زعموا ان .. لنترك الجاحظ وذبابته ، فنحن الذباب • تقصدرت المدينة • تضخمت • مرضت بكل الامراض الاجتماعية والعاهات • أين

الطليعة وأين الشعب ؟ لا جسر بينهما بل هنالك هاوية . الاقطاع العربي الاسلامي كان خلاقا مبدعا ، مغامرا ، متاجرا ، اما الان فأصبح حذرا ، لا يوظف امواله الا فيما لا يغني ويترك للدولة الاوزار الاخرى . قتلتنا المقاولة والمقاولون والدجالة والدجالون . لا يجد اسما للدجاجة وهي في فترة الاستحرام والصيف في عز ودقانه وقيظه . انها مريضة هي الاخرى تشكو من ربو عضال ومزمن . مثلها مثل صاحبنا الطبيب . لا بد لها من ديك . مرت عليها فترات الودقان فيجن نهارها ويلتهب ليلها ويزيدها ربوها عصبية . اين الشعب واين الطليعة ؟ الحزب ليس في المستوى والمرحلة دقيقة . هرع الناس الى المساجد وسئموا الوقوف أمام دكاكين التهريب وحوانيت السلب واروقة الزور والغش . الطليعة ليست في المستوى . غصت المساجد بالتائهين في القرن العشرين وامورنا تدبر بعيدا عنا ونحن هزلى وصدورنا ضيقة ومسلولة . اصواتنا بحة رهيفة لا يسمعها احد ولم تفلح الا في تشييد المآذن على شكل صواريخ تفتقر للطاقة النووية لتقلع نحو القمر والنجوم والكواكب . لا يصنع التاريخ بل يصنع نفسه كالعشب لا يزرعه احد . التاريخ كذلك له فتراته أزمنته ومراحله ولكنه ليس دجاجة مربوءة كذلك التي لا يجد لها حتى اسما نحيفا . لا يصنع احد التاريخ وفكرة الرجل المصيري خرافة ، بدعة جاء بها ابن خلدون . ليس للتاريخ فترات استحرام كالدواجن تطلب السفاد في اوقات محدودة ثم تخصب ، ثم تنجب ، حسب الفصول والقوانين التناسلية والمناخ والطقوس . لا تفهم هذه الامور ولا تفقه منها شيئا وهي تائهة بين اقراصها وعلبها وولاعاتها لا تنقطع في البحث عنها داخل حقيبتها اليدوية ، ودواوين بشار بن برد وابي نواس وابي العلاء ، فلا تتركها . لا الشعب بطل ولا الطليعة بطلة ولا رجل واحد يقدر وحده على قلب الاوضاع واقتحام الواقع . هذا الجيل يفقد صبره بسرعة والتاريخ لا يعد بالاعوام ولا بالقرون . الانسانية كلها ما زالت تحبو ، فما بالك بنا ؟ تنقصنا الجرأة

وينقصنا الذكاء وينقصنا الخيال وتنقصنا النزاهة • بقبة في
زقزقة • كل فرد منا حرب اهلية وحاجز شائك وقنفذ حرقفي •
وعمتي فاطمة تقتل العصافير المبلولة في عهد الطوفان الذي دام
اربعة اشهر من جويلية الى أكتوبر ، ولعلها تقتل الكلاب والقطط
السوداء تخلصها من كلبها وسويدائها • وهو يصب الماء كل يوم
في حفرة يضع فيها نفس الزهرة الاصطناعية لمجرد التمظهر
ويختال كل ما في وسعه لاختطاف حمامات الحدائق العمومية واسماك
الاحواض العامة • والعجوز الشمطاء لا تكتفي بقتل العصافير
المبولة والكلاب المكلوبة والقطط الحزينة ، وانما ترمي ـ بجثثها ـ
في الشارع كي يتسم الجيران ، والمدينة تفتقت احشاؤها ، وتشققت
منازلها تحت وطأة الخلق المحشور فيها والنساء لا يتوقفن عن
الوضع ، وكادت تسقط اسوار الميناء لولا ان سندتها شرانق
العنكبوت وبيوتها وخيوطها • وهو يكتب ولا يتوقف عن الكتابة
ولم يكن يشك لا في عمله هذا ولا في نظريته هذه حول التاريخ ،
وكأنه يكتشف اختراعا جديدا لم ينتبه اليه احد من قبله حتى
هذه الفقرة • وهو على نفس النشاط الكتابي ، لا يمل ولا يكل
ويبصق من حين الآخر على المدينة التي تتخبط في مشاكلها
وكأنها تحت اقدامه ، والدجاجة لا تزال عديمة اللقب ومريضة
بالربو ومفتقرة الى ديك صياح ، فلا تفارق حجره • وهو كذلك في
ايام العزلة المغلقة من أواخر حياته ، يعرف ان السل سوف يقضي
عليه وان سالمة مصممة على تركه جانبا يهوس ويجوس ويخترع
النظريات الجديدة ، وهو مقتنع كل الاقتناع من صفاء ذهنه وانه
سوف يمكنه من ان يتفحص تاريخ بلاده ، وتاريخ العالم وتاريخ
عائلتها بكل تقلباته ودهائه ومكره ، حتى ما كان منه تافها ويظن
انه استطاع وللمرة الاولى ، ان يلقي نورا ساطعا على حقائق دفعته
مشاغله من قبل على رؤيتها بصفة جلية • وبينما سالمة تتلوى
تحت لوعة الحنين والشوق الى زيارته والحديث اليه ، قام بمراجعة
كل الاحداث التي عاشها منذ ولادته بصفة دقيقة واعادة النظر في

ارائه القديمة عن الحزب منذ تأسيسه سنة ١٩٣٦ فأدرك ان قسوته لا ترجع الى الاحداث التي عاشها مدة الحرب باغتيالاتها وتصفياتها وامواتها وشراستها وقساوتها ونفاقها وخياناتها ، كما ظن في السابق ، انما ترجع الى عدم قدرته على الخروج الى الميدان وعلى خوض المعركة الجديدة لانه يحدس بأنه غير مسلح لمثل امور ومشاكل كهذه وترجع الى اكتشافه المذهل انه لم يقاتل في تلك المعارك السياسية او العسكرية كلها عن مثالية وانه لم يقم بكل هذه الاعمال وهذه المجهودات الا لسبب الانتقام من الجريمة التي راح ضحيتها كل افراد عائلته ٠ وهكذا وصل الى هذه النتيجة ان التاريخ لا يصنعه الرجال كما قيل له وكما قرأه في الكتب ، وانما هو ايضا نتيجة ردود الافعال والاستثارات ، خاصة وانه لم يسامح نفسه عندما وصل الى نتيجة لم تتراء له من قبل ، وانه اصبح منذ ذلك اليوم من سنة ١٩٤٥ (ماي) غير قادر على الحب ، فاهتز لهذا الاعتقاد كله وتفاقم مرضه وطوقته حلاكة رهيبة ، ذلك أنه اصبح مقتنعا من أنه كائن غير قادر على الحب وأنه كان يمشي بجانب حذائه طيلة حياته ويناضل ويمارس السياسة لا حبا في الفقراء وانما كراهية في من بقروا زوجته وابنته، ولم يكن قادرا حتى الان على ان يتذكر اسم ابنته الثانية الاخيرة ٠ هل هي يامينة أم ياسمينة ؟ خاصة وانه فقد كل الاوراق الرسمية ولم يحتفظ الا بتلك الصورة التي لا تفارقه منذ ان هرب وهو مسجل في قائمة الاغتيالات السوداء ٠

اصبح الطاهر الغمري يعاني من عواقب معركة مميتة تدور رحاها بين طيات جسمه الهزيل وتتلخص في تواجد نزعتين متناقضتين : الاولى تحمل حبا لا حدود له والثانية جبنا لا يستطيع التفوق عليه وهو الذي اشتهر سابقا بشجاعته وبطشه وانتهى به الامر الى ان انتصر على خوف غير معقول ، كان مصدره ومصبه سالمة ثم سالمة ٠ فكانت الزوبعة التي أنهكت قواه وتركته على

شاطىء الاوراق البيضاء ، محكوما عليه بأن يملأها قبل ان يملأ القيح رئتيه،فيموت من غير أن يفهم مسيرته الشخصية ، وبداخلة الشك فيدمدم ويبصق ويصفر كالافعى ويهيج ويغضب ويكتب ، يكتب ، لا يأكل ولا يشرب ولا يغتسل ولا يغير ثوبه والدجاجة تهول وتختي في حجره ، وهو يدرك ان لحيته طالت الى حد غير معقول ورائحته اصبحت كريهة لا تطاق وعيناه ضعفت قوتهما فيشعر انه يتدلج في الظلمات حتى انه اصبح لا يلم الماما كاملا باختراعه الجديد حول التاريخ واكتشافه المريب حول فقدانه شعور الحب منذ خمسة وثلاثين عاما بأكملها ، فيحس وكأنه يعبر دهاليز الايام ولا يتبين من الامور الا حرزا غامضا ، فيكتم بلواه وسالمة تقاطعه فيلجأ الى عون الروائح الكريهة التي يستشفها في دوامته الداخلية والتي تغنيه عن استعمال الحواس الاخرى التي ظن انه فقدها نهائيا ، فتنقذه هكذا حاسة الشم انقاذا اكيدا من عار الاستسلام هو يعترف في قرارة نفسه انه غدا غير صالح وغير نافع وانه - مرة اخرى - ترك القطار ينطلق نحو الافاق الفولاذية والزعفرانية ، وبقي واقفا على رصيف الحياة مشدوها ، لا يقدر على سرعة القطار شيئا ولا يحاول حتى القيام بأدنى حركة غضبية أو بأتفه رد فعل مضجر . لكنه يكتب ويترقب ويعلم عن حدس انه لا بد من مجيء سالمة وانه من المستحيل ان يكون قد خسر حياته كلها من فرط المغبة وقلة الذكاء وكثرة الحقد . يكتب ولا يرى ما يكتب وقد تهرأت عيناه وهو يحن الى صوتها العذب ودخانها الارج وقهقهتها المدوية وحركاتها القطنية وهفهفتها الحريرية وانوثتها المتدفقة المتصاعدة من كل شبر من جسمها والى عاداتها الطفولية كادخال رأسها في الحقيبة عندما تريد ان تخرج منها علبة السجاير او علبة المسحوق او جعبة تحمير الشفاه او دبابيز لمسك شعرها المتطاير أو . وهو في نفس الوقت يشعر بأنه لم يكن في اية لحظة من حياته على مثل هذا التبلور وهذا الوضوح وهذه الصرامة وهذه الحدة ، فيكتب ويترقب ويعلم انه ، عند مجيئها ، تتضح كل

هذه الالتباسات والغموضات وانه سيحلق ذقنه ويذهب الى الحمام حيث يمكث فيه يوما كاملا وانه سوف يشتري ثيابا جديدة من السوق السوداء ويقتل الدجاجة ، ويحضر لها - سالمة - شايا ويقطع الاوراق بالمقص او يمزقها بأسنانه أو يقذف بها الى مجرى الرياح لتحمل وتحمل معها كل هذه الافكار الغريبة والجنونية ويعد نفسه بأنه سوف يتراجع عن كل مواقفه الصلبة وانه يفتح لها قلبه وشرايينه ويقص قصته كاملة بلا اماكن فارغة ولا تكتمات زائدة ما عدا فكرة واحدة لا يريد الرجوع عنها وهي تلك التي تزعم ان التاريخ لا يصنع ولا ينسج ، كالعشب ينبت ولا يراه احد ينبت ٠

وأخيرا تأتي سالمة ٠ تزيح الغبار وبيوت العنكبوت وتوبخه وتأمره بالذهاب الى الحمام والى الحلاق وتعيره مالا لشراء ثياب جديدة من السوق السوداء وتخرج الدجاجة وتربطها من قوائمها امام الدار وتسميها « صقرة » ، وبينما هو منصرف الى المدينة تفتح الباب على مصراعيه وتخرج كل الاثاث وتنظف ارضية الحجرة بفرشاة عمتي فاطمة الحديدية وبماء فيه عقاقير وصابون وجافيل ٠ ثم ترتب البيت من جديد وتهرع نحو المنزل فتدخل ساحة الدواجن وتختار اروع ديك تجده فيه قزحي الريش ، دموي القنزعة وتدج به في سلة من الخيزران ، مستطيلة الشكل ، فيما الديك يسردك ويقوقىء ويصخب ، وتأخذ طريقها نحو العرين ، وتخرجه فور وصولها وتتركه ينقض على الدجاجة يركبها ٠ ثم تدخل الحجرة القصديرية وتجلس على كرسيها المعتاد وتملأ الغلاية المبعجة ماء وتتركه يغلي على نار الموقد ثم تأخذ حقيبتها ٠ تخرج علبة السجاير بعد ان ادخلت رأسها داخلها ، وتأخذ تدخن وتدخن وتترقب غليان الماء ورجوع عم الطاهر ٠ وما أسرع ما شعرت بالندم يغمرها تجاه الرجل المسكين الذي تركته لحاله وهذيانه وعماه لمجرد جملة قالها حول التاريخ ما كانت لتقتنع وتتناقض ربما وما

تعلمته في المدرسة السياسية اليومية ومن خلال الكتب ، فتترك تنهيدة تفلت من صدرها : « انه لغريب وانا اغرب منه ... لماذا هذه المقاطعة ؟ لقد دامت اكثر من شهر فأهمل اثناءها بقره واغلق كل نوافذ الامل ودفن نفسه في هذه الحجرة اللعينة ... لا بد ان يتركها ويربط الصلة من جديد مع حزبه ويعود الى الميدان حيث خلق بطبيعة هؤلاء الذين حكم عليها بالمقاومة طيلة حياتهم وكأن السياسة نوع من المخدر لا يمكن لمن يمارسها عن نزاهة واخلاص من تركها هكذا ... يمكنه التخلي عنها مدة زمنية بسبب ازمة شخصية او استيلاء ذاتي او حتى معطيات موضوعية اخرى ... لا بد ان يترك هذه الايام المغلوقة المقفهرة وهذه الليالي المرهقة التي تطلب منه جهدا كبيرا وقد اصبحت حياته كلها عبارة عن حياة من ورق وصمغ لا يساعد غبارهما على معالجة او وقاية رئتيه المسكينتين ... يغلي الماء ، يفور ، وهي في افكاره تدور وينشف الماء ويجف وتتكون طبقة من الكلس في قاع الغلاية ، تحترق بدورها وتطفو على جو الغرفة رائحة كريهة تخرجها من غيابها أو افكارها الحلزونية تدور من حولها وهي لا تجد حلا لانقاذ عم الطاهر وقد خرج صفر البدين من مأساته اذ تشعب البرق في رئتيه ولبس المسوح وساح في الارض ، يريش ويبري ويريش من جديد ولا يبري ، يتجرع الحياة وهي اخلف من شرب الكمون ، بين حاب ولوب فيطوف حول العالم وحول البؤساء ويسدل عليه طرفي برنسه وينام على الفقر والجوع والعزلة ، منذ ان قتلت امرأته (ولم تحمل لا حبلا في عنقها ولا حطبا يصلي به هو المسكين !) وابنتاه . ما اسم الثانية بالضبط ؟ (أيامينة / أياسمنية) ومنذ ان فهم ان دوره قد أتى ليذبح بعد ان ذبح بعض رفقائه قربانا للتعصب والغطرسة والجنون ، هرب هكذا وكيل الصاع صاعين وراح يعمل وحده ضد الجيش الاجنبي . ينصب الكمين ويفجر القنابل ويقتحم المصارف لشراء العتاد . واشتهر اسمه وذاع صيته عند العدو فراح يضرب بذقنه الارض ، وهو يصيح فيهم : على

اهلها تجني براقش ! من أتى بكم الى بلادي ؟ ، وهو الان يعيش في عزلة تامة بعدما تحدثت عنه جرائد العالم وصحفه ومجلاتـــه واذاعاته وكأنه اصبح شخصية أسطورية أو بطلا سينمائيا ، لم يخرج من عرينه مدة شهر وبضعـة أيام ، وتأتي سالمـة فيعترف بحجره وبجره ، بأنه على استعداد لمناقشة كل شيء الا معنـــى التاريخ لا يريد المناقشة فيه ولا حوله قط ، فتتساءل بعد انصرافه الى الحمام اذا لم يختلط في رأسه الحابل بالنابل وأصبح اجهل من عقرب ، يبقى هكذا في عرينه منكبا على كتاباته وعلى دجاجته ، ما ذاق عذفا ولا عذوفا وكلامه كزبد البحر يتبخر تحت اجنحـة النوارس ، ويرفع جمله المكتوبة (بأي خط ؟) في مغبة سفينـة تعبر البحار واليابسة وتخترق القارات وحدود اللياقة وهو لا يشفق لا على نفسه ولا على أحد ، يقص ما رآه منذ سنة ١٩٤٥ ، ولا يهتم بشيء اخر الا ... يتقشف ويتزهد ولا يشرب الا الرايب ولا يأكل الا كسرة الشعير وعندما احدثه عن مرادفات الله التسعة والتسعين وعن الكلمات الدالة على ذكر الرجل وهي كذلك تسعة وتسعـون وعن الحروف الرخوة الثلاثة عشر وعن حروف الانوثة الثلاثة وعن .. يقول : أنف في السماء وأست في الماء (الوحـــل ؟ الطين ؟) ويحفظ الكثير من الامثلة ويخلق اخرى خلقا فيقول عندما أخطأ : تمشين بجانب حذائك يا سالمة ! بجانب حذائك ... ويغضب عندما اطالبه بالتأني في الامور فيصيح : تعلمين مدرس القرآن وقارىء « رأس المال » ؟ ليس الحثيث مكيثا ، لا ! افكار الردة والخونة... فأقول : « اللغة اقتصاد وسياسة . كل طبقة تصنف اللغات حسب مصالحها « يوافق » ، أضربي خمسة ويدور حول نفسه وقد جعل من احد اعضائه الوتد المركزي ، لكنه يبقى في حلقـه مفرغة لا يدري اين طرفاها . وسرعان ما يغير تفكيره ويتقلب في آرائه وهو أحول من ابي براقش وهكذا ، قبل هذه الخرافة حول التاريـخ ، كنا نسهر الليالي نتلاغز بالامثلة القديمة والحديثة ونتبادل الكلمات ونخترع ما ينقصنا منها ونكوّن اخرى استنادا الى حروف معينة ،

نغيّر فقط مكانها وننظر في القواميس الفلكية هل لها من معنى ، فنجد اننا ضربنا في الصميم واللغة بحرنا والكلمات سفينتنا فنبحر ونفتح في الكون هاوية ، نعمرها صوفا وقطنا ووسواسا وسبيخا وصدى ووشوشة وتواطؤا ...

أترقبه وأدخن ولا أشرب شايا وقد جف الماء واحترقت الغلاية ريثما يرجع من الحمام (وبعد أشهر يقول لطيف وأنا أقص عليه هذه الحكاية ، لكن لماذا لم تأت به الى الدار ليغتسل ويرتاح ؟ هل تخافين اقوال الجيران وغضب حميد ؟ أفما طردناه وتخلصنا منه ... هل تجبنين يا من خضت واقعة التوتة ... (يهزأ أم لا ؟ يتهكم أم لا ؟ لا اعرف ابدا) وانتصرت فيها ونحن نرتعش خوفا من يوم القيامة ... كان أحسن ... الحمامات اصبحت وسخة وتعاني من قلة المياه ... كان أحسن لو ...) واتذكر الليالي وانا وأمي نترقب عودة الاخ الضال ، ريثما ينتهي من تجرع الكحول والخمور والبيرة وكل كل ماله قدرة على التسكير به (ولطيف لم يشرب الا مرة واحدة في حياته ، يوم أقر على حياته العاطفية وميله الجنسي ، احتفالا بذلك اليوم المعهود ، وهو يحتفظ دائما بزجاجة من الكحول عندما يزوره اصدقاء الاخ الاكبر ، ويحرص على تجديدها بعد انصرافهم ، وانا كذلك لم أشرب خمرا من قبل ولم أشرب من بعد وصورة أخي تهوجسني) . وتسألني امي عن الساعة وهي أمية لا تعرف قراءة الارقام ولا الحروف ، اقول انها الحادية عشرة وأنا اكذب . والساعة الجدارية (تلك التي أفرغ احشاءها حميد وركبها من جديد ، في عام الطوفان المشهود ، وهي من اصل صقلي ، ورثتها أمي عن سلف كان يمارس القرصنة في البحر الابيض المتوسط والاطلسي وحتى في المحيط الهادي) عبارة عن آلية رهيبة تعمل على سحق الزمن تتراكض عقاربها في حركة متحمسة ومبالغ فيها وأمي لا تعرف قراءة الزمن ولا عندها دراية بتشعب الكون والخرائط الجغرافية والبوصلات البحرية

وملايين الافلاك • تسأل مرة اخرى : كم الساعة ؟ أقول : العاشرة والنصف • تحدق في . نسيت ما قلته قبل ساعة • العفو ، نصف الليل بالضبط • الحذر يملأ عينيها • فهمت أني أكذب • انها هي لم تغير الوقت والزمن الا بالشمس اما في الليل فليس هناك من بوصلة ! اين مأواها • اصبح قارئة الازمنة ونحن نترقب عودته• شاط الليل بعد ان جن ، وهو لا يأتي ••• كنت اخاف ولكنني اتفاعل برودة الدم ووسع البال • أمي تسبح • تتوسل الى الرسل والانبياء والاولياء الصالحين وتترك الله على جانب ، عند حالة الطوارىء ، أي الى ساعة ما يبيض الفجر نوافذ الحجرة بطلائه الحليبي • وعندها يتكسر الضوء على وجهها جذاذا ويبرز شفافية بشرتها الرخوة وزغبا خفيفا هشا يكسو شاربها • ولكنها لا تبكي ـ تبقى الدمعة سجينة العين ـ تطيرا • حصل الكرسي الاصفر على صبغة خاصة وقد بدأ الضغط يتصاعد رويدا رويدا داخل حجرة الاخ الاكبر • والحيرة في صدري ، تتضخم كدود القز وهو يتشرنق تدريجيا • أحدس بعلب البق تحت الفراش في خشبها العتيق المزخرف بزخرفة الهية . أمات برقية تلقح جمجمتي أخاف عليه • مقبضة الباب العاجية تكبر وتتضخم • كم الساعة الان ؟ أجيبها نفس الاجابة • وتحدق في • ويداخلها الشك • تقول : « لعلها توقفت » • أقول « لا ، انظري ، العقارب تتحرك وتكتكتها واضحة جلية » • الحجة قاطعة • وعندها يزيد وقع حبات السبحة في سرعته • أفتح كتابا • وكيف وقد تعلمت القراءة منذ عام فقط ؟ يبدأ القلب في الخفقان • الرعب يقتحمني • ماله لا يرجع والصبح يطل من النافذة تغلب النعاس على أمي وارتخى رأسها على صدرها ، وراحت تغفر وتتركني وحيدة مع لوعتي ••• أسمع خطوات مضطربة ، متثاقلة • أهرع نحو باب البستان . أفتح البوابة ••• يسقط على الارض ووجهه في الوحل يبلله بدموع التأنيب ••• اختاه •••

يرجع عم الطاهر بعد بضع ساعات • فيلمع وجهه الاملس من

فرط الحك والدك ، استبدل ثيابه القذرة بأخرى تكاد تكون أنيقة ، سرخ شعره بطريقة جديدة · لقد تغير تماما · لقــد صغر وشب وربح هكذا عشر سنوات · يترك ابتسامة خجولة تموت على فمه · يملأ الغلايـــة ويقوم بحركات كثيرة لاخفاء حرجه · أنتزوج عــم الطاهر ؟ يلتفت نحوي ··· يضحك · يقهقه ··· بنيتي ··· لا تمزحي ··· وأنا متزوج ·· أعني ··· أرمل · يضحك وتمر على عينيه سحابة الحزن والكآبة وكأنه تركها في الحمام مع الاوساخ والقذارة تتزحلق نحو البالوعات تحملها الى البحر ومن هناك الى السماء من حيث تمطر مطرا فاترا ··· عينا الكآبة من جديد · لكنه يتماسك ، يتراجع ، يبتسم من جديد وأغمض عيني وأترك رائحة الشاي والنعناع تقتحم مناخري وكل سم من مسام جسدي· أرتاح من تعبي ومن وحشتي ومن حنيني · وهو في حركته يحضر الشاي وأنا على مسمع أدنى صوت وأدنى قرعة وأدنى حس · أطلق العنان للسؤدد يغطيني ويلفني وكأن العالم على وشـــك الانتهاء والجو من حولي لطيف ، وديع ، أبوي ··· تحرقني استكانة الشاي وهو يمدها وبدون جسر ولا تنبيهة ولا مرحلة وسطــى ، يقول لي : « أنت من جيل الزلزال ، ولدت سنة ١٩٥٤ ·· أنت لا تعلمين عنه شيئا ··· حدثوك عنه ··· فقط ··· لكني شاهدته ··· أرسلني الحزب مع بوعلي طالب ، لنجدة المنكوبين ··· »

وهكذا أجد نفسي في مفترق الطرق مرة أخرى · نسي التاريخ ونظريته عنه وتذكر الزلزال الذي حطم المدينة كلها لقد شـاهدت بعض الصور الصفراء وقرأت بعض القصاصات الصحفية · تركته يتكلم وأغمضت عيني وكأس الشاي يحرق راحتي اليسرى حيث وضعته عن قصد وتركته يشويني وصوته يلهث : منازل مهشمة وأنقاض على انقاض وبيوت معوجة وأخرى مزهوقة مكثت هكذا بين الارض والسماء ولم تعرف كيف تفعل وماذا تفعل ، فاختارت ان تبقى معلقة ، وعجائز يدلفهن الجنون بلباس التفاهة فرحـن

يعرين عورتهن ويهددن السماء بقبضات عظيمة مخفية ويقهقهن بأفواه درداء مفجعة ، يحركن الارض بشوكات مصدأة ويكشطنها ويكحتنها بأظفارهن ، والغبار يغطي الشمس فتدخل في خسوف وكسوف ولا نعرف هل الامر يتعلق بالشمس او بالقمر . بالليل او بالنهار من غبار الرياح والرمال التي تنفخ على المدينة المسحوقة والمخوضة وقد دارت على دواليبها ألف مرة ، وتصدعت أسوارها وتشققت أرضها وتصلب حديدها وتحجـرت أشجار الحديقـة العمومية وتخشبت حماماتها الخزفية وتقلص حتى ظلها وماتت كل حركة فيها وتلوت صفائح المعدن بتعرجات عجيبة الشكل ، تحت تأثير الغليان الهائل الآتي من جوف الكون ... ثم زحفت مواكب الفئران تقضم تحت أعين الاحياء جثث الموتى وقد نخرها الدود وتكوم داخلها وتراكم بغليان فوضوي ، لا حد له ونخلها الصديد الممزوج بالدم ، وجثث الجيفة كذلك من كلاب وأحمرة وقطط وغيرها من الحيوانات والدواجن (دجاج وأرانب وبقر ...) وقد تقشرت الارض وسيطر عليها جذام المعادن الفاترة الرخوة وسيلان مشبوه فيه يجري من تحت الاحجار والصخور والردم والانقاض والحديد والفولاذ تعذبه الاف العلامات المتعرجة ، التائهة في شتى المهبات والمجاري وقد غطتها زخمة وطحلب العفونة المتفجرة من أنابيب المياه القذرة وأمعاء الجثث المتوزعة في ارجاء المدينة كلها ... وخاصة : طفلة صغيرة فقدت بصيرتها فراحت في مشية متسرنمة ، مقدمة للمارة ثديين ثلجيين صغيرتين مذببتين وكأنهما دملان قد خرما صدرها القطيفي نعومة . ثم ان التوتة العتيقة تبنفسجت جذورها وتعقدت عناقيد ، عناقيد منطلقة كالصاروخ من قعر الارض طفح تقيأته براكين مخفية ، وحمم غزيرة وخاثرة ولزجة ، تحلق عليها اسراب الخفاش وتخفخف بأجنحتها من

خلال الاغصان المتكلسة ، المعوجة ، المحروقة ، المتضرعة ، رافعة أذرعتها العظيمة نحو السماء ، داخل بوتقة من الهذيان التجريدي والمجرد من كل اشكال يمكن تشخصها وتصورها فتخرق الفضاء ببيتها الرهيفة وكأن الامر يتعلق برسم قامت بخربشته تلك الحرارة المندلجة من اعماق الارض ، وليس بشجرة صعقتها هزة أرضية عنيفة ورجفة كونية اعصارية لم يتخيلها مرجاف قط .

الفصل التاسع

كانت الساعة تشير الى الرابعة والنصف صباحا عندما دخل لطيف الى غرفته حيث يقضي معظم اوقاته بعد خروجه من المستشفى • كان يشعر بنوع من العنجهية المرحة لانه نجح في عملية اخراج التوأم الثالث من بطن أمه وقد كان في وضعية حرجة ، فلم يحضر برأسه كما هي العادة بل بمؤخرته ، فيصعب عمل الطبيب ويعرض الجنين حياته وحياة امه الى الخطر • انه يشعر الان بنوع من العنجهية المرحة ومن شعور لذيذ نتيجة قيامه بالواجب ومن حس بالراحة بعد ان صارح اخته في موضوع شذوذه الجنسي ؛ أما العنجهية فيمكن تحديدها في اصرار المرء على متابعة وحي الموهبة وغموضها مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة ، وفي قراره على مسايرة جاذبية التواضع المغبط والمشي في دهاليزه ومتاهاته ودواماته ، وكان الشخص - أي لطيف ، في هذه الحال - يستمع الى اغنائية دينية او الهامية ، ولا تكمن العنجهية أبدا في القيام ببعض الخوارق او في المشي على حبل علق فوق هاويتين • يدخل لطيف فراشه ومتعة الارهاق تعذبه وملايين الدبابيس التي تزرعها أخته تقرع الان رأسه وتنقر على جمجمته معزوفة الالف بترنيماتها الملحمية والتواءاتها المتعجرفة وسقطاتها المترقرقة وسكتاتها المنمنمة • وتخفت احشاؤه في جسمه فيما صدى المعزوفة يموت تدريجيا وفيما النوم يرشه بحبيباته المتخالسة المتسارقة والمتناثرة

ويفهم الان انه عاش طيلة اعوام وأعوام في عالم ملؤه الغيب والسترة والنفاق والخجل والتأنيب والتذنيب ، ولولا جرأة سالمة ، لبقي على هذه الحال الى يوم حتفه وهو الممثل - المتفرج في نفس الوقت ، يقبل بالشراسة الاجتماعية والفظاظة السادية ، مترقبا من وراء الظل وقفا الاشياء والعلاقات ان يكسر نورس مرآته الماقط ويعبرها بكل لياقة وبرودة دم . وفجأة يهطل عليه الوحي ، يكتسحه الوعي ويعترف بأنه كان مريضا مرضا عضالا وأنه دخل في دائرة النقاهة منذ ان تسامر مع اخته فصرخ لها عن حقيقة الامر واخرج من جيبه صورة الشاب الذي يحبه ويموت في عشقه ٠ ثم يتساءل وهو يتساقط في جب قطني يلولبه النعاس من وراء الكون ، فيما اذا كانت هذه العنجهية الجديدة التي أصابته منذ ايام قلائل آنية ومؤقتة ومتوهمة أم لا ؟ ولم تقل اخته كلمات التشجيع والتبرير والطمأنينة التي كان ينتظرها منهـا الا تلميحا واملاحا والماعا واشارة الى حتمية الموقف السياسي وان مشكله كشخص لا يهمها امره في حد ذاته انما الالمام بالامور والربط بين الاشكاليات هو في ظنها لوحده قادر على اعطاء معنى للحياة اذ يفسح للانسان مجالا لممارسة حريته وللتعبير عنه والشعور به وبشواذه وبطبيعته فتكون أشبه بالافلاك التي تدور في بوتقتها بصفة اعتيادية ومواظبة على وتيرتها السرمدية وهي ترمق دومـا الجاذبية الخلاقة المبدعة فتدفع جزيتها وضريبتها الى رب العشق والجنس ، فيعود هو الاخر بصفة مضبوطة وحسب قوانين وقواعد تنظمها الفصول الابدية فتزحف صعدا الى الامام ، مطحلبة كثافة الاقدار وعتمة الهواجس ورقة الحنين ٠

حدس القط الاسود مسعود أن لطيف كان في حاجة الى النوم وقد سمعه يدخل الى البيت في زلفة الصباح ولم يوقظه بموائه او بخربشته على الباب الموصد وتركه يرقد ملء جفنيه وكأنه هو الذي أنجب ثلاثة توائم ٠ استفاق لطيف في الساعة الحادية عشرة

من نعاسه وكأن أمه كانت بالمرصاد وراء الباب ، تتجسس أنفاسه وشخيره وفور توقفها ، هرعت اليه حاملة طبق الفطور مرصعا بفنجان القهوة تضيف اليها حبات قليلة من القرنفل وصحنا فيه فطائر تسبح في عسل الامومة والحنان ، وكأن رائحة القرنفل تزيد بهجة الصباح عمقا وشفافية فيحتسي وهو يشرب القهوة بها . الكون كله ورونقه وسطوعه وسناه ، فيقبل أمه تقبيلا شيقا ويداعبها ويمازحها ويمرر يده تحت ذقنها حيث البشرة رخوة وطرية وقطيفية النسيج ويلاعب القط « خذ بالك من سالمة ، يا مسعود ، خذ بالك من شرف العائلة يا قطنا الاسود والا ذبحنا حميد » . ويدغدغه فينبطح الحيوان وهو يخر ويهر ويطالب بالمزيد ، فيتركه ويهرع الى بيت الاستحمام ويبقى تحت المرش اوقاتا طويلة ، والماء المحرق يلذعه ويبقى صامدا اذ هكذا اراد ان يكون ، ارتخاء لاعصابه ومعالجة لربوه ، لانه هو كأغلبية الاطباء يكره الادوية والاقراص والحبوب الكيماوية . ينتهي من التحميم ويأخذ يترصد وجهه في المرآة ، فيدرك ان تهجيجات مزرقة انسالت من تحت عينيه عياء وتعبا ، ورث جلد خديه ونما عليه شعر الذقن وقد كان عليه ان يحلقه لكنه يكره عملية بسط الصابون وتدليكه بالفرشاة واحالته الى رغوة زبدية تغطي وجهه كله ما عدا الانف والعينين والجبهة ، فيضحك من نفسه وقبل ان يمرر الموسى ويحلق الشعر ، يفكر برهة من الزمن انه ممثل ياباني لمسرح النو أو الكابوكي وقد اصبحت الرغوة قناعا والصباح بهرجة ورائحة القرنفل تتابعه والقط يتحكك بأسفل منامته ويتمرغ على الارض مبقعة بقطع الشمس المتدفقة من وراء الزجاج ، وما ان ينتهي من عملية الحلاقة حتى يرى وجهه على حقيقته بلا قناع الصابون وكأنه أصبح مصبوغا بطلاء الجدة وقد تفاقمت على بشرته (ناعمة من جديد) لمسات اليود ورقشاته وهي تتناقض وشحابة الوجه العامة وصفرته . واذ هو على هذه الحالة ، يحس بأقدامه تنتفخ وتبنفسج نتيجة الارهاق الذي عانى منه البارحة في المستشفى

وقد كان يدور حول المرأة يخرج التوأمين الاولين بسهولة وينتظـر الثالث ، لا يريد الخروج (نكلة فيه ؟) وقد بقي واقفا من الصباح الى المساء (او رفضا من الجنين) ان يقطع صلة الرحم فيلفظ هكذا في الفضاء البشري فيتيه على وجه الارض ويكبر ويشيــخ ويموت فيما تروح المشاكل الحياتية والعائلية والاقتصادية تلاحقه حتى فراش الموت ، وأوقات القلق والسأم والغثيان ، تطارده حتى سرير الاحتضار والغيبوبة العضوية ، وقد علم - قبل الخروج من دهليز أمه الدافىء الفاتر الطري الهش - ان حياته سوف تكون ، لا محالة ومهما فعل وما قام به من اعمال جدية وثرية ومبدعــة وبطولية ، فشلا ذريعا ، ككل حياة وكل ممات ثم يترك لطيـــف الحمام والخادمة الصماء خديجة التي عوضت عمتي فاطمـة ، تترقب خروجه بفارغ صبر وببعض العصبية ، لتنظيفه وفتـــح النافذة المسبوكة ببحار الماء الحار فيصبحها لطيف بالخير ولكنها لا ترد على تصبيحته ، لانها طرشى لا تسمع وحاقدة لا تسامحه تعطيلها في عملها سواء أكان عندما ينام في الصباح او عندما لا يخرج من الحمام الا عند الزوال ، ولطيف يبتسم لعنادها ويتذكر سالمة فيتساءل عن الاسباب التي جعلتها ترفض التعرف علـى عشيقة من خلال الصورة الشمسية ، عندما اخرجها من جيبه اثناء تلك الليلة الغريبة وقد كانا يشربان للمرة الاولى الكحول ، وراح يبوح لها عما كــان يملأ قلبــه وأحشاءه مــن حب الى حد الفيضان وذلك على شكل دموع تبلل مقلتيه فلا تتجاوزهما ولا تنحـدر أبدا على وجنتيه او خديه • يعود لطيف الى غرفته وهو يتحايل مـع ربوه ويتسارع الى وضع الاسطوانة على الالة ، فيغطي حشرجته بايقاع معزوفة الالف متدحرجة (من أعلى الى فوق ؟ آه يا بشار ، اه يا ابن برد ، اه يا حضارة) من اعلى الصخور الانسانية وذبذبتها تموج الجو والجدران وحتى جسم العجوز خديجة وهي ، رغم صمها ، تدلك الحوض على وتيرة المعزوفة ، بدون وعي ولا شعور ، هكذا تلقائيا • اما الان فانه لا يبالي بربوه • يأكل فتاتا من الفطير

ويجلس على الاريكة ويترك العنان لجسمه يستريح من تعب العمل وعقبال النوم وحرارة الماء ، وهــو لا يعمل في المستشفى الا ليلا النهار كله امامه ، مفتــوح علــى مصراعيــه ، برغم ان المصــراع الاول ـ الصباح ـ قد تكالب ومضى وانتهى ، يعمل به وفيــه ما يشاء : يطالع ، يفكر ، يهتف الى حبيبه ، يتنزه في البستــان ، يترقب سالمة ، يكتب مقالا حول تقنيات الاجهاض الحديثــة ، لينشر في مجلة اجنبية ، بطبيعة الحال ·

أما سالمة فتقبع في مكتبها طول النهار ، تتصفح جداول دور النشر العالمية وتسجل على ورقة اسماء الكتب التي ستشتريهـا للمكتبة وخيوط الدخان تشرنفها والقهوة التي احتست منها عشرات الفناجين ، تضخم قلبهـا وتمرر لسانها والــورق والكتب وآلات الهاتف والمزهــرة والملفات المتكدسة علــى مكتبها ، تطوقهـا وتسميها احرازها وهي تعلم ان عندها نزعة تيمية بالورق وبكل ما هو مصنوع منه ، ولكنها منصرفة في عملها والسيجارة تكـاد تكون عضوا ناتئا وطبيعيا وضعه الله على شفتها كما وضع خالا على خدها الايسر وحفيرة رائعة على خدها الايمن ، يزيدان جمالها روعة وانوثتها طراوة وشبقا وطفولة وبراءة في آن واحد ، ولطيف يقول لها عندما تضحك فتتعمق الحفيرة وينصع الخال · « النقطة على وجه المرأة ، أروع ما في الكون والارض » ووجه سالمة يمتلك تلك الملكة التي تمكنها من خلق علاقات لامرئية تصب فيها وتتلاقى عندها · فما تعرف عليها شخص الا وأراد ان يلتقي بها مرة اخرى· الرجال يتفاعلون معها مثل النساء وما لاقاها احد الا وشعر انه يعيش مرحلة حساسة من حياته ، لكنها سرعان ما تفلت منــه ويرفع المرء رأسه فيجدها قد انصرفت وكأنها تتبخر ولا يبقى منها الا جاويها وشبهها ودادها ، وكأنها تذوب في دوار تغمره البهرجة والزقزقة التي تجذبنا بكيفية مغناطيسية نحــو ملتقى النقـاط ومفترق الطرقات ومركز الكون كما يجلبنا الحباب في الليل وأعين

القطط ساعة الاصيـــل ونظرة الام زمن الزوابـــع وايضا أشباح الاشجار الطفولية (التوتات) والصبورات المدرسية (حميد يرمي بممحاته / مبراته تحت جلباب المعلمة) وغرف النوم (غرفة لطيف تسامي غرفة سالمة) والساعات الحتمية التي تلزمنا على غلق ابواب الحلم (الجفون) ٠ وسالمة تعمل في مكتبها صاخبة كعادتها تفيض حيوية وغيظا وحركة وقد انقطعت منذ أسابيع واشهر عن بقية احبابها واصدقائها ومعارفها ، وتقضي أيامها بين العمل والعلاقتين اللتين كونتهما مع الطاهر الغمري من جهة ومع اخيهـا لطيف من جهة اخرى تكتشفه وكأنـــه بعث عليه لتعويض تلـك الرزية التي لم يبرأ جرحها ولم تلتئم لحمتها وهي تعانـــي منها بصمود وسرية وكتمان منذ سنتها التاسعة ، أي منذ وفاة اخيها البكر ، رغم بهرجتها وشعشعتها وضوضائها ومرحها وجمالهـا (الخال والحفيرة على كل خد) وهي مشهورة بمهارتها وشطارتها على تنشيط السهرات الودية التي تنظم عند الاصدقاء وحيـــث تصبح هي نقطة الضوء وصاحبة الفضاء حيث يحلق الناس مـن حولها كلما دخلت الى مكان ، فيدخل معها نوع من الجلاء والوضوح فيتسرب في الجو وفي داخلية الحاضرين مثلما تتسرب الشظية تحت الظفر ولا يمكن لاحد اخراجها من هناك ٠ وبعد العمل ترجع الـى المنزل والهاتف لم يتوقف عن الطنين ، أمـور تهم العمل واخرى تهمها هي ٠ استضافت وتضيفـــات ومحاولات العشاق القدمـــاء الخنوعة للاتصال بها من جديد وأصوات مجهولة تتضرع اليهـــا طالبة موعدا او وعدا ، فترفض وترفض، اذ لم يعد يشغل بالهـا شيء عدا جداول دور النشر ومبوبات المكتبات وفهارس الوثائق، الا عمها الطاهر واخوها لطيف ، ثم القط الاسود مسعود ، ثـم أبوها ، ثم اختهـا المطلقة امينة واطفالهـا الاربعة ، ثم الخادم العجوز الاصم . وكفاية بالله هموما وتدفقات ومطالب ٠ تعود الى المنزل واختها امينة في ورشة الخياطة تتصنع الطرز وهي انمـا تنهمك في ذكريـات الايام السالفة عنـــدما كانت الغرفة مملوءة

بالاخوات والمنسج الكبير يملأ الغرفة بشكله المربع الهائل وكأنه جمل ربض تحت مطر الاسلاك الملونة ، والصديقات والزبونات يتعرين لتجريب الالبسة الجديدة والفساتين الزفافية ، والجو يغدق بالشبق والدعارة والتلمس والانظار الخنوعة المتعطشة للاجسام العارية والصدور المتنافخة والعانات المتورمة والافخاذ المصقولة ، والبنات في هوج ومرج ومرح وحيوية ونشاط وقهقهة وهستيريا لذيذة ، وهن يتعاملن هكذا بهذه الطريقة وبصفة تلقائية ، عن غير قصد ودون اية دراية بأمور الجنس ، لكن جو ورشة الخياطة وتكاثر الانثوات والاختلاط وانتشار الروائح الجسدية وحكاية الاحاديث حول الزواج والرجال وحتمية اللمس وتصاعد الوشوشة، كل هذا المحيط وكل هذه التصرفات الصافية ، تعطي الحجرة حيث تجتمع الاخوات الكبريات (أمينة وكريمة ورحمة وسلوى وسعيدة) مناخها الخاص ودورها الذاتي وشخصيتها الفريدة من نوعها ، وعندما تتجرأ سالمة على الدخول اليها ، يطردنها ويعاتبنها : « أخرجي ، ماذا تريدين ؟ ماذا تفعلين هنا ؟ هذا ميدان الكبار ، لا يهمك ما نقول ، انصرفي ، انصرفي ... » وأمينة مطلقة الان وتسهر على تربية اولادها وتحاول استقطاب سالمة ، فتشفق عليها هي الاخرى وتجالسها نادرا وتتركها تتكلم وتتذكر ايام الشباب ثم ايام الزواج المرة ثم ايام الطلاق وهي تحرص على ربح ما يكفيها من المال حتى لا تكون عبئا على بقية العائلة وقد هرم الاب ولم يعد يشتغل ولطيف وسالمة يضطلعان بميزانية الدار وبالانفاق عليها بما يكفيها ، وتهتم سالمة بابن اختها الاكبر سليم وتشرف على دراسته وهو في سنته المدرسية الاولى وتعلمه كل الكلمات الفاحشة التي تعرف ، فاذا ما جاء حميد في زيارة الى العائلة يصدمه سليم بالكلمات الغليظة ويقول ان خالته هي التي تعلمها اياه ، فيغضب حميد وينسى أنه طرد من قبل لطيف ويعاود الكرة فيوبخ سالمة ويهددها ، فتقف له وتصمد وتتحداه وتهزأ منه ومن عقله ومن وصوليته ومن فضوله وزوجته وابنائه الخمسة

السادس آت عما قريب • اما الخادم العجوز خديجة فهي تفقد صمها عندما ترجع سالمة من العمل ، فتعطيهـــا علبة سجاير او صندوقا صغيرا من مسحوق التبغ او نفة او نشوقا او سعوطـــا ، وتجلس بالقرب منها بعد انتهائها من شغلها ، فتدخنان وتحاول سالمة استنشاق النفة ، فلا تقدر وتعطس وتبكي وتضحك والعجوز مصرة على تعليمها كيفية الاستنشاق ومن حين الى حين تذهـب الخادم الى قريتها وتعود بقليل من العرعار المخدر تدخنه مستعملة سبسيا صغيرا في خفية تامة وسر كامـــل فلا احد يعرف ذلك الا سالمة • فالخادم تثق فيها وتحرضها على تدخين العرعار ، فتحاول سالمة ولا يؤثر العرعار فيها ، فتغتاظ العجوز ، وسالمة تعـــرف دهاءها وقد فهمت من اول وهلة انها تتصنع الصم ، حتى تفعل ما تشاء وتتصرف كما تريد في امور المنزل خاصة بعد موت عمتي فاطمة التي كانت ترهبها وتستغلها وتتحكم فيها ••• تعـــود سالمة ولطيف ما زال على فراشه مستلقيا ، مرتميا ، يقرأ الكتب والمجلات ويحرر مقاله ، وتسأله لماذا لا ينشر بحثه هذا في مجلة وطنية ، فيضحك منها • « بريئة انت ، بريئة ••• الاجهاض حرمه الله وحرمته الدولة ••• دروشة ••• من يقبله ؟ من يتجرأ علـــى نشره ؟ » ويدخلان في نقاش حول الجنس وانحرافاته ، فيقـول لطيف ان اللواطة مثلا عند النساء وعند الرجال مظهر من مظاهـر الذاكرة السلفيـــة حيث كان الانسان العربـــي في عهد الاساطير الذهبية يرفض كل اشكالية جنسية ، والجنس عنده – على غرار الشعر – مادة الفعالية وميدانها ، فلا مبرر لفتح النقاش حـــول مسائل لا مجال فيها للكلام واللغو ••• فالجنس كان يمارس واصبح الان يدون في كلام الشارع والاندية والاماكن العمومية والسهـــرات والمقاهي • اما عن اللواطة فهي مجرد امتداد وتكأة للطفولة التي لا تعرف التفريق والتجزيء بين الذكورة والانوثة • ففي سن معينة يريد الطفل ان يكتسب فرجا والطفلة ان تكتسب قضيبا • ثم يأتي المجتمع والاخلاق المقوننة وتنزع عن الفرد تلك البراءة وتدرجه في

احد الامرين ٠ لكل صنف دوامته ٠ ومشكل المتخنثين أمثالي يكمن في عدم العبور من مرحلة الى اخرى فبقوا هكذا على غريزتهم الطفولية وعلى عفويتهم الاولية ٠ فأنا مثلا ، ابهتتني الطفولة واشهقتني ، فقبعت فيها وتقوقعت ٠ لا اريد الخروج منها ولا قدرة لي على ذلك . فمهنتي مثلا ، لم اخترها بطريقة عفوية وانما بطريقة طبيعية ، وان كانت غير واعية في اول الامر والامور بدأت تتبلور شيئا فشيئا ٠ فالرجل الذي يحشر نفسه في طفولته يميل الى الجنس المماثل : وهكذا فعلت وشربت الكأس حتى الثمالة فأصبحت طبيبا اختصاصيا في امراض النساء وفي توليدهن ٠ كذلك تبقى صلة الرحم ثابتة موثوقة ٠ وحالتنا حالة الشعراء ، اذ الشاعر ـ والقرآن يشهد على ذلك ـ هو الشخص الذي لا يملك البراءة فقط بل ويمارسها تلقائيا وفي حياته اليومية ، فهو رجل التجلي ، لانه قادر على استعمال وعيه ووضوحه وتعبئة كل طاقاته الابداعية في ملاحقة القضاء والقدر وحتمية التاريخ عبر فيافي المخيلة ، وهو يشعر بأنه قادر على الخلق لانه يعلم علم الحدس واليقين انه غير قادر على ترويض وتليين حوافي العالم وحواشي الكون وتخوم الاشياء ٠ لذا فكل شاذ ملاحق لانه مشوش ، والشعر والابداع شذوذ كالخنوثية واللواطة ٠ كلانا يخرق حاجزا مهما كانت نوعيته ، وكلانا يجلب لنفسه العقاب والعقوبة ٠٠٠ فبشار بن برد مثلا كان لواطا وشاعرا ٠ وأحد لم يعاقبه ٠ فأين بشارنا اليوم؟ يا سالمة ! وحتى ابو نواس يخصى ويدرس في المدارس تحت مقص الرقابة ويصبح علامة بيرة رديئة لا تشرب الا في عتمة حانات الفقر واليأس والقنوط ٠ اين جاحظنا ؟ واين قاضينا ؟ واين بصرتنا ؟ وأين حمدان بن قرمط ؟ ماتوا وثقافتنا اضمحلت وحضارتنا احترقت تحت غبار الشمس ونار الشموع ٠٠٠ يأتي المساء ٠ ينظر لطيف الى ساعته ٠ حان وقت الذهاب الى المستشفى ٠ سالمة لا تقول شيئا . ينهض لطيف من مكانه ٠ ينزع عنه منامته ٠ يلبس ثيابه ويخرج من الغرفة وسالمة واجمة حتى تأتيها العجوز خديجة وتطالبها

بسيجارة ، موشوشة وكأنها تخاف ان ينصرف الليل الذي اقتحم الحجرة بمجرد تحريك الهواء بين شفتيها · تعطيها علبة · تجلس العجوز وتقابلها مدخنة كبركان اشتعل فجأة بعد انطفاء دام قرونا عديدة ، صامتة ، ساكنة ، تبلع الدخان وتلفظه من منخريها بقوة عجيبة فيرسم في الجو المتطابق شرائح بشرائح ، خطان أبيضان فيهما زرقة وكأنهما باخرتان بخاريتان تعبران المحيط الهادئ ولا يسمع في البيت الا هرير القط مسعود ، وبعد سكون طويل ، تتفجر العجوز التي تتصنع الصم · « ارتحنا منها عمتي فاطمة ! الحق ، ماتت وارتاحت وريحتنا · كانت حابة تقورن ··· » وسالمة لا ترد عليها والعين تذرف الدمع شفقة على نفسها وعلى اخيها لطيف وعلى عمتي فاطمة التي ماتت وقد تجاوزت المائة ، وعلى علب البق التي بقيت فارغة شاغرة على رف خزانتها وعلى العجوز الداهية التي تدخن العرعار وتستنشق السحوق وتغتاب الاموات وتغني اغاني المواخير (الوشام عالسرة والضرة مرة ···)

لم تبك عمتي فاطمة يوم الجنازة · لم نر شيئا وسمعنا أشياء كثيرة كانت تأتينا من الدار ومن غرفه ومطبخه ونحن الصغار (انا ومهدي وسعيدة) نلعب تحت التوتة · علمت انها لم تبك على موت أخي البكر · علمت ذلك من فم فؤاد وقد هاجر الى الخارج وتزوج وأنجب ولدا وبنتا واستبدل جواز سفره بجواز البلاد التي يعيش فيها ولم يعد ولو مرة لزيارتنا وقد نسي حتى وجودنا ونحن نخفي الامر على أمي ونضع رسائل نكتبها بأيدينا في صندوق الرسائل المعلق على البوابة الهرمة وقد تآكلها الصدأ ، ونقرأها لها ونكذب عليها ونقول انه يدرس في معهد الفيزياء النووية التابع لمدينة امريكية ، وهو في الحقيقة يقود طائرات ضخمة بين القارات ويسكن باحدى ضواحي باريس وتجنس وخجل من عملته هذه ، فلم يطأ ارض الوطن منذ العهد الذي سافر فيه وترك البلاد بلا رجعة · اخبرني فؤاد عن موقف عمتي فاطمة ولم افهم الى يومنا

هذا لماذا حدثني مثل هذا الكلام ونحن نعلم كلنا والجيران معنا وسكان الحي كلهم ، انها غير قادرة على التعبير عن شعور اخر ، دون الغضب والضجر والشتم ٠

(أولاد القحبة ٠٠. أنفخي ٠ حبيتو تتزبو قبل ما تتعنبو) وهي ما أحبت أحدا في حياتها (سوى فؤاد) ولا شيئا (سوى التنظيف والقيام بالواجبات المنزلية) ولا حيوانا (سوى السلحفاة التي كانت تخافها وتهابها وتتبرك بها) وذلك رغم همجيتها وعدم احترامها للطقوس الدينية ، لا تصوم ولا تصلي ولا تريد الحج الى مكة والمدينة ، شعوذة منها وتطيرا ٠ تسرق الخبز وتخفيه عن الاعين وتعطيه فؤاد عندما يدخل الفراش ، تقاسمه اياه وتهدد عصافير الحديقة اذا اكثرت الزقزقة تبالغ فيها ثم انها تشير الى السماء بقبضتها اذا ما نسيت نفسها وتهاطلت مطرا مدة ايام طويلة ، شتاء او صيفا (عام الطوفان وواقعة التوتة) وتتطاول على أبي اذا ما حاول ضرب فؤاد او توبيخه ، وتجري وراءنا ولا نمنع منها ولا ننجو الا اذا جعلنا بينها وبيننا قرص الشمس الكبير ، عند الاصيل ، فيبهرها ضياؤها الشعاعي ، وتدمع عيناها البراقتان ، فتعود على اعقابها وتتركنا نتسلق التوتة ونهزأ بها وهي تشتم وتسب ، فيفيض نابها على شفتها السفلى وتخال الينا في ديجور النهار فزاعة رهيبة اخترعها فنان ماهر ماكر ، فنريد تعليقها فوق الشجرة ولكننا نخاف في نفس الوقت ان تجف وتيبس تحت حرارة الشمس ٠ لم تبك وانا أستغرب ذلك يوم أخبرني فؤاد به وكأنه كان يفشي بسر الدولة ٠ أذكر انه استاء من عدم مفاجأتي ولقد كنت اعرف عمتي فاطمة أحسن منه لانه كان متمسكا بتلابيبها دائما ولا يعرف منها الا رائحتها الكريهة ، أما نحن فكنا أكثر منه موضوعية خاصة واننا نعرف كذلك ان لها وراء غطرستها وتوحشها وخشونتها كان قلبا يفيض بالحنان والطيبة وحب الاطفال ، هي العانس (لماذا لم تتزوج ؟ وانا مصممة على

تقليدها ...) المسكينة ، المسنة ، الشاحبـــة ، الهزيلة ... لا تعرف كيف تبكي ومن اين تبدأ . وأنا أيضا لم أبك طيلة المأتم وقد فهمت وقد لم أفهم ، كانوا قد حشرونا تحت التوتة وكان القط الاسود مسعود معنا (ليس هو نفس القط الذي يعيش معنا الان وانما كلما يموت قط أسود الا ويخلفه قط أسود كنا نسميه دائما مسعود) واذا بمهدي يتسلق شجـرة التوت ويسقط من أعــلاها فتجرح ركبتـه ، فلا أبالي انا بـه ولا بدمه فيمتصه ولا يتركه يذهب سدى ، ويضحك ويأخذ يتمرغ على العشـــب بعد وقف النزيف ، وسعيدة تصعد الى اعلى الشجرة وانا انظر اليها من تحت وأرى سروالها الملطخ بـــ ؟ يختفي رأسها ، ثم ظهرها ، ثم مؤخرتها ، ثم فخذاها ثم رجلاها ، ثم قدماها ، وأوراق التوتة ترتعش ويأتينا من المطبخ قرع الاطباق والاقداح ومن فوق ، أصوات مدمدمـــة ، مرتلة ، مذكرة على نفس الوتيرة مدة ثلاثة ايام كاملة وسعيدة تصيح من اعلى شجرة التوت : « أراهم ، أراهم ، يخرجون مـــن الدار ... اصعدي سالمة ... » ولا اتحرك انا وكنت اعلم انهـــا تكذب لان الاصوات لم تتغير وتيرتها ولا مسمعها وانا انظر الى مهدي فيما ينتفخ سرواله بين فخذيه ، وهو يأكل ورق التوت كدود القـــز .

لقد حاولت انقاذ ما تبقى من البـــق دون جـدوى وراح يبيـــن الخوف أشواطا بعيدة ، فأعطيت البق ورق التوت ولم يجد في ذلك نفعا ، وأعطيته ورق الخس كنت أختلسه من السلحفاة ولم يجـــد في ذلك أيضا نفعا وسألت المعلمة فضجرت مني وقالت : « أتركيه والا مرضت » ولم أفهم أبدا ماذا أصاب البق ، كان يموت ويموت وقد ورثته منه مع كراس مكتوب عليه بالقلم الاحمر كما ورثت هذه العلب الملونة ، وأدخل الثانوية ولا أفقه سر هذا الوباء وهذه العدوى اللذين انقضا على البق وكان هو يروضه ويدربه على القفز ويحلم أن يكون لسيرك البق يوما مديرا . وأدخل الثانوية ويأتينا

أستاذ التاريخ ويغضب عندما يرانا نكتب على أوراق الامتحان البسملة ، بل نزخرفها ويقول هكذا : « بنات القحبة ٠٠ ما دخل بسم الله في درس التاريخ ٠٠ تريدون اغرائي ومحفظتي معي لا تفارقني وأنا لا أفارق كل مواخير المدينة وأضع على الارض محفظتي المملوءة بأوراقكم أكداسا مكدسة واصعد عليها لاشتري الفيشات والمعلمة من وراء العارضة المستطيلة وهي عالية ولا أقدر الوصول الى المبسط الا اذا استعملت محفظتي درجا ، وأنتم تكتبون اسم الله واسم النبي وتزوقونه ٠٠٠ أتحسبونني غبيا .٠٠ ممنوع البسملة ٠٠٠ البسملة ممنوعة ٠٠٠ نفاق وتطير لا علاقة تذكر بين الله والتاريخ والجغرافية وان كان تاريخ وجغرافية العالم الاسلامي٠ »
كان قميء القامة ، شعره كثيف ومفلفل ، لا يحترم دينا ولا ملة ، صريحا ، شيقا وكان عندما يفسر لنا التاريخ العربي ، لا يشفق على الملوك والملكات ولا على الاسر المالكة ويقول : « أول انقلاب عسكري عرفه العالم العربي كان سنة أربعين هجري ٠ يوم الفاجعة ٠ يوم قتل معاوية بن ابي سفيان علي بن ابي طالب ٠ من هنا نبدأ ٠٠٠ ٠.٠ لا بسملة ولا نفاق ٠٠٠ التاريخ علم ، يا بنات ٠» ويدخن ويستعمل الفكاهة ونضحك أثناء الدرس ونسقط كلنا في شراك حبه وهو قصير القامة ، نحيل الجسم ، مفلفل الشعر يتركه ينمو ويتهول ويتموج وكأنه شجيرة حاملة الكرة الارضية ، بشع المنظر وصريح ٠ «كل من تبسملت أدفع لها صفرا ٠٠ التاريخ علم يا بنات ٠ بلا دروشة ٠٠٠ بلا نفاق ٠٠٠ نقطة البداية ونقطة الانطلاق اغتيال علي ٠٠٠ انظروا الى الخريطة ٠.٠» يدخن ٠ يهيج ٠ يمزح ٠ يغضب «انظروا الى جدول السلالة المحمدية ، تفهمون ، لكن دون طلاسم ولا شيء في اليدين ٠٠٠ هذه حمراء ، هذه كحلاء ٠٠٠ شكون يحب يلعب ٠٠٠ وفي آخر السنة أذهب الى مكتبه ٠ أحدثه عن البق ٠ يأخذ بكتفي ٠٠٠ «أنت أخت فلان ٠٠ كان صديقي ٠٠٠ نحن من فئة واحدة ٠٠٠ لا تفشي السر ، سأحدثك عن علب البق ٠٠٠ كان نَدّي ٠٠٠ حضرت جنازته

٠٠٠ نحن من سلالة واحدة ٠٠٠ سلالة الرافضين والمغضوب عليهم ٠٠٠ لكنك، صغيرة .٠٠ سوف تفهمين فيما بعد ٠٠٠ قتل ضابطا أثناء مشاجرة ٠٠٠ خنقه بيديه ٠٠٠ كان قد شتم العرب ٠٠٠ فهرب من الحانة ٠٠٠ طارده ضباط آخرون وأطلقوا النار عليه ٠٠٠ يقال انه مات بين أحضان أمه ٠٠ هل هذا صحيح ؟ ٠٠ »أقول «لا أدري ٠٠٠ نحن لم نتحدث عنه أبدا في المنزل ٠ كانت أمي تبكي خفية ونحن حشرونا تحت التوتة يوم جنازته ٠٠٠ لم نر شيئا ٠٠٠ ولماذا علب البق ؟ صحيح انه كان ينوي ترويضها وفتح أول سيرك للبق ، فريد من نوعه في العالم كله ؟»يضحك ٠٠٠ يقول«: لا ، لا ، كان بهلوانا فقط ٠ مهرجا ٠ هازئا ٠٠٠»

تغير الطاهر الغمري ٠ لم يعد نفس الرجل ٠ أصبح منزله نظيفا وقد ألصق الصورة التي ما كانت لتفارق جيب سترته الايسر ولا يحمل سواها ، على الجدار المقابل ، بعد أن طلى الحجرة بالجير الابيض وغير موضع الاثاث والاشياء ، بين عشية وضحاها ٠ وبنى زريبة للدجاجة وديكها خلف الدار القصديرية ، وقفصا للطيور مشرعا لكل الرياح ، لعلها هي الطيور المبلولة التي كانت تطاردها عمتي فاطمة ، حتى اذا ما عادت قطنته على هواها ٠ وأخذ ، وكأنه ألمت به حمى سالمة المعدية وحركتها العصبية وضوضاؤها المعتادة أخذ يرصف الكتب ويصفصف الاواني ويحك الغلاية المبعجة ويزيل عنها سناج الاعوام السوداء وسخام البلبلة الذهنية ، مستعملا في ذلك فرشاة حديدية مثل تلك التي كانت تستعملها العجوز المعمرة المائة ، وينظم الفضاء الشحيح بكل مهارة ودقة ويوزع المكان بلا حرج (ولا مبالاة) غير مبال بحدود المساحة ، ويفتح نافذة في الحائط حيث كان الرسم الوهمي الذي سقطت في شبوهته سالمة لاول وهلة ، فاتسعت الحجرة وتبلور جوها وتشفف مناخها وكأن جدرانها قد أزيحت من مكانها العادي ووضعت بضعة أمتار أبعد مما كانت عليه ، لتوسيعها وتجميلها وتفخيمها ٠ وكأن الطاهر الغمري قام

بهذه التغييرات الجذرية وأشرف عليها رغبة منه في أن يكون له مكان مناسب لاستقلال سالمة وقد أفزعه غيابها ، فقرر أن يرتب البيت بطريقة محكمة فيبوب ذهنه بكيفية دقيقة ويتجنب اذاك بينه وبينها كل الحزازات وسوء التفاهم ، تأهبا منه للتراجع تدريجيا وبكل أناة في ما صدمها به في تحديد التاريخ ٠ وهكذا فحبس ذاته يومين أو ثلاثة في داره وهو ينضح عرقا ، محاولا تأديب الدجاجة والديك وقد تعودا على الفوضى والبلبلة والتلويث بدون مراقبة صارمة فنجح في محاولته وباضت الدجاجة في الوقت الذي انتهى فيه من تلميع الاواني وضبط الامور والسيطرة على الميدان والاخذ بزمام الامور فيعلق الصورة الاسطورية على أحد الجدران ، وينزع الغبار المتراكم على اللوحة القرآنية المزخرفة (تبت يدا أبي لهب ٠٠٠ وامرأته حمالة الحطب ٠٠٠ في جيدها حبل من مسد) وعاد الى كتاباته بعد أن فرغ من قلب الاوضاع وتغيير المجاري العادية للامور ، لكنه ترك خطه النملي والمتلولب واستعمل خطا جديدا يتصف بالدقة والتفتح والانسيال كأنه تعلمه من جديد وغير لون صمغة باستعمال عقاقير خضرته وزادت من اتساق الكلمات وأناقة الجمل وطرافة الاسلوب ، وهو ينظر من حين الى آخر الى الصورة المعلقة على الحائط نظرة تعبر عن عرفان بالجميل نهائي وغير مشروط وأبدي وكأنه يطالب رفاقه الذين ماتوا كلهم أن يغفروا له زلته وهو يعترف الان وقد عاد الى حاله الطبيعي وبدأ يمحو الذكريات المحمومة ، ان الكلام تجاوز مفهومه للتاريخ فكان من واجبه ليس فقط اعادة النظر في رؤيته للتاريخ (التاريخ لا يصنع ولا يصنعه أحد ، إنه كالعشب لا نراه ينبت ساعة ينبت ٠٠٠) بل واعادة النظر أيضا في أجزاء حياته وتفاصيل معاشه وكيفية عزلته ٠ وهو يعلم ان عليه الان أن ترميم الاحداث من جديد وأن يشكلها بطريقة أخرى وأن يتصورها ببرودة دم وأن ينفض عنه غبار الموت والانتحار والزولان والخوف وأن يتخلص من كوابيس الدم والامعاء والمجاري

المسدودة بروث التاريخ وأزبال البشرية وجنون الانسانية ٠ اذن فهم حتمية مراجعة كل النتائج التي توصل اليها واستعمال تلك القدرة الخارقة التي يمتلكها الانسان على النسيان وقد تعنت منذ هروبه عبرالجبال والاودية والفيافي والقرى وحتى المدن وقد علم أنه حكم عليه بالموت ذبحا لانه يعتز بعقيدته فالتزم النزاهة مع نفسه ، فاعتزم على الرفض والحقد والتمرد ليس فقط على من خانوا ثقته والعشرة والمصير المشترك بل وعلى شقاء الانسان عامة وعلى تلك الحتمية الكريهة التي تفرض عليه أن يمارس الشر فينقم ويحقد ٠ كل هذه الامور تصرفه عن كل شيء أو كل شيء يصرفه عن هذه الامور وهو منهمك منذ بضعة أيام في تغيير تفاصيل حياته اليومية وجزئياتها ، ليس فقط ليبهر سالمة ويسترجع حنانها وعطفها وصداقتها بل ولاسباب أخرى كذلك، **يظنها مرتبطة باليأس والسأم وعدم احتمال هذه الحياة المخفية المكتومة الكتيمة التى اختارها لنفسه** بما فيها من أعباء وأوساخ وتعاسة ، على أنها تبقى في الحقيقة غامضة ، فيترقب مجيء سالمة وهي مشغولة الاوقات لتراكم الاعمال في الخزانة العامة التي تديرها والاجتماعات السياسية والنقابية التي لا تكتفي بحضورها بل وتعمل على تنشيطها ، فعلاقتها الجديدة التي أصبحت تربطها بأخيها لطيف وحتى الدقائق المعدودة التي تكرسها لابويها وأختها المطلقة وأبناء أختها الاربعة والخادمة خديجة المتداعية بالصم والقط الاسود مسعود ٠

والسلحفاة تكاد تنساها ، وتنسى حتى وجودها لانها لا تبرح حجرة أمها حيث لا تدخل هي ابدا لانها تعلم الآن علم اليقين أن أخاها قد مات فيها وتلفظ النفس الاخير على زريبتها ولطخها بدمه وخضبها بدموعه ، فتخاف أن تجد ولو أثرا واحدا أو نمرة مشبوهة أو شامة مرسومة على حبكة التول المتدلي على النوافذ أو ٠٠٠ فيترقب - الطاهر الغمري - اذن زيارة سالمة وقد تصالحا بعد أن أتته بالديك وأرسلته الى الحمام ولم تعرفه عندما رجع ، أملس

الذقن ، مسرح الشعر ، لابسا سروالا أنيقا وسترة من كتان الصين الازرق وحذاء مطاطيا يزيد في خفة مشيته وكأنه لا يترجل وانما يزحف أو يطير على مخدة حشيت بالمرونة والتمغط تعلو سطح الارض بسنتيمترات قليلة · يكتب ولا ينقطع عن الكتابة لكنه يعتني بنفسه وجسمه وثيابه وخطه ودواجنه وصرامته وتغيير الهواء في حجرته وتزيينها بأزهار طبيعية بعد تخلصه من الوردة الصفراء الاصطناعية الابدية وهو يتحايل على سالمة ويسقيها ماء حتى لا تفهم أن امكانياته المادية لا تسمح له بشراء وردة صفراء كل يوم وقد أصبح سعر الازهار باهظا على غرار الاشياء كلها · تغيرت مشيته وتغيرت نظرته وكأن الغشارة التي كانت تكسوهابصفة دؤوبة قد بدأت تتبدد ببطء وصرامة وقرر أن يترك على الهامش مشكل تحديد التاريخ ، حتى يناقشها في الامر بتعقل وسكينة ، ثم يتخذ قرارا نهائيا بالنسبة الى هذه المسألة التي أصبحت رمانة الشقاق بينه وبينها ويحدث أن كل ما في الامر انه مجرد سوء تفاهم وكيفية طرح المشاكل واشكال لساني لا أكثر ولا أقل ··· ويتساءل وهو يكتب عن الاسباب التي تضغط على المرء فتجبره على الكتابة وعلى سرد الاحداث وعلى التكلم لنفسه وللناس عن مسائل تكاد تكون تافهة خاصة وانها لا تهم في الحقيقة أحدا ، ولكنها ضرورية يفتقر اليها كل مجتمع بحيث انه ما لم تتوفر له فقد شخصيته وجذوره معها ، كما يفتقر الى الاواني الصغيرة والاشياء التافهة غير المفيدة ··· يتساءل ويحاول تركيب الاحداث من جديد (كل الاحداث التي عاشها منذ شهر ماي ١٩٤٥) ويحاول العثور على معادلات لفظية تواكبها وتعبر عنها بوضوح ورزانة وثقل وأوزار ، وهو لا يرضى أن لا يترك ما فعله مدة خمسة وثلاثين عاما ولو أثرا بسيطا ويموت هكذا كما ينفذ الحلم في النوم ويهترىء في اليقظة ، ينساه المرء ولا يتذكر منه متى يذكر الا القليل القليل ، يرفض أن يتفسخ عذابه الفظيع وتنذوي معاناته الرهيبة وتتنسل مأساته المهولة ، تحت خميرة الزمن وعرق القيظ وممحاة النسيان ··· وذات مساء

عند العصر عيل صبره وفرغ من رغوة الانتظار وترك العمل الكتابي ، على أن يبذل جهدا يائسا في التركيز النفسي على ذاته ، يريدها أن تأتي سالمة اليه فورا لانه اعتاد حضورها في غربته ولانه يصبو الى غلق ملف النزاع القائم بينهما حول تحديد التاريخ ويلتقط حبات الرمانة التي تفتتت قشرتها وتفجر محتواها وأصبحت حاجزا يعيق علاقتهما • لكنه رغم ما فيه من رغبة جامحة لرؤيتها لم يتراجع بصفة نهائية عن فكرته حول التاريخ ، انما يترك الباب مفتوحا للنقاش والامكانيات حبلى بالافتراضات والمفاهيم محشوة بالتفاصيل • وينسدل الليل ويسيل النهار فيعلم أنها لن تأتي هذه المرة ، فيتساءل من جديد عن معنى الكتابة ومغزاها وعن أهدافها وواعزها وسببيتها ومبرراتها فيقول في قرارة نفسه : لعل الاحداث والوقائع والحوادث تأخذ في الوجود بطريقة ذاتية ومستقلة عمن يعيشونها وما أن تصنف في قالب الكلمات وتبوب في اطار الجمل وتصاغ في لحمة الاسلوب والاستطراد والبنية الكلامية والهيكلة اللسانية ••• حتى تسلك طريقها بنفسها فلا تحتاج وقد رصفت كلمة كلمة ، وسطرا سطرا ، ودونت كتبا كتبا ، الى شهادة شاهد عامة ولا الى شهادته هو الرجل الهزيل النحيف الرهيف خاصة ، فتستغني هكذا عن كل مساندة بشرية ودعامة انسانية وكل المشاحب مهما كانت نوعيتها ومهما كان مصدرها ، وكأنه باستعمال الكلمات والجمل والفقرات والفصول (فصول الكتب لا فصول الاعوام والسنين) انما يحاول اقتلاع العنف منه ودفعه عنه ، واقتلاع كل هذا الرفض الذي اتخذ له من روحه مقرا ومن شعوره له منزلا ، فيصبح لعبة جنونية بين أيدي الاخرين أولئك الذين على ما يزعمون يصنعون التاريخ ويستعملونه ويستغلونه ويهددونه بالقتل - وأكثر من ذلك - بل ويحاولون تنفيذ حكم الاعدام فيه ذبحا بالخنجر المتصدىء الحافي ، تنكيلا فيه وفي أمثاله وأشباهه الذين يظنون أن للتاريخ مجرى وتيارا جارفا ، يهز الطبقات كلها عند الاعصار ويحطم الحواجز كلها عند الحاجة وعند الضرورة ويفهم

اذاك أن الكتابة بامكانها تصريف الخوف البشري وتفريغ الافكار الثابتة المتراكمة في جب كل انسان ، وأن الاعمال التي قام بها من عمليات حربية ونضالات حزبية وخطب ثورية ، انما هي كلها أمور آلية ضخمة ينفلت منه فهمها وهي جزء من أرجاء الكون الضخم وحبة رمل لا تقدر حتى على عرقلة الامور السلبية والمظالمة وعرقلة الزمن والساعة الجدارية التي حدثته عنها سالمة وهي - أي الساعة - موروثة من أحد أسلافها كان يتقرض في بحار الله ويقتحم التاريخ على حسابه وبطريقته الخاصة مستعملا عنفا آخر ، لا علاقة له بالعنف الذي كان يستعمله في وجه الاجنبي وهو يأخذ ، في نفس الوقت ، بثأر بو علي طالب وسيد أحمد والحكيم وبو دربالة الملقب بالالماني وحتى بالثأر من نفسه هو الطاهر الغمري ، مدرس القرآن ومنظم الاضرابات بين الخماسين والفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين الذين يعملون لتفخيم اموال الاغنياء وتضخيمها وتضخيم فائض القيمـة ...

والواقع ان سالمة لم تنسه وانما كانت ترتب أمورها الداخلية والخارجية وتعتني خاصة بلطيف الذي أصبح - مؤقتا - شغلها الشاغل وهمها الاساسي وهي لا تتوقف عندما تجالس في خلوته الحديث عن عم الطاهر ، كما كانت لا تفتأ تقص على عم الطاهر ما يخالجها من ارباكات وشكوك فيما يخص لطيف . أما الان وقد شاهدت التغييرات التي أدخلها ساكن « دار السعـادة » على حياته - وهي ما زالت تترقب منها الكثير والاكثر - فقد ارتاحت وأراحت بالها من مشاكله وهي تعلم رغم كل هذا أن مسألة اساسية تبقى معلقة بينهما ، ألا وهي مسألة التاريخ وفحواه وتحديد آفاقه وصلاحيته ، كما تعلم ، وهي تتوقف عن زيارتها له ، انه لا يـزال يزاول العادة السرية ويذهب الى ضريح سيدي عبد الرحمان ليحرق الشمـع ويتبـادل الرسائـل مـع العـذارى الحسنـاوات والمطلقـات المسكينات يشفق عليهن ويوبخ نفسه ويلومها لانه لا يقترح على

احداهن الزواج فلعله يفلح في اسعادها واخراجها من دهاليز التذرعات وشعوذة الخطاطين وأكاذيب الدجالين وشطحات الخبراء في التنجيم وعلوم الفلك والابراج والمستقبل والعرافين ... وهو يشرف على تدبيجها (الرسائل) وكتابتها بخط مزخرف جميل ، لا لغرض ما ، أو لبغية واضحة وانما لمجرد تأثير العادة التي تسري فيه متوغلة في حركاته واشاراته ولمجرد المزاح واغتنام الفرصة التي تمكنه من القيام بتحليل اجتماعي يقوم به ذهنيا ، خاصة وهو يعلم أن الصبايا والنسوة يحسبن كتاباته حروزا يضعنها في الماء عند العودة الى المنزل ويشربنها تبركا وطلسمة وعربسة وتطيرا وهو (لطيف) أصبح لا يفارقها ، يهتف اليها من المستشفى مازحا مدعيا أنه يريد الاستماع الى صوت امرأة لا تشكو من تضخم في الطيحان أو من التهاب في الرحم أو من أوجاع المخاض ، مثرثرا ، متغاليا ، مبالغا ، مضيفا أنه يشتم رائحة صوتها عبر الاثير وعبر خيوط الهاتف اللاسلكي ، تاركا مشاوراته الطبية ، مستنشقا عذوبة حنجرتها فيها محة وبلة وبحة « بالت سعاد فقلبي اليوم مبلول » تقولها متذكرة دروس الاستاذ ابن عاشور وهو يدرس العروض فيقول مترنما «الوزن يا بنات ، الوزن ، مفعول مفعول مفاعيل : بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها بالـ ... الوزن يا بنات ...» مترنما ، صاعدا ، نازلا ، وصوته يرن ويدوي وهو يزيد على سكر الخمر الذي يشربه اثناء الغذاء ، سكر الشعر الغزلي ، ويبالغ فيصرخ صراخا يرتجف له المكان ، استفزازا وكراهية في الاساتذة الاجانب ، يعرقل عملهم ويدخل البلبلة والفوضى والارباك في عقولهم ... هيا يا بنات : فعول .. بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... وفي الساحة يطلقن العنان ويضحكن ويرددن : بالت سعاد فقلبي اليوم مبلول ...) ونخوة اكتشفها منذ ذلك اليوم المعهود ، وهو يصارحها عن أمره ويفسر لها أسباب الشذوذ والانحرافات الجنسية حسبما تعلمه ، وهو يدرس الطب في كتب التحليل النفساني ، ويشرح لها أن اختياره مهنته هذه لم يكن عرضا وانما لغاية واضحة جلية

وغـامضــة وخلفيــة في الـوقـت نفســه ٠٠٠٠ وعنـدما يتــلاقيان فـي حجــرة أحــدهمـا والقـط مسعـود بينهمـا يمــوء ويهــدر ويتبختــر ، وبالــرغــم مــن أن المسألــة كلهـا مسألــة شهيــة للمعرفة وحب في الاطلاع قديما منه كان أم جديدا ، عتيقا كان وباليا أم معروفا ومتغلغلا في الطقوس والعادات الاجتماعية والنفسية ، فقد كانت سالمة مولعة بمثل هذه الشهية وبمثل هذا الولع ، وبمثل هذا الاطلاع على الامور في وجهها وقفاها ، في عينها ومخفيها وكأنها مريضة بتتبعهـا للتفاصيل والجـزئيات والمحذوفـات والاسقاطات والاغفالات (عرضيــة كانــت أم لا) والافعــال المنتكسة والــزلات اللسانية والهفوات اللغوية الخ ٠٠٠ تتلهف الى ما وراء الاشياء وما وراء الكون والضمير والوعي والحدس والبشرة والنظر والذهن وكل ما اعتاد اناس على كتمانه وعدم التكلم عنه نفاقـا أو عادة أو غريزة أو طبيعــة أو تربيــة ، فتستمـد معطياتها ومادتها الخام وموادها الخيالية من ترهات الامور وعجينة الثانويات وصمغ الحبر السرية التي تتدفق بها رؤوسنا ، فتمحو بسرعة البرق كل ما هو تلقائي وطبيعي وتعوض عنه بالصور المكـررة والامثلة المحفوفة والقصائد المعروفة (بالــت / بانــت سعــاد فقلبــي اليوم مبلول متبول ٠٠٠) وسورات قرآنية (وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ٠٠٠) ورواشم سلبية (الملح يملح والسكر يحلــي والقارص يحمض والحامض يضرس ٠٠٠) فتــاة تطرح الاسئلة ولطيف يجيبها بكل صراحة ويبوح لها بأسراره ويقول لها انه يحب رجلا واحدا منذ ان كان طالبا في الكلية وصديقه يحبه أيضا ويرد له على حبه ، وذلك على الرغم من كونه متزوجا قـد أنجـب طفلا واحدا فريدا من نوعه وكأنه لما تزوج من احدى زميلات الدراسة كانت هي على علم بميله الجنسي ، انما أراد أن يرضيها وهي تموت بــه عشقا وأراد أرضاء أبويه وبخاصة الاختفاء وراء وقار الزواج ومـا يحتوي عليه من مفهوم اجتماعي ، فيمارس شـذوذه بكل سترة وطمأنينة ، وذلك وراء ستار الاحترام والمحترميات الاجتماعية ٠ انه

على علاقة برجل آخر وبواحد ثالث أيضا ، ولا يعرف عنهما شيئا بل يستعملهمامجرد أشياء جنسية كما يستعملانه هما أيضا فيعاملانه بالمثل ؟ فيخيل الى سالمة أنه ذهب ضحية الانتقام اذ لا تفسر هاتين العلاقتين الا برغبة الاخذ بالثأر من ذاك العشيق الذي خان وتزوج وأنجب ولو لم يكن الا طفلا واحدا ، صيانة للعار وقربانا للابوين وتحاشيا من المجتمع ومن تهكماته وخدشاته • يخيل اليها انه سقط في ضرب من الغواية أصبح ضحيتها وكأنــه يحب ويشتهي ويروق له أن يتعذب بالنيران التي تستعر بين رئتيه مثل تلك التي تلتهب في رئتي الطاهر الغمري لاسباب عضدية ، لا علاقة لها البتة بالاسباب النفسية التي تهيمن على أخيها الطبيب وهو يتلوى تحت أنياب نار التأنيب وعقدة الشعور بالذنب ووخز الضمير والتفرد • وهي تدفعه الى المجازفة وتنهره وتشجعه على الاستمرار في الطريق الخاصة التي سنها لنفسه أو التي تكابده ، فيتحدثان ـ والقط يحاول لفت أنظارهما ويغير من خلوتهما ـ عن عقدة الام ويعترف بها لطيف • فتمازحه أخته وتقول انها كثيرا ما تصيب العباقـرة وتستدله الى مثال ماهلر نفسه الذي يعرفه جيدا وقد قرأ عنه الكثير وخاصة مراسلاته مع زوجته التي يتضح من خلالها أن هناك التباسا شديدا حول ميولاته الجنسية التي تجذبه الى الرجال ، ولكنه لم يمارسها أبدا فراح يتزمت ، ويقهر نفسه تحـت سطـوة العمل الجبار ، فلحن هكذا معزوفة الالف واقترف فضيحـة ضجت بها عوالم الموسيقى ، فسب وشتم وقهر ومات في سن مبكرة وهو لـم يبلغ بعد الخمسين من العمر ، فيكتب لزوجته من البندقية حيث فر بعدما باءت معزوفته بالفشل ، « لقد أكل الورق حياتي » ••• وهكذا يسقط في حب مراهق بضعة أشهر قبل وفاته • الا ان أناه الاخلاقية تمنعه من القيام بأي عمل في هذا المجال • فيموت ممقوتا وراحت زوجته تقول انه كان يعاني من العجز الجنسي وهو يحاول تبريره بكثرة العمل وشدة الوهن • ويعترف لطيف بأن كل عقدة تحمل وجها ايجابيا ، ومثل ماهلر لا يخفي عليه انه تمثل بشغف الاستطلاع

والولع بفك الغاز الكون مشبعة ومشفوعة بتلك البصيرة الخلاقة التي تجعل الانسان يجري وراء ظله ويحاول أن يسبقه فيتركه وراءه أيا ما كان موقع الشمس ومهما كانت الساعة ٠ فلا وقت الزوال الصارم الذي يمحو كل الظلال ولا زمن الاصائل المتألقة المبقعة بخضرة ورق التوتة ولا شيء من هذا القبيل يمكنه من الوصول الى نتيجة ما في هذا الصدد ٠ وشعرت سالمة وهي تتحدث اليه تارة وتستمع اليه تارة أخرى أن عقدة الام ، تتحول تدريجيا الى عقدة الاخت وان عليها أن تفعل شيئا وتقوم بعمل ما عاجل اذا ما أرادت ألا تتفاقم الامور على هذا الصعيد ٠ فتتركه وتنصرف الى أعمال أخرى وتتركه والعزلة وسمته بميسمها نهائيا ، فنغصت عليه حياته ٠

قال لها الاستاذ بودن وهي تزاول تعليمها في السنة الاولى من المدرسة الثانوية ان ورق التوت لم يكن ليجدي نفعا بالنسبة للعدوى التي أتت على آخر ضجة ، ففرغت العلب وتركتها شاغرة ، تضعها سالمة على رف من رفوف خزانتها وتتركها هكذا ، تنظر اليها من حين الى آخر ولا تقدر على مسها وكأن قدمها وعتقها طلاها بطريزة الزمن البالية ، فلا تجروء على قبضها خوفا منها ، من أن تتهشم بين أيديها وهي في الواقع تعرف جيدا أنها صلبة ومتينة وانما يقززها مسها وتلمسها ويحزنها فراغها فتحرك فيها الدموع وهي صبية ٠ تترقب أن يفاجئها الاستاذ بودن وقد عشقته كل تلميذات القسم رغم شناعة وجهه وقماءة قامته ، بسر صيانة البق، فوق حويجزات من الخشب الرقيق جدا فيكاد يكون شفافا ٠ تعلم انه كان مهرجا وحزينا مثل كل المهرجين وتعلم انه كان جديا فيما يتعلق بمشروعه الخاص الرامي الى تدشين أول سيرك للبق شاهده العالم ٠٠٠ وتعلم كذلك أنه لم يكن مجنونا ، بل مفرطا في الذكاء ، وقد نجح في المدرسة على انه لم يعكف على عمل مدرسي جدي ويقدم لاستاذ الرياضيات حلولا ناجحة تفوق حلوله ، فيعترف له بعبقريته ويسأله عن سبب تردده على المدرسة وهو ملم بكل العلوم ومحيط بكل

النظريات . فيقول الاخ الاكبر : لمجرد قضاء الوقت ، ريثما يفيق البق من نومه ... وفي آخر الامر يقول لها الاستاذ المتعربد الذي يمضي كل أوقاته الشاغرة متنقلا من حانة الى ماخور برفقة عصابة السوء ، ويسمون أنفسهم أزلام أو رابطة المغضوب عليهم وكان من بينهم أخوها البكر . فيضع الاستاذ بودن محفظة غاصة بأكداس الاوراق الامتحانية المخططة بالبسملة المزخرفة ، يضعها على الارض ويصعد من فوقها حتى يتمكن من الوصول الى مستوى خشبة البار ويطلب كأسا من الكحول ثم كأسا ثانيا فثالثا ... أو في الماخور ، يطلب فيشاته من المعلمة اليهودية والمومسات لم يبق لهن أي عري يخفينه . وكان أخوها يطعم الضمج بخشب الاشجار المصابة بمرض الصمغ ، فينمو ويقوى ويتناسل بغزارة ويتزايد يوما بعد يوم ، فيضع له العلب الجديدة من لوح خام وعتيق ويتفنن في نقشه بازميل صغير لا يفارق جيبه ، فحيثما كان وعندما أراد يستعملها وحتى أثناء دروس الرياضيات ، وهو يحدسها ويفهمها قبل أن يشرح الاستاذ ألغازها ومقاديرها وجبرها ومقابلاتها وتوافيقها الخ ... دهشت سالمة أول الامر وهي لا تؤمن بهذه الرواية ... تعلم أن البق يحفر الخشب ويعيش فيه لكنها لم تسمع قط خرافة الخشب المصاب بمرض الصمغ ... ولم يغير الاستاذ بودن رأيه حول هذه الرواية ، حتى تخرجت سالمة من المدرسة والتحقت بالجامعة وكادت أن تختار شعبة علم الحيوانات لتفهم كل أسرار البق ولكنها عدلت مخافة أن يكون الاستاذ بودن قد أفشى حقيقة الامر وهي جربت بعد كل الوسائل للتخلص من هذا الداء الذي عاث موتا في بقها الموروث عن أخيها العزيز ، فراحت وهي صغيرة تسأل المعلمة وتلح عليها رغم ضجرها وقهقهة الزميلات ، فلا تجد حلا ناجحا وينتهي بها الامر الى تغذيته بورق التوت ، تقطفها من التوتة ، حشرت تحتها وهي صغيرة مع فؤاد وسعيدة ، يوم الجنازة ، وقد ساقهم اليها أبوهم وأمرهم بالمكوث تحتها طوال النهار .

لم تنس أبدا هذا اليوم وقد كانت صغيرة لا تعرف للموت معنى ، لا تفهم منه سوى انها سوف لن تره وأنه اختفى مثلما يخسف القمر وتكسف الشمس (أو العكس ؟) وسعيدة تتسلق الشجرة وتأخذ تناديهما بصوت خافت : « تعالوا ... اني أراهم ... اسرعوا ... قد خرجوا من الدار » وهي لا ترد عليها وفؤاد يهتف ويهاتف ويضحك هازئا وهو لا يتوقف عن عملية حقن الدم بشفتيه يسيل بغزارة من ركبته المجروحة وأنا واجمة لا أقول شيئا ولا أشعر بشيء ، وفؤاد يتمرغ في العشب حول التوتة ، ثم يستلقي على بطنه ومن ثم على ظهره . فألاحظ ان سرواله بين فخذيه قد انتفخ ، فينظر الي ويهزأ ويمس قضيبه وأنا لا أبالي به ، فيخرجه من مكانه ويأخذ يلعب به ، ثم ينتفخ أكثر فأكثر ، وأصوات المرتلين وقرع الاطباق والاقداح تأتي الينا من نوافذ الطابق الاول ومن المطبخ وسعيدة في تسلقها نحو القمة تموج أغصان التوتة ومهدي يلعب بذكره ، ويزداد انتفاخه ثم يتفشش تدريجيا ويتحول الى جلدة رخوة ، فيعيده حيث كان وهو يضحك ويهزأ ويحاول استفزازي ويبصق بصقة تعلو الى السماء ثم تسقط بعيدا عن الشجرة ، بعد أن ترسم في الهواء قوسا مثاليا ، وسعيدة تنادينا : « تعالوا ، اني أراهم ... » وأنا لا أحدق بها ولا أتحرك من مكاني ، لا أعرف للموت معنى ، لكنني تعلمت ، في ذلك اليوم المشهود ، رائحته (كافور وجاوي وشب وند وزنجفور الخ ...) وصوته (ترتيل وذكر ووشوشة وقرع أطباق وأقداح وأوان الخ ...) ودخلت بوتقته على طريقة الابهام والغموض والاستنتاج والحدس ... وتيرة قراء القرآن لا تتغير ترنيمتها ورائحة البخور تعبق من بعيد وتختلط بروائح البق ودود القز وخرق النسوة الحيضية ... ودخلت في تلافيف أمور لم أكن مهيأة لها أنا الطفشة ، أنا الطائشة ويموت هو ويتركني وأحزن عليه عندما يقص علي الاستاذ بودن - أحد أزلام رابطة المغضوب عليهم - أنه كان تلميذا عبقريا ومتمردا في نفس الوقت ، اخترع طريقة خاصة لتغذية البق وحلم أن يكون

مديرا لسيرك هائل فريد من نوعه ، ونحن تحت التوتة والموت يحوم حولنا وجثمانه بالقرب منا ملفوف في كفن من الحرير الاصفر ، حسبما سمعت فيما بعد ، طرزته كريمة احدى أخواتي وقد كانت ماهرة في هذا النوع من الاعمال اليدوية واعمال الابرة والخياطة والزخرفة على كتان الموتى والاحياء على السواء ٠٠٠ ويموت وأبقى كاليتيمة أقضي الليالي مؤرقة ولا يجد أبي للترويح عن نفسي والتخفيف من لوعتي ، سوى هذا اللقب الجديد : الطائشة ٠٠٠ ومهما يكن فالمفيد في الامر أنني استرجعت أخوة لطيف بعد أن تحصلت على عمومة الطاهر الغمري ، لعلني أجد مسلكا بينهما أسلكه وأطرح فيه عذابي وضجري وقلقي وحنيني الى ايام التوتة وعام الطوفان وواقعة التوتة ، فلا أتركها والماء من حولي فيما هو جالس الى جانبي يحميني بمظلة حريرية مطرية وبمعطف متوبر الصوف من فرط سيولة الجو والمحيط ٠٠٠

الفصل العاشر

هل يستقيم الظل والعود أعوج ؟ لا ، طبعا لا ··· لكن التاريخ يصنعه الرجال بعملهم وكدهم ونضالهم ودمائهم وأعمالهم وأيديهم ··· والا فاستقامة الظل تصبح قهرية وحتمية ويستقيم العود اذاك ويصبح الخط باستقامته واضحا فأين الوضوح ونحن نرى الشعوب المقهورة تمشي وتتحسس طريقها بعصيها البيضاء ، على غير هدى ، فلا تعرف أين الخط الواصل وأين وضوحه ؟ أما بالنسبة لسيد أحمد فقد كان الامر أيسر وخط الوصول يتجلى أمام أعينه بكل لمعان · يطير نحوه ويقفز فوق الحواجز والهدف واضح لا ريب فيه ولا ظلام · وكان النصر حليفه حتى جيء بالعداء البلجيكي حامل لقب بطل العالم في العدو وقد حطم أرقاما قياسية في سباق الـ ١٥٠٠ متر ، عبر القارات والاكوان ··· ولاول مرة عرف سيد أحمد الانهزام ولكنه ما زال يعرف أين يضع أقدامه ··· النكسة في حالة الوضوح والشفافية لم تعد نكسة انها هزيمة ، فتنة ، معركة تخسر ليس الاولاد ولا بد من تلافيها في مناسبة أخرى آتية ··· ولم ينتحر العداء البلجيكي يوم قرأ في الصحف خبر وفاة سيد أحمد ولعله لم يسمع بالخبر قط ، ومن الارجح التحدث عما قامت به تلميذات سيد أحمد من محاولات للانتحار، ليس عند النعوة فحسب، بل يوم انهزامه امام البطل البلجيكي كذلك ··· يا لها من وصمة عار على جبين البلاد اهتزت لها الاكباد ··· ولكن الخط كان واضحا والقضية

بسيطة . أما الآن فقد تعقدت الامور وتخبلت الخيوط وتشابكت التناقضات فيما بينها . أليس العود أعوج ؟ وهنا يفلت منا ذلك السليك الواصل بين الاحداث الذي يهدينا الى منعطفات التاريخ وتعرجاته وتقلباته ... لعلنا فقدناه ونحن نمشي على اسفلت الصدفة ، نمضي ولا ندري الى أين . وتتجاهل أن استقامة الظل ضرورية ... رمية من غير رام يرمي ، وزهر النرد يميس على المنضدة ، يتردد ٥ ؟ ٧ ؟ ٥ ؟ ولنقل ٧/٥ ... حرم الميسر علينا ونحن نعشق المراهنة ... « هذه حمراء ، هذه كحلاء ... لا حيلة ، لا اتشيطين ، لا طلامس في اليدين ... اشكون يجربّ حظو ... شكون يجرب سعدو ... هذه حمراء وهذه كحلاء ... » ونلعب الاوراق ونخزن الاشارات السرية والرموز القبلانية ونترك القضاء والقدر يتصرفان في الامور كما يشاءان ... من يصنع التاريخ اذن ؟ وهل تعلمين من يزرع الطحلب والحزاز على جدران المبولات المتميعة الآسنة ؟ أجيبيني ، نجد الحل ونصل الى اتفاق جدي ونهائي . ينقصنا الوعي والجرأة تنقصنا والخيال وموهبة الابداع أيضا . لقد ضربت الوصولية أطنابها فينا ، ومزقت حتى ما تبقى من أنانيتنا المسكينة ... جزاز وفتات الزجاج والزجاج المحبحب . فقط ، لا أكثر ولا أقل . مقطنا الجهل والخوف الفطري والحذر الغريزي . هل الاشخاص يصنعون التاريخ بأيديهم أم هو التاريخ يصنع الاشخاص بحذافيرهم ؟ فالمسألة لا تتعلق باشكالية فلسفية بل الامر منوط بالمصير الحياتي ... أنظري الى المدينة . أنها تدور حول نفسها كالجمل الذي اذا ما غمضت عيناه يدور حول البئر لاستخراج ما يصلح من المياه للري ... يدور على نفسه ، ولا يغشى عليه ولا يأخذ الدوار منه مأخذه ، ذلك أنه أعمى ، لا يرى شيئا ... وهكذا مدينتنا ... حركة المدينة دؤوبة لا تعرف الاستقرار تدور باستمرار ولا تتوقف هكذا حتى مجيء الليل ، فتصبح اذاك خالية . ويطلع النهار ويجري الحشد وراء أشباحه فلا يعثر عليها في أي مكان ... الدوران محتم على الحشد كالجمل الاعمى وهو اذا توقف لا تنزع عنه العصابة الا

بعد زمن قصير كي يعتاد على حالة الثبات ٠ لدينا كل شيء ونفتقر الى قليل من التصور ٠٠٠ جاء العود أعوج وكان ظله أعوج مثله ٠٠٠ ليستقم ظلنا وعندها ننظر في الامر ٠ أنا لست معتوها ولا رجعيا ٠ بل العكس هو الصحيح ٠٠٠ ظلهم يضمني اليهم يوما بعد يوم وعلى أحلامي يضغط ٠٠٠ ويشير الى الصورة الملصقة على الجدار وكأن تجاريحها تعمت ولونها البني فقد ما تبقى من طلاء ، ورسومها المجردة تحت الضوء الساطع ذبلت والنافذة التي فتحت منذ قليل ما زالت على مصراعيها مفتوحة ، وقد اعتادت (الصورة) جيب السترة الايسر اعتادت ظلمته ودفئه وحنانه ونبضاته ٠٠٠ ويسكت هنيهة ٠ يحتسي الشاي ٠ وتدخن هي كعادتها ٠ ولا يعتم أن يستأنف الحديث وتصغي هي اليه وهي تنظر الى الصورة معا وفي آن واحد ، فيخيل اليها أن الصوت آت من حنجرة أحد الاشخاص في الصورة وقد توسطهم ومن جديد تتسرب الغرابة والوحشة الى قلبها فتتيه مرة أخرى وكانت قد صممت قبل مجيئها لزيارته على أن تكبت كل شطحاتها وتكبح كل نزواتها ٠٠٠ ولكنها لا تفقد من سياق الحديث شيئا ٠٠٠ ولا يلبث أن يتغير في مسامعها الصوت فتخاله من وراء التاريخ منبجسا ومن ديار الموتى ومن خلف المقابر متسللا ٠٠٠ ويستطرد هو في الحديث فلا يأبه الى ما علا وجهها من اصفرار : « فهمت أن كل انسان انما هو حرب أهلية ٠٠٠ ونظرت الى التاريخ من هذه الزاوية ٠٠٠ فالخطأ خطأه لا خطأ غيري ٠٠٠ فهمت أن المعركة تدور رحاها بين الشخص وذاته ، (بينه وبين ظله أو شبحه ، أو صنوه ، أو قرينه أو نظيره أو ليمه أو ٠٠٠) حرب أهلية متوغلة في كل فرد من أفراد المجتمع ولعل هنا مقر مفهوم التاريخ ٠ لا أدري ٠ وهناك حروب أخرى لا تستعمل فيها الاسلحة المقاتلة الفتاكة ، وهي تلك التي نخوضها ضد الاخرين وضد العالم كله ٠ لعل هنا يكمن معنى الثورة ٠٠٠ لا بد من شن حرب أهلية داخل كل واحد منا فنتغير كلنا ، انطلاقا من نفس المبدأ مستعينين بنفس الوسيلة ٠ الفقراء عندنا يملأون الكون بحركتهم وصياحهم وقهقهتهم ولا يتمردون ٠٠٠

لماذا ، لماذا يقبلون بهذه الامور فيعيشون في فضاء ضيق فأحلامهم رثة وكوابيسهم مرقعة ، يبصقون على الارض ويتضرعون الى السماء ... لماذا لا تنتابهم رعشة التغيير والتفجير ... كم من عائلة أعرفها تتكون كل منها من عشرين شخصا وأكثر من عشرين ... ينامون ويأكلون ويجلسون ويغسلون الثياب والاجسام في حجرة واحدة أصغر من الزنزانة حجما ... فيكبر الاولاد ولم يتسن للرجل مضاجعة امرأته وقد انتابه الخوف أن يستيقظ أحد الابناء أو البنات وهو فوق زوجته ، ويصبح عاجزا ولم يستطع البوح بسره لا لطبيب ولا لصديق ... يفقد رجولته ويسقط في حبال العصاب فالجنون ... ولا يتمرد . لماذا ؟ قلة الوعي ... ومن أين لهذا المسكين أن يصنع التاريخ ؟ فقرر نهائيا أن السياسة ملك أهلها فتركها لهم ... أما ما تقوله الجرائد والاذاعة والتلفزة فلا يصدقه بل يضحك ويتهكم ويتناقل النكات ترفيها عن نفسه وما ذلك الا لانه جبان ... أصبحت النكتة السياسية خطرا على الفقراء والكادحين وحاجزا يفصلهم عن السياسة ومجابهة الامور وعن تمزيق ثوب الخوف ... يهاتفون أمام ضراوة المصير مثلما كان يصنع أخوك فؤاد تحت شجرة التوت يلعق دمه ويلعب بقضيبه ... وهو ان فعل فلأنه حدس الفاجعة دونما ادراك واضح للموت ولمعناه . فكل تصرفاته وتصرفاتك أنت وتصرفات سعيدة كلها تدل على أنكم أحدستم بوعيكم الهش أن الامر عسير ... وقولي القول نفسه عن الشعوب المتخلفة . تتناقل الفكاهات وتروح عن نفسها . وتهزأ بالمسؤولين وبخطاباتهم وبتوجيهاتهم ولكنهم يصفقون لهم عند الحاجة وبأسمائهم يهتفون ... لماذا ؟ لأن شعوبنا طالما ترقبت زمنا تاريخيا هاما تسترجع فيه أعلامها ووزراءها وساستها ... الفقير يصوت بفخر واعتزاز يوم الانتخابات ، اعتقادا منه ان له دورا يلعبه ولو مرة في غرة ... ولا يتركه يفلت من يديه وهو يعلم علم اليقين أن الانتخابات في وطنه لا تتجاوز الشكليات وهي مجرد تمظهر

بالديمقراطية ... هنا نجد التاريخ ... وكل الشعوب في هذا الميدان سواسية ... ولذا أقول ان التاريخ لا يصنع وكالحزاز لا نراه ينمو ... أعني أن التاريخ مبني على تناقض أساسي . لا نفهمه الا بعد مروره ... ولا يمكن استيعابه على الفور ، ولا يمكن لمسه ويصعب علي أن أمنطق كلامي هذا . ماذا يفعل المعذبون ؟ انهم بأمس الحاجة الى الطليعة . وهيهات أن تعرف الطليعة الفقر أو الجوع .. وفي الامر أيضا تناقض فادح . ما العمل ؟ وماذا يمكن للطليعة أن تعمل ؟ وهي بأمس الحاجة الى من يحركها ويدعمها ويشهر السلاح بأيديها ... الكادحون لا يفقهون من السياسة شيئا وان فهموا فعن حدس مستتر في تلافيف أجسامهم الهزيلة ، فيهومون على وجوههم سكارى في فجاج الارض يسبحون في الاجواء بقوة خيالهم وفكاهتهم الناضجة وعبقريتهم الفذة ويأتي الزلزال ... يوم تفجرت الارض في ٩ سبتمبر ١٩٥٤ ما كنا لنظن ولو دقيقة واحدة أن هناك هزة أقوى وأعنف وأعم وأطول من الزلزال الارضي ، ستقتحم البلاد ثلاثة أشهر فقط بعد هذا الزلزال . لذا أقول ان التاريخ صدفة ... نرد الزهر يميس على المنضدة ... أتراهنين ؟ ٥ ؟ ٧ ؟ أم ٧/٥ ؟ (شكون يلعب ، هذي ورقة حمراء وهذه ورقة كحلي ... اشكون يلعب ... آش لون الورقة ... شوفوا يا ناس ، لا حيلة ، لا تشيطن ، لا طلامس في الايدين ، لا وشام على الجبين ...) نرد الزهر يميس ثم تجلجل الارض ويتكلم الرشاش جل جلاله ومن بعد ، ننظر الى الوراء ، يتراءى لنا شيء في الافق ، نسميه التاريخ ...لكن كيف أتى ؟ كيف تكون ، ونما وتفجر ؟ هكذا يصبح سرابا ... غير ملموس ... وهمي . وتأتي الخرافات والاساطير بعد قرون لتغطية وهذا دليل قاطع يشير الى ما يقبع في قعر الانسان من خوف أصلي .. فيترك العنان لاوهامه وهواجسه ... يطلي التاريخ ويجعل منه أقاصيص ... هكذا تكونت الديانات والثورات والانقلابات ... موهبة الانسان على الخلق والابداع تفسخ كل

منطق ··· يسخر الانسان من التاريخ ويصنعه على شكل العوبة واسطورة وخرافة ومحاجية ··· هكذا خدعنا التاريخ ··· صحيح كنت أنا ورفاقي في قاعة الانتظار نترقب قطار الثورة الاممية ··· والقطار لم يأت ··· وعوضا عنه شيء آخر ، ثـورة أخرى عارمة · ركبنا الثورة وهي زاحفة ··· صحيح ، لكننا ركبناها يوم فهمنا أن قاطرة التاريخ الاممي انما هي مجرد فكرة ومجرد نظرية ··· ركبنا قطار الثورة التحريرية ودفعناها ضريبة الـدم والتعـذيب والموت · لنا شهداؤنا أولئك الذين ماتوا في الساحة والميدان أو تحت المقصلة أو رميا بالرصاص أو ذبحا بالسكين ··· أفهمت ؟ هذا مـا كنت أنوي قوله عندما صرحت لك بشيء من العنف أن التاريخ لا يصنع كالحشيش ولا نراه قد نبت الا بعد المطر ··· أما الطحلب والحزاز ، فلا حاجة لهما للمطر ··· ينبتان هكذا ، صدفة ··· والتاريخ أيضا مزيج من الصـــدفة والارادة البشرية ···

(لم أكن أحمل بطاقة تعريف ولا شيئا آخر · كنت أشعر بنوع من الخفة تصعد من جيوبي الفارغة وأنا أتناسى تلك الصورة الشمسية التي لا أحسب لها حسابا وفجأة تسقط أمامي حمامة سمينة تسترق حركة بطيئة متثاقلة فأنسى الصورة التي لا احمل سواها وأتساءل عن وجود مثل هذه الطيور المتكرشة في مدينة تشكو مـن قلة الاغذية والتفت الى الوراء فتهبط من الفضاء حمامة أخـرى أضخم من الاولى تمشي الهوينا ورائي تقرع الارض بمنقارها تجعد من حين الى آخر ريشها الذي طغى عليه لون ممزوج بالازرق الفاتر والخزامى يزيد من تثاقلها وحجمها ولعلي أبالغ في وصفها لـــك - كم من مرة ؟ - وأنا أحدث نفسي قائلا انها لولا حركتها الآلية المتكلفة المتقطعة لظننتها مصنوعة من الخزف وأتعجب لهـــذا الحشد من المارة والواقفين وقوفا وكأنهم - الواقفون - قد رسخوا أقدامهم في أسفلت الحافة ومكثوا رابضين يربطهم في مكانهم حبل هيولي لم أتمكن من رؤيته رغم ما بذلت من محاولات عديدة ومـا

قمت به من تحديقات شتى وقد أدى بي الامر أن أسبب مرارا استفزاز هؤلاء الاشخاص المتشبثين كالاوتاد على أرضية الطرقات وكالاعمدة الكهربائية لا يزحزحها شـيء فيشتمونـي (واشبي يمـاك روح في حالك ···) فلا أرد عليهم · انهم صبية مثلي تائهون ·لكـن هذا لا يغني من الجوع · وأعيد النظر في الحمامة ثانية وهي ترسم على صفيحة الارض نخاريب لا يراها غيري ولا يفيق لها أحد وكأنها من خزف حريـري ، مزيج من خزامي ورمادي وأزرق فاتر تزيد الشمس في لمعان ريشها المرقش هنا وهناك (قرب العنق وعلى الجناح الايمن) بفولاذ رخو وأنا أقف مشدوها بعض الشيء محركا رأسي الى الامام والى الوراء في محاولة منهكة رغبة مني في ألا أضيع أية حركة من الحركات المجهرية التي تقوم بها الحمامات الضخمة · وأخيرا أصارح نفسي قائلا ولماذا يتركونها هكذا تتبختر وتنقـر وتطير وتعود الى نفس المكان حيث فتات الخبز أو بصقـة المسلول (لي أخ يعاني من المحنة والمرض) أو رضاب ماضغ أو تبغ أو ··· لماذا يتركونها هكذا ولا يخطفونها ويرجعون بها الى ديارهم فتطهى وتؤكل ··· ثم أندم على كلامي وأتذكر أني لا أحمل أية ورقة رسمية تعرف بي · أما الصورة فأتناساها وأشعر بنوع من الخفة وانـي قادر على ان أطير مثل الحمام (من يدري لعلها من خزف أو شنب أو خشب أو فلين ؟) وأمد ذراعي نحو الواحدة فتفلت مني ومن بين يدي وتطير تاركة وراءها دوامة من الغبار المطلى بلون شمس برتقالية تسبح في بحر من الضباب والشك فانظر الى المارة فأراهم يستنكرون تصرفاتي هذه فيخال اليهم أنها صبيانية ويحوم حولي الاطفـال ويتحلقون ، فاصطدم بهم وعندها أتذكر الصورة وابتعد مهـرولا حذرا نادما على عملي الشنيع هذا وأخرج الصورة وقد ألصقتها الآن على الحائط المطلى بالكلس النيلي وهي صورة مستطيلة الشكل بنية اللون بالية الورق تخطتها تجاعيد الزمن كالعجوز المبهـرجة بأوشام وقحة ومثلومة مشققة تتهاطل عليها رقاقات تكاد تكـون

خشبية أو أسلاك تكاد تكون ليفا حريريا أو ختي الحمامات السمينة ترذرذه من أعلى مؤخراتها هازئة بي وبمحاولاتي السخيفة الطفولية التي لا معنى لها ولا ابهام ولا حجة عليها ولا مبرر ولا رأس لها ولا عقب أو أفاريز ملولبة تثقب الورق المقوى الذي فقد لمعانه منذ زمن طويل وأصبح يتصور في رأسي المفلفل بشيب الهم والهموم والسن في رأسي الملولب أيضا كفتاحة قنينات البيرة الرديئة التي أطلقوا عليها اسم أبو نواس بريمية الشكل وقد تآكلها الصدأ مثلما تهرأ قلبي وأنا أجول في المدينة طولا وعرضا ، وعرضا وطولا ماحيا كل ماضي خائفا من حاضري ضاربا مستقبلي بعلامة اللامبالاة - مسكين أنت يا أبا نواس وقد أصبحت مجرد علامة للبيرة الرديئة كل الرداءة وأنا لا أشربها ولا أشرب أي شراب مخمر - ضاربا مستقبلي بتأشيرة الاحتقار المتسرب من بلاد لم أزرها ولو في الحلم أو في خدشات بصمتها - على الصورة الشمسية البالية البنية اللون التي تخلصت منها منذ أيام قلائل وكذلك من أشباحها التي كانت تسكن جيب سترتي منذ عام الهروب ومن سترتي انتقلت الى جسمي فأحشائي فذهني - أجل والمتسرب من خدشات بصمتها أظافر عاهر طويلة مصبوغة بالحمرة بها طمثتها أو ...) أقف وأحدق فيها برهة : أهو هو ؟ أم ليس هو ؟ وهذا الذي الى جانبه من هو ؟ والذي على يساره من هو ؟ وأولئك الذين من ورائه من هم ؟ وكأن المصور التقطهم وقد أصابتهم نوبة من الضحك لا يمكنكبتها أو كأنهم قطبوا جبهاتهم عمدا أمام الآلة فظهروا - على كل حال - وكأنهم مبهورون ، مشدوهون، مذهولون، معتوهون، محتشمون: كل ذلك في آن واحد . وأعيدها بسرعة الى جيب سترتي الرثة فتترك بصمة ملتوية الخطوط على قلبي لم أعد لاتحملها فتخلصت من الصورة والصقتها على الحائط المقابل بمسيمرات صغيرة مذبذبة ، وتركتها للزمن يأتي عليها أو بالاحرى على ما تبقى منها حتى تمحى هذه الوجوه الرقيقة بممحاة التاريخ فتغادرني لوعة فراقهم التي صدعت روحي

ورمت الهواجس   فرحت أبالغ وأغالي ... لكن كما قلت لك ...
التاريخ ... كالحمام الخزفي ينقض في وقت لا يناسبنا حتما ...

عملت مع الفلاحين الفقراء ودرست القرآن وحرثت الارض البور وخضت بحر السياسةبدون ما دراية.هكذا تلقائيا ، لم أذهب الى السياسة ، بل جاءتني السياسة وقيحت رئتي واعتصمت في قرية على شعفة وهي تتململ وتزخر برائحة الشمس والصوف والكبرياء والتعاسة . تتثاءب في المساء وتتمطى في الصبح كالقط الاسود مسعود . تعيش وتموت ضمن أمهاد وألحاد بسيطة . لا تعرف العجلة ولا التمويه . تنشر حقائق على أشرطة القديد الونيئة . فلاحون فقراء يملكون أرضا بورا أو زيتونة أو توتة أو شجرة تين أو صبارا أو كروما ولا تكفي حتى لتغذيتهم فيقرر بعضهم تركها واهمالها ويهاجرون الى اوروبا فيتجولون في شوارعها حاملين على أكتافهم زرابي وحنابل وجلود الاكباش المصوفة وهم لا يتكلمون لغة البلاد ، متنقلين من مدينة الى مدينة ومن حي الى حي يبيعون الزرابي التي تنسجها نساؤهم اللواتي لم يتركن القرية وهن يعملن صابرات مترقبات يترقبن رسائل شحيحة وأوراقا نقدية قليلة : لا تكفي هي الاخرى لا لترميم الدار المهدمة ولا لشراء لقمة العيش ، أو اذا لم يسعفهم الحظ ، يعمل هؤلاء المهجرون في المصانع الضخمة المركبات الجهنمية (بمصفحاتها التي تدور مدارها المرصعة بأجناشها وأوتادها وعلى ملاساتها وأسطواناتها وهي في دورانها تسحق المعدن وتدقه وتجرشه وتصقله وتمططه تحت عامل الحر المجفف اللاذع ، فيحول المناخير الى جرح يابس ومؤلم والجهنمية مصاهرها الحديدية التي لا تشبع فحما ووقودا تحشى فيها بوتيرة جنونية ، وبآلياتها المتشعبة التي تجبرهم على التسابق والجري واللهط والانتقال من آلة الى أخرى بسرعة البرق . فيعيدون نفس الحركات ونفس الكلمات تقشر جماجمهم الجهنمية والمشرفين على العمال ، عملاء أرباب العمل ، خائني قضيتهم وطبقتهم ، يقطعون

المسافة بينهم وبين الاشقياء ينصبون حواجز لا يقدرون عليها والجهنمية ساعاتها الجدارية المصابة بحساسية حسابية خارقة ، وبآلاتها المسجلة للحضور والغياب ، وبأوساخها وهونها ، وتلوثها ، وعيائها ، ومشقاتها ، ومعاكساتها ، ومجاريحها ، وأمواتها ، ومعذبيها ، الخ ...) حيث يفقدون خرق اللحم وعظام الجسد ويفقدون كذلك أيديهم وأصابعهم وأمخاخهم ورئاتهم . أو أنهم يشتغلون في ورش البناء حيث يتعلمون المشي على الحبال المعلقة في الفضاء هكذا ويحسبون أنفسهم بهلوانيين حتى يكون اليوم الذي يسقطون فيه من أعلى الحاملات وقد جرس الجليد أصابعهم التي لا تكفيهم لتجنب السقطة ، فتتهشم أعمدتهم الفقرية وكأنها من زجاج صنعت أو من الورق المقوى ...

أما الذين يؤثرون البقاء فلا يهاجرون بل يفلحون الارض البور التي لا تمدهم بشيء يذكر ولا بأي خير او يعملون في مهن قد تركها لهم المهاجرون شاغرة وقد كانوا يعملون في الحوانيت المدلهمة والمحاجر الصلبة وفي رصف الطرق وتعبيد الطرقات العامة الكبرى التي سوف لن يسلكوها ، وفي تكحيل الجدران وترقيع الاحذية - والاسكافي الوحيد كان شيوعيا - وفي صناعة الخشب من طاولات وأسرة ، وبعملهم يقولبون نظاما اجتماعيا منغلقا على نفسه يلعب التضامن فيه دورا أساسيا ، لكنه يبقى حلقة مفرغة يملأ فراغها الكثير الكثير من البؤس والجهل والتطير والكثير الكثير من الخوف ، الخوف من الشياطين والخوف من استغلال المشرفين على الزاويات لهم ومن المشعوذين والمنافقين ، وهم على نزاهتهم في كل ما يفعلون باقون ، لا يرون أية ضرورة للعنف وأية حاجة للتمرد ، يعيشون في غرفة واحدة حيث يحشدون أنفسهم بالعشرات ، ما عدا الحمار الهزيل والبقرة العاقر والدجاج المربوء ، فكنت أنا أتنقل بينهم وأسكن تارة عندهم وطورا عند رفيقي الاسكافي علاوة الاحمر ، ولم يكن هذا الاسم اسمه بل هو بطبيعة الحال اسمه المستعار ، نعيش

كلانا بينهم ، فيحترموننا ويجلوننا فنصلي معهم ونلقي الخطب الدينية والخطابات السياسية ، أفاقهين كانوا أو غير فاقهين ، والغريزة فيهم مغروزة ، وعليها مفطورون مع كل ما طغي عليه وحل الايام ونسيج العنكبوت وروث المواشي والدواجن من رواسب فيناموون بين أطرافها . عملنا ، تكلمنا حتى جف ريقنا ، لقد كانوا هم علينا متفوقين ولكن الخط لم يكن واضحا والعود لم يكن مستقيما ، وكنت أنا بين ترتيل القرآن : (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) وتفسير الاشتراكية العلمية وبين ما يمدنا به الحزب من ارشادات : أحمل القرآن في اليد اليمنى (لا يمسه الا المطهرون) والكتب السياسية في اليسرى (وهم لا يعرفون قراءتها) ... فكنا هكذا على كل ذلك عاكفين ... ثم تأتي الهزة الصغرى وتليها بعد أشهر قلائل الهزة الكبرى ، ولم نكن لنتوقع ذلك ، وينهال التيار الجارف من أعلى الجبال فيحطم كل الافكار المسبقة والافكار الانيسة والافكار المألوفة ، ونجد أنفسنا في بادىء الامر معزولين ، فنسترجع بصيرتنا وندخل الملحمة ولكن وفيما الفلاحون الفقراء بقوا في بداية الامر ، مترددين جهلا وطيبة وخوفا ، على انهم ما لبثوا ان وثبوا بدورهم وعبروا الحاجز العملاق الذي كان يفصل بين الكمون والخمول من جهة والعمل والنشاط من جهة ثانية . وفيما هم هكذا يمر القطار أمامنا ولا ينتظرنا ... وكان الخطأ ! لقد ارتكبنا خطأ فادحا ... كنا في قاعة الانتظار نترقب القطار آملين أن يأتي مع الثورة العالمية الصاخبة التي كان على الارض كلها ان تهتز لها فنقف وسائر الشعوب وقفة واحدة ضد النظام البالي الرث ... واذا بكل ذلك مجرد حسابات ونظريات وظهرنا وكأننا كنا على ظهر جمل يمشي على مهل رويدا رويدا فيصل .. : واذا بالمفاجأة تتصدى لنا ... كان التاريخ قد لعب لعبتـه ، ضرب لساننا عنقنا ... والآن وأنا أراجع كل هذه الحوادث والاحداث ، أفهم أننا كثيرا ما تشدقنا وتعودنا صمغ الشدق والتريال والمهرجانات واللافتات

والاضرابات والاعلام الحمراء وما أسهلها ! والتاريخ من ورائنا يمضي ويشرنق البلاد ويلف البلاد ، ونهوي نحن رغم عطائنا ونزاهتنا في حفرة الكسف والامساك • قلنا ننتظر قليلا ريثما نتأهب وتفعل شعوب العالم مثلنا ••• فنسمع صوتا ونرى قوة ••• أعترف بذلك • ولكني أشهد أيضا أننا قدمنا جزية الدم وضريبة الامـوات والمعذبين والمحروقين أحياء (ولا يفتأ سيدي احمد يكرر : العلم رمز فقط ••• علينا أن نعبر المسافة الفاصلة بيننا وبينه ••• يقولون : هل العلم خرقة ؟ يقول : لا ••• أبدا ••• انه رمز لا أكثر ولا أقل ••• يجب فكه قبل أن نستقل فنسطر الطريق الواضح ••• فك اللغز يا رجال ••• فـك اللغز ضرورة ملحـة والا لما فعلنــا باستقلالنا شيئا والا لتصدت لنا العثرات فيما بعد ••• ومن الطبيعي أن نستقل وأن نطرد العدو من البلاد ••• ولكن لا بد من فك اللغز منذ الآن فلا نضيع الوقت فيما بعد ••• ويصرون : هل العلم خرقة ؟ نريد علما ووزراء وممثلا في هيئة الامم المتحدة ونريد سفراء ••• ويقول : طبعا طبعا ••• لكن المهم ليس هذا ••• هنالك الاهم ••• ويهزأون بـه • ولا يترك هو محفظته بما تحوي من وثائق وتقاريـر ولا رشاشـه بعتاده ولا ابتسامته بشحنتها الوديعة ••• ركبتم القطار بعدما انطلق ••• لا نريد منكم دروسا ••• جاهدوا في سبيل الله واسكتوا ••• لا ، لا نسكت ••• ندافع عن قضية والله ملك الجميع ••• في الحقيقة لقد ركبنا القطار بعدما رحل من محطة التاريخ ••• غدرنا التاريخ أم حشرنا فيه أصابعنا حشرا وبقينا نترقب أن يأكـل السمك ••• جاءت الرجفة الاولى ••• وتلتها الثانية ومرجافنا لم يسجل أي اشارة تدل عن وشوك وقوع الواقعة •••) أجل قدمنا جزية المحشورين في المعسكرات والمذبوحين بالسكاكين الذرية والسكاكين الحافية •••

أما الآن فالمدينة تضيق ذرعا والميناء يتلاشى تحت نغازات النوارس والحياة تبدو متفتقة الاحشاء ويعيش الناس في ضيق ولا أحد يعمل الا الله ، ويشكو المواطن ، كل مواطن من أزمة السكن الا

الله لا يشكو • لقد كثرت مساجده وتوسعت مجالاته ودوت مآذنه وجلجلت نواقيسه وطلت روحه كل أرجاء البلاد ••• أما الآن فقد صار لنا علم ووزراء وسفراء و ••• التضخمات (المالية والسكنية) والعجز (المادي والغذائي) والوصوليات (كلنا طموح وجموح •••) أما الآن فلم نفك اللغز بعد ولا الرموز ••• وهن الشعب والدولة أيضا وقد اختلطت الاوراق والامور على كل الناس • النقص ملموس في كل الميادين والرشوة عمت البلاد •••ولا أحد يعرف أين المفتاح وحتى لا يعرف أين الباب ••• تقول سالمة : كلنا مسؤول عن هذه الحالـة وحتى الاموات مسؤولون ••• هل من محاسبة تجري للاموات يوما ؟ انفتح ملف التاريخ والتواريخ كلها متشابهة بطبيعة الحال • مسكين المثقف في بلادنا ومسكين الواعي ••• يتلوع ويعجز هو أيضا بدوره • أين البوصلـة ؟ أيـن الخـرائط البحـرية ؟ أيـن المناخات ؟ أين الرزنامات ؟ هل نحن محكوم علينا بالضيق مدى الازمان ••• أين صواريخنا ؟ أين بشارنا ؟ وأبو نواسنا ؟ ••• مسكين ابو نواس لقد أصبح مجرد سكير ••• وعلامة بيرة رديئة ••• هكذا يعرفونه أطفالنا ••• العبقرية جنون ولطيف يقرأ لسالمة رسالة أخرى مـن ماهلر ومعزوفة الالف تحطم الارجاء وتسيل على جدران المنـزل فيهرع القط ويختفي تحت التوتة : أنت جبان يا مسعود • جبان ••• أسمع ما كتبه ماهلر ••• وتتصاعد الترنيمة الوترية الى سقـف الدار ومن السقف الى السمـاء وتسبح الـى البستان والى الكون وسالمة تقرأ بصوت عال : « الفنان يسدد في الظلام دون معرفة الى ما يهدف وهل سيهدف الى شيء ••• » هل نحن فنانون ؟ بعض الشيء ••• وهل نعلم لماذا ؟ نسدد في الظلام ولا نعرف هل سنهدف والام نهدف وتضحك سالمة ، وتقول ان عم الطاهر استعاد بصيرته وهي تعرف انها لم تفارقه يوما ••• ينقد نفسه ويلوم نفسه وينقد الحزب ويلومه وينقد الاخرين كل الاخرين ويلومهم ••• يعترف ••• لذا قال ان التاريخ لا يصنعه أحد كالعشب والطحلب والحزاز انه

ينبت بدون أن يزرعه أحد ولا نعرف حتى كيف ينمو ... الموسيقى أنهت لفتها وماتت معزوفة الالف وتغني الآن « الرميتي » : (الوشام عالسرة والضرة مرة)... يعود القط مسعود الى حجرة لطيف حيث جلس مع أخته ويتقوقع القط من جديد بينهما ، والخادم الاصم خديجة تموت غيرة وتموت شوقا الى سيجارة وقد نفدت علبتها فلا تجرؤ على الدخول الى الحجرة وفي طلب سيجارة من سالمة بحضور لطيف . انها تهابه رغم بشاشته واحترامه لها . لكنه هو الطبيب ويبقى في نظرها طبيبا ، والطبيب في مجتمعنا نحن رجل ذو هبة وموهبة وذو قدرة وملكوت .. آلم يعوض السحارين والمرابطين والمتشعوذين ؟

علق الصورة على الحائط بمسامير صغيرة فخف عبئه وشعر بنوع من الخفة تتصاعد من كل أرجاء الحجرة التي أصبح يعتني بها وتنظيفها وترتيبها وأصبح كذلك يسهر على توسيع الفضاء فيها وكأن الجدران قد تحولت الى صفائح جليدية ناصعة لماعة لكثرة ما طلاها من الكلس بصفة دورية ومنتظمة ، وترك آخر شمعة مزروعة في تربة الحبقة تذوب ولم يعوضها ذلك أنه اشتغل مدة أيام على تركيب جهاز كهربائي ، وقد تدلى الآن من السقف خيطا مطاطيا يحمل في طرفه مصباحا كهربائيا وكأنه ، وهو يشعله للمرة الاولى انما يشهد اختراعا عظيما فلا يعرف من أين يبدأ بالدهشة ام بالتعجب ويشعر بقدرة طاقاته الفنية وبمهارته اليدوية ويتذكر الشهرة التي نالها بو علي طالب في ميدان اللحامة والتقنيات الآلية والكهربائية ، وقد راح يعتني بدواجنه فامتلأت زريبتها بالكتاكيت الصفر وفقد الديك من عنجهيته وغطرسته وأرهف حنانه الابوي من تصرفاته المتعجرفة ازاء الدجاجة التي صارت تبيض كل يوم وما كان منه الا أن أهمل بقراته الثلاث كما أهمل الصورة وكأنه قذف بها عرض الحائط فالتصقت عليه نهائيا معرضا اياها للزمن يعبث بها ويأتي على آخر شبح من أشباحها التي أثقلت جبينه حتى انه

كان على مدة لا يحمل شيئا سواها ، فكانت تنبض لنبضات قلبه وتتميع بعرق جسمه وتتعتق بحرارة بشرته ... وباهماله للبقرات الثلاث ، انما أراد أيضا ترك الذكريات المؤلمة جانبا ومذبحة ماي ١٩٤٥ وبقر عائلته بكاملها بما فيها زوجته وابنتيه، فيتخلص أيضا من شحابة الماضي ومن الهواجس الرثة والاحقاد البالية ومن غيرها من الامور التي تعود على وتيرتها كالصورة التي أصبحت عبارة عن عقدة تربط أحشاءه وتسيطر على تصوراته للتاريخ وعلى تصرفاته الفطرية أراد ان ينطلق نحو ميادين أفسح وأوسع وآفاق تنضج حياة وحيوية ومستقبلات مرصوصة بالغيب ، أراد التخلص من كل شيء ما عـــدا بعـض العادات التي احتفظ بها كالكتابة على هوامش السترة ، واستعمال قلم القصب وماء الصبغ وان غير لونه وتحول من الاحمر المعتاد الى أخضر عشبي ، وتدوين التاريخ وهو لا يدري أين يطمس وقد خاض بحرا هائلا متموجا متقلبا ، وادارة قـرص الهاتف العمومي على رقم سالمة في المكتب فلا يجروء أبدا علـى مكالمتها في المنزل وكأنه لا يخاف فقط من الاستماع الى صوت أمها أو أخيها ، بل ويتحرج اذا ما رد عليه صوت الخادمة خديجة التي تتصنع الصم وهي قادرة على رفع آلات الهاتف والتكلم فيها والاستمـاع الى ما يقال فيها وذلك بكل سهولة ومرونة ، فتجرأ ويسألها عـن صممهـا هذا المزعوم ويتخيلهـا وهي تقهقه مدخنة العرعـار أو أو مستنشقة مسحوق التبغ ، ورغم الحاج سالمة لا يقدر على مكالمتها هاتفيا مبرهنا عن تردده هذا الغريب بوجود القط ودروشة الاب ، وهي تعلم أن كل هذه الحجج وكل هذه البراهين ، انما تخفي طبيعة فطرية وحياء ريفيا وطقوسا بالية لم يمكن التخلص منها بعد ... أما عن العادة السرية فتبقى الامور غامضة ولـم يعـد في حاجة الى الشموع وسالمة قررت منذ عهد طويل أن لا تتجسس على حركاته فلا تعلم علم اليقين ولا تقدر أن تعطي رأيا قاطعا في الموضوع . أما الآن وقد تدلى المصباح الكهربائي من أعلى السقف ، وصار يمكنه

فضاء الليالي البيضاء وهو يتأمل الانابيب الشاحبة المستديرة بسلكها الداخلي المتعجلس ، التي تضيء أوراقه وكأنها تعطي لما تحتويه كلماته وجمله استنارة جديدة ان دلت على شيء فعلى اقتحام الحداثة عرينه وقلبه ورئتيه وحقده وحتى شاربه الذي حلقه لاول مرة في حياته ، فبرز عنفوانه رغم السل الذي كان يذبل كل يوم وردتيه اما الآن فقد ظل بعيدا عن كل الشكليات التي كانت تلف حياته بقطن الماضي وسبيخ ما قبل الحضارة فأصبح يكره الخبث والظنون وهو يسبح كالسكران قليلا في سعادة عالم آخر يكاد يكون ما ورائيا أو صوفيا ، تسيطر عليه علامة الحقائق البسيطة . لكن الاضاءة الكهربائية اذا ما سلطت على كتابته ضوءا آخر فقد كانت تعتم نوعا ما الصورة التي ألصقها على الجدار فجردها من قوة الاستحضار ، علاوة على زحلقة الزمن الذي راح يطليها بمطر النسيان ، الا انه لا يستطيع التوقف عن ذكر الرفاق وقد فقدوا صبغة الشبوحية واسترجعوا حيوية جديدة وأحاطوا به مثلما كانوا يفعلون قبل أن يلقوا حتفهم الواحد تلو الآخر ، فيتذكر بذاكرته وبخياله ولم يعد في حاجة الى الصورة البالية التي طبعتها الحياة بكدمات نهائية وصفحتها زخامة الايام المتراكمة وأثبتتها عدسة المكنة بصفة نهائية فتخشب الاشخاص وتحجروا ، فظهروا باهتين ، مشدوهين ، في وقفة نهائية كأنما الصاعقة انقضت عليهم وجمدتهم في أماكنهم على ان يبقوا هكذا الى ما بعد التاريخ وقد أصبحوا عبارة عن تماثيل لا حياة لها ولا حركة أو مومياءات رثة وهشة لا برق لها في عيونها المعتوهة أو ... ومنذ أن تخلص من الصورة ووضع بينه وبينها حاجزا معينا ، راحت الحجرة تضج بأصواتهم وحركاتهم ومشيتهم وتنقالهم وترحالهم وكلماتهم وفكاهاتهم وميولاتهم المفرطة الكبيرة منها والصغيرة وعراتهم وتشقيقات وجوههم وحساسياتهم ونشاطهم وأحلامهم ومشاريعهم وتصوراتهم للمستقبل وقد اصبحوا أحياء يرزقون يغدقون حيوية ما كان يعرفها

لهم من ذي قبل . وراحت أسماؤهم تتحرك فيه وراح هو يزيل عنها رماد الحسرة والكآبة ـ بو علي وسيد أحمد وبو دربالة (الالماني) والحكيم جاؤوا يتحلقون من حوله يعاتبونه ويضحكون لتصرفاته الصبيانية ولهذا الزمن الطويل الضائع ولسنوات التسلل والعزلة ، حيث كان لا يبارح الاموات ويشط فيسمي البقرات الثلاث باسماء زوجته وابنتيه الصغيرتين اللواتي فقدهن منذ شهر ماي ١٩٤٥ وقد كان عضوا في جمعية العلماء حيث كان يتحدث عن حدس ويركز على ضرورة توزيع الاراضي الخصبة على الفلاحين الفقراء مما كان يثير عند زملائه في الجمعية نوبة من الضحك العريض : « حرام عليك يا راجل ... هذا كفر بريء لكنه كفر ... خلق القبائل والامم والانسان والطبقات كالارض طبقات والسماء كذلك ... عليك بكفارة مستعجلة يا شيخ ... » وقد قضى حياته منذ ذلك الحين وهو لا يفتأ ينتقم منهم والكراهية تحرك كل تصرفاته ومواقفه وحماسه والتزاماته وحتى اعتزامه على الانخراط في حرب التحرير وعلى خوضها بقوة البطش وعجرفة الجأش وعنجهية التمرد فيما كانت سالمة من ورائه تشجع فتلقنه الحياة وتشطب الموت .

كانت سالمة هي الوحيدة التي نجت من عدوى الكراهية التي احاطت به . لقد ساعدها بروز تمردها العظيم على تجنب الوقوع في مصيدة الحقد ... فالتمرد يمكن من اطفاء غليل الحقد ، فلا تعرف للكراهية معنى ولا للأحقاد اسما ، إذ تمكنت من ذلك منذ الصغر ومنذ زمن البوابة التي كانت تسهر على فتحها هي وحدها كلما رن الجرس ، منذ ذلك الحين ظلت بعيدة عن كل التفاهات الحقيرة والخسة الدنيئة الصغيرة العابرة وظلت متدفقة العاطفة والطيبة ، تتفاعل الغضب والكراهية ولكنها ـ كعمتي فاطمة ـ حاصرت نفسها وطوقت روحها بسياج من الغضب حتى لا تسيح طيبتها وصفاوتها وراحت تتهاطل على الكون تبلله دموعا ومياها ، وقد كانت منذ ذلك العهد الغابر حيث كان أخوها على قيد الحياة يغمرها

بوده وحنانه وحبه منذ ذلك الحين ظلت بعيدة عن كل القلاقل والشائعات والاغتيابات ، تشق طريقها نحو الجرأة والصراحة والنزاهة والحقيقة والامور البسيطة . لها عالمها ولا تتدخل في عالم الاخرين ، كما لا تقبل أن يضع أحد ولو قدما واحدا على عتبة بستانها السري الداخلي . وهكذا برزت فضائلها ومزاياها مما زاد من جمالها الرائع فزادها عبقرية فذة سخرتها في سبيل قلب الاوضاع وتهييج الجو وتثوير الاشخاص أينما ذهبوا وأينما حلوا ، فتمكنت هكذا من اخراج العم الطاهر من ظلماته وهذيانه ومن تفجير أسرار أخيها لطيف التي عكف عليها مدة سنوات وأعوام طويلة ، متقوقعا عليها ، متحاشيا خرقها . ولم تكن تدرك سالمة آنذاك أن بامكان الاشخاص ان يعقدوا امورهم على هذا الشكل وان يستتروا بالشبهات وأن يتسربلوا بثياب الخوف والتردد والتلعثم، كما لم تكن لتفهم أبدا لماذا تعقد النساء أجسامهن بأنواع الصدارات والخواريط والاغطية والاقنعة واللحاف والملاحف والأحجية فيختفين بلباس الجلابيب الواسعة من نسيج القنب أو الحرير أو التركال أو القطيفة أو القطن ولكم تكره هي الاقمشة الاصطناعية ، انها تترك جسمها وكل اعضائها حرة طليقة فتتخيل نفسها كأنها عارية ، فتبرز حلمتيها على الكتان فتتجاهل انظار الرجال التي لا تفتأ تمتلىء حقدا وغيظا وشبقا علاوة على شعرها الاسطوري الاسود المتسربل كالمطر المهطال على خصرها ، وقد كان حميد يحاول منذ سنوات عديدة أن يرغمها على قصة فلا تسمع له كلاما ولا تحسب له بالا ، فتسدله أياما وتعقصه بدبابيسها اياما أخرى وتضفره في شرائط بنفسجية في الايام الوديعة . ولا تسل عن غرابة موهبتها في تبسيط الامور وتسطيح الاشياء ، فلا تتخلى عن غضبها وضجتها وحركتها الابدية ثانية واحدة ، فيخال لمن يراها للمرة الاولى أنها صعبة المجاز ، معقدة الطبع ، متقلصة الاحشاء ، والاغرب كذلك منه ، كيفيتها في التطرق الى الامور ، كلما أوغلت

في البعد عن الطقوس العادية والعادات المتكررة والتكرار الممل والمعاش الروتيني ، كلما ازداد حبها للوضوح والتجلي والعمل الصارم والمواقف الصريحة ، وكلما ازداد بالمقدار نفسه كرهها للشبهات والحلول الوسطى والبين - بين - والتصرفات الفاترة التي هي أشبه ما تكون بمطر الخريف الفاتر وكلما ازداد آيضا نفرها من المظاهر الشكلية والترهات وخزعبلات الحياة ، فتستجيب لعفويتها وتلقائيتها وطرافتها ويذهب بها الامر الى الحفر عنها واخراجها الى الضوء وبعثها الى الوجود بل تنقب عنها داخل ذاتها وأنوثتها ، باحثة عنها بين صفحات الكتب التي ما كانت تفارق حقيبتها اليدوية مع ما تحوي من الاشياء الاخرى على انواعها من علب ودبابيس الشعر ومن ولاعات النار وصفائح الاقراص وزجاجات المسحوقات على اختلافها ومن رسائل كانت ترسل اليها ولا ترد عليها . وريقات صغيرة تكتب عليها نقاطا وملاحظات أو أبياتا أو أمثلة أو تعابير تسمعها في الشارع سواء أكانت من تعابير اللغة الدارجة او افكارا متشتة هنا وهناك او مختفية بين تلافيف ذهنها وعقلها ، فتخلق كل هذه التصرفات وكل هذه المواقف ويخلق جمالها العجيب عند الاخرين ردود فعل غريبة يمازجها الغضب والانبهار والجاذبية والتقزز ، وفي سلوكها ما يثير الرجال وهكذا انهم لم يعرفوا من اي طرف يمسكونها ، فتنفلت من بين ايديهم ، تزعجهم ، فيعشقونها ولا تبالي بل تحتقرهم وتلقيهم جانبا كما توضع الاواني الوسخة في حوض الغسيل ريثما تغسل ، وان لم يعشقوا غضت الطرف عنهم وراحت تحدثهم عن علب البق والضمج وعن آخر ما اعترف به الاستاذ بودن وعن تردده الى الحانات والمواخير وعن كرهه الدين والتزمت والتعصب والنفاق وعن حرمه البسملة لما يرى فيها من تطير وحيلة ودهاء واستخدام المقدسات لامور لا علاقة لها بها ، فيصدم التلميذات بخرافات المواخير ويغني في القسم : ان الوشم على السرة وان الضرة مرة ...

فكان من سالمة ان احدا من هؤلاء الرجال لم يفهمها بل كانوا يخافون منها ولا يقدرون حتى على النظر اليها بصورة طبيعية ، ويظنون انها معتوهة ، فيأخذون منها احتياطهم ويختفون وراء النظارات السوداء كلما ارادوا التحدث اليها بل يعلقون الحروز حول اعناقهم اتقاء العين الشريرة واللامة وقد اشتهرت على هذه الصورة بين زملائها ومعارفها واصدقائها وعشاقها - وكان ذلك كله قبل ان تتعرف على الطاهر الغمري وقبل ان تنصرف الى امور التاريخ والسياسة والدحض والجدل وقبل أن تكتسب اخوة لطيف الجديدة وقد كان قبل الليلة التي اعترف اثناءها بشذوذه الجنسي ، مجرد جار ، لا تربطها به صلة وقد كان القط الاسود مسعود يمثل الخيط الوحيد الذي كان يربط بينهما كما اشتهرت في اعين الجميع بممارسة السحر وقراءة الغيب واقتراف الذنوب وتسمع ذلك فتموت ضحكا مما في ذلك من سخافات واتهامات باطلة ولقد صممت منذ ان لقبها ابوها بالطفشة وعن غير وعي واضح ، ان تنتقم هي للنساء وان من كثرة ما تجد فيه من سخافات واتهامات باطلة وقد صممت منذ أن لقبها ابوها بالطفشة وعن غير وعي واضح، ان تنتقم هي للنساء وأن تملتك قدرة جبارة قابلة الأن تكون نارا ملتهبة تشعل سذاجة الرجال وسطحيتهم وافكارهم الطفولية والمسبقة ولذا فقد اتفقوا عليها منذ القرون الغابرة ولم يعد ليردهم عن قرارهم هذا لا تغيير ولا تقدم ولا تفجير أيا ما كان . وتبالغ سالمة في ذلك عن وعي ودراية وهي ترى أن للمبالغة في هذا الميدان مجالا واسعا ومشروعا وان قدرها الذي لا محيص فيه ولا رجوع عنه يحتم عليها أن تكافح ، ليس ضد الرجال وانما ضد النساء أيضا ضد رواسب كريهة ضربت جذورها في الارض وتوغلت في مجتمعاتنا كلها ... فلا تبالي بثلمتيها ان هما برزتا من تحت فساتينها الشفافة بدون أن يسجن نهديها العظيمين شيء ، كما انها لا تبالي بجلبابها وتجره على فخذيها بغية الترهف عن نفسها سواء أكان

في احدى الجلسات او في مناسبة اخرى حيث ما كان (في المكتب ، وفي الدار ، في الحافلة ، في منازل الصديقات المتزوجات) ولا تتوانى عن التخفيف من وطأة الحرارة أيام الصيف الحارة ، وعن بل شفتيها بلسانها الطري الاحمر أمام الرجال ، وعن احتساء القهوة التي تشرب منها من الفناجين كل يوم ما تشاء بطريقتها المثيرة وعن لعق الحساء والشوربة عندما تأكل وجبة من الوجبات حول المائدة العائلية ، فيخرج من فمها صوت غريب تتصنعه لاثارة نزوات الضحك عند أبناء أختها ، وليس فقط في البيت بل أيضا في المطاعم الفخمة ، حيث تستفز الزبناء وتحتسي المشروبات على هذه الطريقة الخاصة وتأكل بيديها وتمص أصابعها فيما بعد وتقرع على المائدة بعظم في يدها وقد تعرف انه مملوء نخاعا لذيذا ... وهكذا فانها تعيش بفطرتها وبطبيعتها الخام وتدخن علبتين كاملتين من السجاير أينما كانت وحيثما وجدت حتى في الشارع ، وهكذااذا ما انهمكت في افكارها أخذت سيجارة وأشعلتها فلا تتنبه الى عملها الا بعد الانتهاء منها ولا يصدق المارة ما يرون ولم يكن من الرجال – وحتى النساء – ان يعمدوا الى تبرير حيرتهم وعدم تدخلهم ادعاء منهم انها أجنبية او فيها مس من الجنون ، أي – وفي كلتا الحالتين – انها ليست منهم وليسوا منها ، وما ان تصل الى مكتبها حتى تنفث نفسها فيطحن القلب ويسحقه ويحرق الجو من حولها ، فيخافها مرؤوسوها من الرجال ولا يتجرأ أحد على مخالفتها وتبقى هكذا تهيمن على الميدان ويعترف أدهى الرجال وأكثرهم معرفة بأمور الحب والعشق أنهم لم يشعروا أبدا بتلك الرعشات التي تنتابهم عندما تمر سالمة بالقرب منهم حاملة أنوثتها ليس بين فخذيها فحسب ، وفي حريرة سروالها الداخلي التي تحمي لوزتها المزغبة من حسد الحساد ، وتتركهم يدخلون في متاهات الغيب والتطير والعربدة والبراءة في آن واحد بل وفي شخصها كله ، فلا يدركون ولا يعلمون فيما اذا كانت هذه الردود الانفعالية

منوطة بجمالها أم بجاذبية خاصة بها ولا يمكنهم تحديد مصدرها بالضبط وبكل تدقيق .

كان الضوء رماديا والنهار يوشك على النهارية والشوارع كعادتها كانت غاصة بالراجلين الذين يدورون لا هدف لهم، ولا اتجاه يلبسون معاطف الخريف ويتزحلقون في ظليل أشجار الكستناء في الحدائق الذي صار يتنزه فيها الطاهر الغمري بعد أن فقد عادته في محاولة اختطاف الحمامات الثلجية المتناقلة ، المتباطئة وقد كان يخالها من خزف أو نشاب أو خشب مطلي بطلاء أبيض لماع ، وقد بقعت ريشة من هنا وهناك لطخات فولاذية اللون ، في هذه الحدائق حيث يمرح الاطفال بألعابهم التي لا تنقطع وبأصواتهم التي تقرع المادة التي يتكون الجو منها تمططه وتذبذبه أثيرا وفضاء وتموجه ذبذبات ذبذبات ، ولا تنفك تنطلق - الاصوات من هنا وهناك وكأنها نابعة من العدم معبرة عن تعنت الخريف وهشاشته وضيقة وبأسه ، ويميل النهار الى الزوال وينتشر اللون الرمادي شيئا فشيئا في كل مكان وكأن ظليل أشجار الكستناء ولعبة الاطفال وأرضية الحديقة ونسيج الجو القاتم كل ذلك تعبير عن كآبة السماء وحزن النهار يفقد ضوءه كالأعمى الذي يفقد سمعه او حاسة من احدى حواسه الاخرى ، يتجول الطاهر الغمري في الحديقة ريثما ينزل الليل وهو الفلك الذي يدور في مداره وكأنه يأتيه ببؤس ايجابي وخلاق وثري بكل ما يحمل من خلفيات وتحتيات ، انه البؤس الذي يدلج فيه كل من يعبر بالقرب من سالمة ، وفجأة تأتيه ترنيمات معزوفة الالف وما كان هو قد سمعها او استمع اليها قط في حياته وما كان ليعلم شيئا عن واضعها ماهلر ولا عن رسائله لزوجته يوم كان يكتب لها من البندقية.ان الفنان يسدد خطاه في الظلام ولا يعلم الى اين يهدف وهل سيمس ذريئته بسهمه ، وكان الطاهرلايستنبط هذه الموسيقى امن كآبة الجو وشحوبته فحسب بل ايضا من ذلك الايقاع الموسيقى الذي كان يتصوره نابعا من شريحة خبز تنقرها الحمامات الهائلة

بمناقرها المؤتل وقد أشرف غروب الشمس الفقيرة على التلاشي كانعكاسات النور المبلولة المتقاطرة من اغصان الاشجار .
واذا بالطاهر يتلمس شاربه فلا يعثر عليه ويتذكر انه قد حلقه بصفة نهائية وقد كانت سالمة اشارت عدة مرات الى ما تحمل هذه النتف من الشعر النابت في أعلى الشفة العليا من رمز خاص، وما يشحن عند العرب من أفكار مسبقة فتقول له «كأن فحولتكم لا تكفيكم وقضبانكم ايضا وهي مستترة مخفية بين طيات سراويلكم ، فتشهرون شواربكم وتفتلونها وتتحسسونها طيلة النهار وكأنكم تخافون أن تفقدوها ، فتحسبوا انفسكم عراة حفاة ، لا شرف لكم ولا قيمة ... » كان الطاهر الغمري ، في الماضي ، يأتي الى هذه الحديقة بعد العناية بالبقرات الثلاث فيفقد حتى الحنين اليها ويشك حتى بوجودها ، كان يجلس على أحد المقاعد ، يقرأ الجريدة الرخوة رغم العناوين الحمراء والشعارات الرنانة حول الثورة الزراعية والثورة الصناعية والثورة الثقافية وثورات أخرى لا يعرف لها عددا . كان يأتي اذن الى هذه الحديقة ويجلس يتصفح الجرائد ويقرأ وهو يتلمس من حين الى آخر شاربه وكأنه عارضة صلبة وجاسئة مجوهرة بالرطوبة كصفيحة من الفضة قد خشن لمعانها . كان يقرأ الجريدة ويتأوه ويتعذب ويتلوى لما كان يلمس بين الوقائع والمحتوى الصحفي من فارق هو اشبه بالهاوية ، فيضجر أحيانا ويقول في نفسه ، « حتى الرب نصبوا له وزيرا ، يا دين الرب ؟ » أما اليوم فهو يتجول ولم يعد يقرأ الجريدة ولا يهتم بترويض البقر ولا يربي شارباه علامة تدل على الرجولة والشرف ولا يجلس على مقعد ولا يحاول صيد حمامة من تلك الحمامات الثلجية التي تتساقط الواحدة تلو الاخرى وتقع على الارض بعنف وصخب ، وقد كان يخالها من خزف او فخار . تغمره الآن معزوفة الالف وما كان قد سمعها من ذي قبل ويغمره غناء المواخير القديمة وقد أغلقت الآن وما كان قد دخلها ولو مرة واحدة في حياته عندما كانت مزدهرة ومتكاثرة وذات تقاليد عريقة ، اما الآن فها

هي الترنيمة تقذف الاخرى فتنسج في مساحة رأسه طوفانا موسيقيا عارما ولا تتوقف النغمة الا عندما ينكح الليل الارض كالمطر الذي يسيل حبالا وكأن السماء السوداء انهزمت تحت عضة فصول الشتاء والموت ٠

يترك الحديقة مع آخر متفسح بعد ان يكون الجو قد أبرق عدة مرات بصفيرة العساس آمرا (أو مشيرا) باغلاق الحديقة العمومية ، بعد اختفاء الحمامات (الى اين تذهب ؟) وكأنها هي التي تعطي اشارة الغلق هذه وما ان يخرج الى الشارع وقد خلا من حشده وخلقه ، حتى يتقبله وابل من المياه وكأنه كان له بالمرصاد ، فلا يجد حلا الا ركوب الحافلة وللمرة الاولى في حياته يركبها لانه انتهى مع الافكار المسبقة وتخلص منها ودخل ميدان الحداثة والمواصلات الانسانية والاختراعات العلمية والانجازات التقنية ، فلا يجد فيها الا عددا قليلا من الركاب الموزعين في الاماكن الكثيرة الشاغرة ، فيتخيل ، ولم يكن له تجربة ساهمة في هذا الصدد ، أن السائق أهدأ سرعة وحركة ممن يعمل صباحا في ظروف سيئة جدا حيث يقتحمها ـ الحافلة ـ الخلق الفقير الذي ما زال يتمتع بحيوية الصباح الجديد وبما يخلفه النوم للانسان من بطش بعد ليلة كاملة ، استسلم فيها الى الراحة ٠ فركاب المساء والليل انما يحتلون مكانة مرموقة وكأنهم يحتقرون عن غير وعي اولئك المسافرين المنشغلين الذين يمتطون الحافلات في ساعات ومواقيت أخرى ويحسبونهم أقل همة ونبلا منهم ـ أي هم الذين يركبون الحافلات في الاوقات الليلية ـ ركب اذن الحافلة للمرة الاولى في حياته وقد اعتاد على القطار الذي كان يستقله عدة مرات في العام الواحد خاصة للالتحاق باجتماعات اللجنة المركزية وذلك قبل اندلاع حرب التحرير ٠ أما الآن فلا يسير الا ماشيا على الاقدام (هل الى جنب حذاء يمشي كما تقول سالمة ؟) منتعلا مشاية عتيقة لا يتذكر متى اشتراها وفي أية قرية أو مدينة اشتراها حتى ذلك اليوم الذي جاءته فيه سالمة بعد

انقطاع (أو مقاطعة ؟ لا يهم ٠٠٠) دام طويلا ، فذهب آنذاك الى الحمام واشترى ثيابا جديدة وحذاء مطاطيا واشياء أخرى من هذا القبيل ، وحلق شاربه اتقاء تهكمات سالمة التي كانت تردد ان الشارب عند الرجل العربي يعبر عن حالة صبيانية وتمظهر صبياني وأنه - أيضا - يعوض له عما يستره السروال بين الافخاذ ٠ يأخذ الطاهر الغمري اذن مكانه في الحافلة ويجلس على حافة الكرسي المصنوع من مادة اصطناعية وكأنه لا يطمئن الى مثل هذه الآلات ؛ والى جلسته هذه ، وقد تمكن من الصعود بأسرع ما يمكن ٠٠٠٠ فيهزأ من نفسه قائلا ٠٠٠ لسنا في حالة طوارىء يا رجل ٠٠٠ وعدم التجول قد انتهى منذ زمن طويل اجلس يا رجل ٠٠ ولكنه لا يغير من جلسته على ما كان عليه وهو جالسا على حافة الكرسي ٠٠٠ متخدرا ، متفرسا فهي الركاب من حوله ، مسترقا النظرة من حين الى آخر نحو واجهات الحوانيت والمغازات ، فلا يجد فيها اي ذوق في الفن ولا أية متعة ويمضي بتصفية الامور والاشياء والاشخاص بمصفاة معاييره ، وفجأة يضطرب المحرك فيئن ويهوج ويطلق شهقة مزعجة ويموت وما كان من الشاحنة ان توقفت ، فيصطدم الجالسون والواقفون فيما بينهم ، بينما سقط البعض الاخر على أرضية الحافلة ٠ وينطفىء الضوء الكهربائي ٠ ويلي ذلك صمت رهيب دام أقل من ثانية ، تلته ضجة استنكار وسخط وغضب وسب وشتم السائق المسكين والشركة ووزارة النقل والحكومة والآلهة والرسل أجمعين ٠ ويقف السائق ، واقيا رأسه بذراعه خشية ضربة يسددها له أحد الغاضبين ومتسللا بين الناس وموجها اليهم نظرة مائلة ، ثم يتلعثم قائلا : « طرأ خلل على المحرك ٠٠٠ لست مسؤولا عن ذلك ٠٠٠ الشركة هي وحدها المسؤولة ٠٠٠ هذه الحافلة هرمة ويعود سنها الى عهد الطوفان ٠٠٠ انزلوا ! انزلوا ! انتظروا ! الحافلة المقبلة ، من فضلكم ٠٠٠ » ولم يتحرك أحد ٠ فأخذ الطاهر الغمري بزمام الامور ليقرر أن ينزل رغم تهاطل الامطار وهيجان

الرياح وعبث الزوبعة بالميناء وحاملاته وبواخره ومصندقاته الضخمة ··· يترك مكانه ··· يشرع في النزول ويشعر بأنظار الاخرين تتغرز في ظهره وكأنهم يتهمونه بالخيانة · يطأ الرصيف بقدميه ··· ويشعر بالراحة رغم العداوة التي تنبجس من محيط الحافلة ، لكنه ما كان ليتقدم بضعة خطوات ، حتى بدأ الركاب بالنزول ، وكأنه اعطاهم اشارة لترك الحافلة ··· فتفرغ لتوها من الركاب وتبقى كالباخرة الهزيلة تتلاطمها الظلمات ··· ويمضي صعدا نحو العرين فيما كان الاخرون من ورائه يترددون أو يجرون أقدامهم جرا أو يحاولون اصطياد سيارة أجرة ولكن من الصعب على المرء أن يتحصل عليها في مثل هذه المدينة من مدن العالم الفسيح ··· يصعد نحو الربوة بخطوات سريعة بدون لهث او اعياء فيما راح الاخرون من ورائه يحاولون الالتحاق به وقد عمد البعض الى تجاوزه ولكن هيهات ! يلتفت الى الوراء ويلاحظ أن بعض المراهقين يبذلون قصارى جهدهم للتفوق عليه ، ولا يتمكنون فيتذكر سيد احمد وهو يهزم امام البلجيكي الخبيث ويتذكر عمتي فاطمة : « حبوا يتزببو قبل ما يتعنبو ··· »

أما سالمة فقد كانت جالسة على زريبة تغطي كامل أرجاء الحجرة بصوفها الملونة والعميقة ، تشرب شايا · ويدخل عم الطاهر والماء يتقاطر من كل جانب من جوانب جسمه وكل جزء من أجزاء ثيابه ، فتقف له سالمة على عتبة الباب وتمنعه من الدخول ، ريثما تطوي جانبا تلك الزريبة الجديدة ورائحة الصوف تتآكل حوافي الاشياء في الغرفة ومناخير الموجودين فيها فلا يملك من أن يسأل : ما هذا ، بنيتي ؟ ما هذا ؟ لقد زال عصر الامويين والعباسيين والمماليك وملوك الطوائف والامبراطورية المريضة والدايات والبايات ··· ما هذه الفخامة ، سالمة ؟ لا يمكن ··· أما هي فلا ترد عليه وتتركه يتساءل وتحمل استكانة الشاي في يدها اليمنى وخرقة التجفيف في يدها اليسرى ، تطرحها تحت قدميه ، فيمرر عليها

حذاءه المطاطي الجديد ويتخلص بما علق عليه من الوحل ثم يخلع الحذاء ويدخل الحجرة وتكاد قدماه تغرقان في الصوف فيتذكر أيام الشعفة والنسوة يغسلن الصوف في الجداول الجليدية ورائحة الصوف تعطن الارجاء وتمتزج برائحة المشمش الجاف وقد أزيل عن السطوح ووضع في جرات من فخار يعوم في زيت الزيتون ليستهلك في الشتاء ، يوم يغطي الثلج الكون الذي اعتادوه وآفاقهم الضيقة التي ألفوها متجاهلين ما في المنظر من جمال خلاب وينظر الطاهر الغمري اليها مبتهلا متوسلا لعلها ترضى أن تقدم له بعض الاستيضاحات والتوضيحات في الموضوع وتبقى هي صامتة لا تقول شيئا ، يمشي حذرا وكل قدم من قدميه يغرق في المادة الخام ، يسير كالاعمى خائفا من وضع قدمه في حفرة أو فجوة أو هاوية ، خاصة وأن الضوء المتدلي من السقف ظهر وكأنه يسطع سطوعا أشد من ذي قبل فيخيل أن سالمة قد غيرت المصباح الكهربائي واشترت مصباحا آخر أقوى منه اضاءة ، فيشعر وكأن القمر بزغ من تربة الحبقة التي ما زالت في مكانها وقد نزل شريط الكهرباء بخط متوازي لخط الاصيص الفخاري ، وكأن هذه الانارة الجديدة راحت تفصل الظلام بشرائح وبطبقات من الملح البارودي ، فيشبه العرين هكذا أكثر ما يشبه غار الملح بخطوطه اللامتناهية المخضبة بونيم الذباب وما عتم أن استبدل لونه الكستنائي بلون عاجي مبهرج مثل زهر النرد يميس على المنضدة في حركة سرمدية ٧/٥ ؟ يزيدها تهاطل الامطار واقعية (فيما الثلوج على الهضاب العليا والمرتفعات) والليل منتفخ ، فيقول الطاهر في نفسه « ولعلها اشترت غلاية جديدة ؟ هذا مستحيل ... وغلايتي المبعجة لن تتركني أبدا ! » ويخاف أن ينظر الى المكان حيث اعتاد أن يضعها ، فيتيقن انها هي نفسها لم تتغير ويرتاح ويطمئن باله وقد راح ضميره يوبخه : سالمة ليست حمقاء فهي تعرف ما لبعض الاشياء من ثمن لا يقدر ، فلكم الغلاية شاهدت ضروبا من الازمان ولكم سايرتنا الايام فاصبحت خير -

شاهد على ما عشناه وعلى ما قطعنا في الوجود ··· فيقدم الطاهر الغمري رأسه نحو الفضاء ويتعجب مما يفعله مجرد تغيير مصباح كهربائي في قلب محيط الانسان ، وكأنه يحاول بلورة الجو الذي يمشي فيه بكل حذر وأناة ، يتقدم ولا يلبث ان يصل الى وسط الحجرة فتقول له سالمة بأن يجلس وتومىء اليه بأن يخضع الى أوامرها وكأن « دار السعادة » تحولت الى باخرة تموج في حضم البحر الهائج والزوبعة ترهف احساسه فيما الزربية تغطي الفضاء بنعومتها القطيفية وبكثافة مشحونة بمراسيم الحياة والحفلات الرسمية والتأبينات وغيرها من الامور التي لا يعرف لها معنى الا عند قراءة الجرائد الرخوة التي تتحدث عن تيار التاريخ بكلمات المضحكين الذين هم أشبه بالاقزام الذين كان الدايات يستعملونهم كمهرجين وبهلوانيين في قصورهم ، في عهد الباب العالي والقرصنة وفي عهد الساعات الجدارية الصقلية الموروثة ولم تكن أم سالمة لتعرف حتى قراءة الساعة على هذه الآلات المرصعة ذهبا وفضة · يجلس الطاهر الغمري كما أمرته به سالمة وكأنما الحجرة باخرة وسالمة نوتيتها ، فيشعر وكأنه جلس على فراش من العشب الابيض تحت شجرة التوت حيث كان قد حشرها ابوها ، بصحبة أخيها فؤاد واختها سعيدة · فيتساءل وكأنه زج به في قصر من جليد : هل ملك أنا أم مجنون ؟ وتقول سالمة : أليس أقرب ما يكون الى الملوك المجانين ؟ أليس الامر هكذا في لعبة الشطرنج ؟ الشاه مات ؟ اضرب خمسة عم الطاهر ، اضرب ···

الفصل الحادي عشر

يتصور الطاهر الغمري وهو جالس في حجرته وقد بدت عليها علائم الاناقة (الطلاء الناصع ، الضوء الكهربائي ، الزربية الجديدة) يتصور بو علي طالب فوج الفدائيين الذين عملوا معه بوم كانوا يرسمون العمليات الارهابية في ورشة اللحامة ، قبل تنفيذها في حق من يستحق العقاب من أجانب ومعمرين ومسؤولين ومرشدين وعلى من تعاون مع الشرطة ومع أعوان السلطات القمعية من أهلين وخونة عملاء الاستعمار . يتصورهم وهو يسطر خطوطا ويرسم السهام (اتجاهات بالمعنى الرياضي) انطلاقا من مجموعة أقراص ملونة صغيرة الحجم ، يمثل كل سهم من الاسهم أشخاصا معينين ، في وضعية معينة أو في حالة من الحالات المتواجدة ، بحيث أن كل عملية يقوم بها أحد الافراد أو المجموعة بأكملها لا تتم الا بعد تخطيط مدروس ومحكم يتركز بالاساس على جزئيات طفيفة وتفاصيل صغيرة لم يكن المرء ليهتم بها عادة . أما هنا فقد كان بو علي طالب يعكف على تخطيطه بدقة وينهمك في عمله وكأنه يتابع بعينيه تنظيم العملية على رسم يخططه ويخطه الفدائي على سبورة كانت معلقة في مؤخرة الورشة فيوليها أهمية كبرى بحيث لا يترك للصدفة فرصة ولا للارتجال مناصا . فكل قرص من الاقراص كان يمثل كل من كان في مكان العملية وما يرسمه بطباشير حمراء كان يشير الى حركات كل من الافراد الذين تواجدوا في عين المكان ، فيخال الى من يستمع الى عرضه وشروحاته الدقيقة

كأنه يعيش الواقعة بكل أحاسيسه ومشاعره وكأنه زج هو الآخر في خضم الامور فتظهر له في تسلسلها وتكثيفها وتنفذ بأقل من لمح البصر وكأنها صاعقة فتاكة وفوضوية ومفاجئة انقضت بغتة فقتلت وسحقت وأبادت ··· اذن تسلسل وتركيز مكثف وتراكب وتنظيم مدقق لمختلف العمليات بحركاتها وأصواتها وصيحاتها وطلقاتها النارية ومتفجراتها ··· ويمر كل ذلك في ذهنه بشكل مسلسل حافل بالصور الثابتة المستمرة المنسجمة على غرار سحابة شريط سينمائي مثير بحيث انه لم تتغير وضعية أحد الاجسام الا وتغيرت وضعية غيرها من الاجسام بشكل غير محسوس لشدة ما فيها من دقة وتلاحم بعضها ببعض · ولا غرو فهناك صور متعددة متقطعة ومطبوعة على الشريط بحيث انها تقسم الحركة الى عدة أجزاء متماسكة متحابكة فلا يستفيق لها المتفجر ولا ينتبه اليها بشكل من الاشكال · ويمضي بو علي طالب في تنسيقه فلا يترك أي تفصيل لعبث الصدفة ولا يهمل أي افتراض يمكن افتراضه عمليا · فاذا ما نظمت العملية في أحد الفنادق الفخمة في وسط المدينة ، راح يرسم هندسة البناية بكل دقة مشيرا الى أبوابها ونوافذها ومنافذها والى من قطن في النزل من أشخاص أيما كان نوعه · فها هو البواب بزيه الشبه عسكري وقد تجاوز سن المراهقة فيبدو صبيا برأس شيخ مسن أو بالعكس بل يذهب الى ملاحظة كل ما يمت اليه بصلة من لون زيه البني وشكل قبعته الاسطوانية وأنفه المحمر من فرط تعرضه للبرد القارس ، ووجهه الذي تعلوه نظرة متسائلة مستغربة ، فيحدق فيه ويتقدم اليه (أو الى البوابة التي يزعم حراستها) ويدفع بنصف حركة احدى المصارع الزجاجية التي يتكون منها الباب المتعدد الدفات والذي يدور على وتد مركزي ملولب أو لولبي الشكل فيرى ظله وقد انعكس على الزجاج وربما كان خياله هو الذي انعكس (أو حتى شبحه ، من يدري ؟ خاصة وان الحياة التي يعيشها واحتكاكه بالموت يوميا أفقداه حس التمييز بين الواقع وما هو

موجود والعدم وما يضمحل) يتراءى له اذن هذا الخيال أو الشبح تحت سحيرات الظل وتهاطل الاضواء المكعبة في بهو المنزل المتساقطة من أعاليه فترتسم أمام أعينه انعكاساتها المنزلقة أفقيا فعموديا وذلك انسجاما مع دوران الدفات المتداخلة بعضها ببعض ، وما أن يعبر البوابة المتشعبة الاطراف والاشكال حتى يجد نفسه محاطا بفيلق من الاشباح المتساقطة من الخشب الملون فيكسر الضوء المتركز في وسط البهو ويحطمه جذاذا مما يخلق تلك الظلمة النسبية الفاترة التي تنساب الى القاعة العالية الفسيحة فيخالجه شعور بالخوف يتسلل اليه وقد فوجىء بهذه العتمة غير المتوقعة **هو على يقين بأنه سيجد نفسه بعد قطعة حاجز البوابة** الحلزونية المتحركة على محورها المتهزعة على قطبها المركزي ، في قلب ضوء ساطع يتفجر من آلاف المصابيح الكهربائية الضخمة التي لا يراها المرء وقد اختفت في تعرجات السقف فلا تخفى عليه بل يراها هو ويشعر بحرارة أشعتها المتدفقة تدفقا يبهر الاعين ، واذا به محاط بعتمة خافتة ناعسة فلا يتمالك من أن يتسرب اليه شيء من الهلع والفزع والشعور بأنه وقع في فخ نصبه له أعداؤه (من شرطة وجنود الجيش الاجنبي ومن عناصر المخابرات ...) **فينشأ فيه هذا الهلع لا لاحساسه بأنه يدخل في دهليز غامض ومشبوه قلت فيه الانوار وشحت الاشعة ، وهو حامل** قنبلة زمنية مخفية في باقة ضخمة من الزهور الرائعة (بألوانها الزاهية وكتانها الحريري تارة أو القطيفي طورا يختلف نوعها بحسب نوعية الزهور ...) بل ولأنه عبر تلك البوابة المتعددة الدفات والتي تدور على نفسها وعلى مصارعها الزجاجية الملونة ، فتبعث حثيثا من الهواء طفيفا ووشوشة من الضجة خفيفة ارتعش لها الفضاء على أثرها مما زاد من هلعه وولعه (وان كان طفيفا) فشعر بنوع من الدوار والحصر والضيق النفسي يسيطر عليه فيدخل في حال من الانغلاق الفضائي والدردور الرطب علما بأن كل هذه الامور وكل

هذه الاحاسيس والمشاعر لم تدم أكثر من بضعة ثوان أحس خلالها بنضايض القنبلة الزمنية التـي لا يسمـع نبضاتها أحد سواه ؛ فتمتزج بدقات قلبه وخفقان ذهنه فأخذ يصطدم بيأس مقـذع رهيب بهذا الجدار .وهذا الحاجز الذي ما كان ليتوقع وجوده لما كان أمام رفاقه يرسم على السبورة أنواعا من الخطوط والاسهم على أشكالها وهي تشير الى كل ما في النزل من أشياء وأحياء وقد اعترى أصدقاءه غمرة من الفرح الشديد وكلهم أمل في نجاح العملية فيما كانت وسائل القمع على أنواعها مجندة للبحث عنهم بغية العثور عليهم وجرهم بأعناقهم تحت شفرة المقصلة مثلما سبق وفعلوا مع العديد من الفدائيين (فكانوا يوقظونهم في ساعة مبكرة ويجرونهم نحـو الآلة الرهيبة اللماعة التي أوكل بالسهر على حفظها وصيانتها الى اناس يحملون على محياهم علائم الطيبة واللباقة، وهم ارباب عائلات كبيرة وآباء أطفال وأولاد فيعملون على تشحيم أجزاء المقصلة وتشحيذ شفرتها وكلهم منتسبون الى نسل من يأخذونهم بأوجههم المقنعة ويضعون أعناقهم تحت الشفرة الضخمة ، فيعملون ويكدون وقد أصبح قطع الرؤوس أمرا عاديا عندهم ، لا لشراسة فيهم ولا لكراهية ، وانما لاسباب مهنية صرفة وقـد أصبحـت هذه المهمة مهنتهم فيتقاضون من جرائها أجرتهم الشهريـة فيذهبون الـى المقاهي ويلعبون بالاوراق ويختلفون الى بيوتهم فيمارسون الجنس مع زوجاتهم حتى اذا ما فقد أحدهم فردا من أفراد العائلة أو صديقا من أصدقائه بكى عليه بكاء مرا ، فهم في الحقيقة لا يعرفون مـا يحترفون وقد كانوا يحضرون كل يوم الى العمل وذلك طيلة سبع سنوات متتالية حاملين معهم حقائبهم الصغيرة وأقنعتهم السوداء ، فيركبون المصقلة في ركن من أركان الساحة المخصصة لمثل هـذه الاعمال ويتفننون في تشحيم كل عضـو مـن أعضاء الآلـة الفتاكة ويراقبونها كل يوم لئلا يعتريها أي خلل مفاجىء حتى اذا ما مددوا جسم المحكوم عليه بالاعدام وضعوا عنقه تحت المقصلة ووقفوا

ينتظرون اشارة من القاضي الذي جاء لمشاهـدة العملية والاشراف عليها ، وما أن تنتهي العملية حتى يرجع الى مكتبه فيضع اعلانا صغيرا يلصق على باب السجن كما ينص على ذلك القانون فيأتي أولياء السجناء ينظرون الى تلك الاسطر المكتوبة بلغة أجنبية لا يفقهونها ، وهم أميون ، ويبقون على حالتهم عاكفين ويفهمون عن حدس أن المحكوم عليه نفذ فيه الحكم بالاعدام وأن رأسه قد وضع الآن في سلة مليئة بالنشارة التي راحت تتشرب دمه ، ثم تعاد الجثة وقد رتق الرأس على العنق بعد اجراء عملية خياطة بسيطة يقوم بها اختصاصيون في هذه الامور الغريبة ...) انهم يجرون هـذا العمل مع من هو صديقهم ورفيقهم وأخوهم وقد لعبوا معه الورق قبل القاء القبض عليه ، اذ كان في الامس يعمل معه في نفس الفوج أو في أفواج أخرى لا صلة لهم بها ، حيث أن التنظيم يقتضي الا يكون هناك أية علاقة بين الفوج والفوج الآخر تمشيا مع ما تقتضيه ضرورة السـرية والعمل الفـدائي . وها هو بو عـلي طـالب وقد ساده الولع بضعة دقائق اذ وجد نفسه أمام هذا الحائط الفاصـل بين البوابة والبهو فيحسب نفسه وباقة الزهور بين يديه انه قد وقع في مصيدة ، يشعر بهزلية الموقف ويساوره الظن أن هناك فـي الفوج من يتعامل مع البوليس وانه سوف يجره بعدما أمسك به الى احدى سيارات البوليس السوداء التي تنتظر وراء النزل ، لكنـه سرعان ما يسترجع هدوءه وبصيرته وبرودة الدم التي اشتهر بها ، خاصة وانه عالم بوجود اعضـاء من فوجـة حاملين المسدسـات والرشاشات التي أخفوها تحت ثيابهم العريضة وتحت برانسهم ، فيوقينه من كل أذى ومن كل مفاجأة وانهم على اهبـة الاستعـداد لاطلاق النار على كل من تسوله نفسه محاولة عرقلته أو مطاردته كما انه يعلم أن في النزل نفسه متسللين قادرين على مد يد العون له والمساعدة اذا ما تطلب الامر ، ثم يفقه فجأة ان الحاجز هذا انما هو مجرد جدار من الخشب أو من الفلين يوضع عادة عند كل مدخل من

مداخل الفنادق في العالم وان العتمة بعد عبوره الحاجز لا تلبث أن تزول فيتفجر الضوء اذاك ويطوقه من كل جانب ويتذكر أنه رسمه على السبورة بتعريجة ملتوية على شكل موجة ، فيرتاح من جديد ويسترجع ثقته كاملة بنفسه ويسرع بخطوات حثيثة وكأنه يرغب في التخلص من هذا الباب الذي يدور على محوره واجتياز هذا الحاجز المقيت فيخال اليه انه أضاع وقتا طويلا ثمينا على انه في الحقيقة لم يضيع ولو ثانية واحدة فينطلق نحو البهو ويتقدم الى شباك الاستقبال وباقته الضخمة تغطي وجهه المقنع بالاوراق والالوان والبتايل الناعمة ، وهكذا وفيما هو ماض الى الامام نحو غرفة الاستقبال ، يمسح وجهه بصبغة من الخنوع والابتسامة المتملقة ، فيستقبله المشرف رافعا ذراعيه نحو الباقة متسائلا ، باحثا عن الرسالة الصغيرة التي توضع عادة داخل الباقة الحاوية بعض العبارات التي تنم عن عواطف الود والصداقة ، حاملة اسم الباعث واسم الرجل او المرأة التي كان لها الحظ بأن تهدى اليه مثل هذه الباقة الفخمة الرائعة ، واذا بزبائن النزل ينظرون اليها بشيء من الغيرة والرغبة والحسد ، فيقطع المسافة الفاصلة بينه وبين شباك الاستقبال بسرعة متأنية رصينة ، فيما ينظر اليه المشرف ويرفع ذراعيه نحوه ، باحثا - قبل استلامه الباقة من يديه - عن الرسالة الصغيرة وعن اسم الزبون أو الزبونة وعمن سوف يختار من بين الصناع الصغار فيكلفه بمهمة الصعود بالباقة الى حجرة الشخص الذي تشير اليه البطاقة التي توضع عادة وفي مثل هذه المناسبات داخل الباقة الجميلة ، واذا بطفلة صغيرة لا يدري من أي مكان جاءت تنطلق وتأخذ تدور حوله وتتفوه بكلمات متزأزئة لا يسمعها ولكنه يفهم معناها : « أعطني ولو واحدة ... » فيقول في نفسه : « لا يحق لي أن أفعل ما أفعل ، فسوف تموت هذه الطفلة البريئة لا أقدر ... سأعود بالباقة الى حيث اتيت ... مستحيل ... » وتلح الطفلة عليه ولا تتركه ، بل تطوق ساقيه بذراعيها الصغيرتين ،

وتكرر مثلثلة : « أعطني زهرة جميلة من هذه الزهور·· أعطني·· »
ويحاره في امره لا يعرف ماذا يفعل وتمر بأقل من ثانية اعتبرها قرنا
فيبلل العرق جبينه ويسيل الماء المالح من تحت ابطيه « مستحيل ···
لا يمكن ··· بريئة ··· ولكن الاخوة هناك ، سوف يعدمون سوف
يحرقونهم مثلما أحرقوا سيد أحمد حيا ··· » وفجأة يبعد الطفلة
الصغيرة ويفتل ابتسامة تجمعت فيها كل ما في العالم من خشوع وما
في الكون من مذلة ، فيضع الباقة بين أيدي المشرف على الاستقبالات
بالنزل ، وينصرف بخطوات ثابتة سريعة ··· والدمع يتصاعد من
بطنه الى جسمه فلا يظهر أي اضطراب ، ويتصوره الطاهر الغمري
وقد خرج من النزل وعيناه مغرورقتان بالدموع ، ويلتحق بأعوانه
في العملية ولا يريد أن يراه وهو يبكي ، فيخرج منديلا من جيبه
ويتصنع السعال والعطاس ، ولا يسأله أحد عما أصابه وقد فهما
كلاهما كل شيء ، فيأخذان بذراعيه ويهرع ثلاثتهم الى محطة القطار
حيث يترقبون الانفجار الذي سيحطم أفخم نزل في المدينة · وفجأة
يرتفع دوي كالرعد في الفضاء فيما كانوا هم على أحد أرصفة محطة
القطارات ، وترج الارض تحت أرجلهم فيرون من بعيد دخانا أسود
اللون قاتما يتصاعد ، كثيفا مكررا فلا يعتريهم لا فرح ولا غبطة
ويتساءل بو علي فيما اذا كان يحق له أن ينفذ حكم الاعدام في طفلة
بريئة يتذكر جيدا كلامها المزأزأ : « أعطني زهرة ··· أعطني
زهرة ··· » ولا يتمالك من ذرف الدموع مدرارا فيما يخيم الصمت
على المدينة بضعة دقائق ويبقون هم الثلاثة واجمين غائبين فيفهم
الاثنان مغزى الامور كله وما جعل بو علي طالب في حال التأثر
الشديد ، فيقبضان على ذراعيه ويضمانه اليهما بحزن وكآبة وبؤس
لا حد لهما · ثم ينصرفون نحو الورشة ، وورشة الالماني (بو دربالة)
ولا يحاول أحد أن يقول مثلا : « لقد أعدموا البارحة رفيقا اخر
لنا ··· » ومنذ شهر كانوا قد أحرقوا سيد أحمد بعد أن أذاقوه
الامرين وعذبوه عذابا جنونيا لا يمكن أن يتصوره العقل ، لقد أحرقوه

بعد أن صبوا عليه عشرات الليترات من النفط ... والآن لا يجـروء أحد على التفوه ببنت شفة ، ويعودون الى ورشة اللحامة وكأن العالم قد توقف فجأة عن الدوران حول محوره الاساسي ، فيما راحت صفارات الانذار لسيارات الشرطة والاسعاف والمطافىء تلعلع في الاجواء وتصرخ وتعول ...

ويذكر الطاهر الغمري فيما يذكر أن صورة تلك الطفلة الصغيرة ما انفكت تساور أبو علي طالب ولم تفارقه أبدا صورة تلك الاجنبية التي راحت تجري وراءه متلمسة منه زهرة ... فما أتى يوما الى الجبل الا وتحدث عنها وعن الكوابيس التي ما فتئت تضغط على رأسه اثناء نومه في تلك الحجرة الضيقة التي سكنها فاستقر فيها بعد مغادرته فندق السعادة أو وكالة الهناء أو العكس . فكان لا يدخلها الا للنوم ولا يمكنه أن يرتاح كما يتمنى ، اذ كان يسمع الشيخ الفرنسي وهو ينهال على كلبه الهـرم المريض بوابل من التوبيخ والضرب القاسي ، الشنيع ، ويحدث أن يأتي الشيخ اليه من حين الى حين فيطرق الباب بعنف وقد استولى عليه الفزع والولع وفقدان الوعـي ، يأتي بحثـا عن كلبـه الذي هـرب . وقد كان الكلب يتركه هكذا لمدة أيام أو أسابيع أو أشهر على أنه لا يلبث أن يعود بعد غيابه هذا الطويل تاركا في أثنائه الشيـخ يمرض ويدمدم في فراشه وفي عزلته : « يا للخائن ... تركني أنا الذي ربيته وأطعمته اللحم ... يا له من عربي قذر ... يا له من كلب لقيط ، وحيوان مكلوب ... عربي قذر ... ابن الكلب ... » لقد كان يعمل هو آنذاك في الورشة أثناء المقاومة الوطنية ، يصنع الشبابيك ويصنف القنابل الزمنية تصنيفا حكيما مرنا دقيقا ، حتى انه ذهب في يوم من الايام ضحية احداها ... وما صعد يوما الى الجبل لتصليح الآلات اللاسلكية المتعطلة أو المعطوبة ، الا وتذكر هذا المشهد ... طفلة صغيرة سي الطاهر ماتت بل وقتلتها أنا ... ما ترددت الا بضعة ثوان فقط ... اني أحلم بها كل ليلة وهي تأتي

الي بباقة زهور مثل تلك التي راح ضحيتها المئات من الاشخاص ... واحد من هؤلاء لا يهمني أمره مهما كان عددهم ، الا هي ، هذه الصغيرة ... وما أن تقرأ سالمة ليليات الطاهر الغمري بعد وفاته حتى تشهق وتبكي . تقرأ هذه العبارات عن شعور بو علي بالذنب وقد عانى منه الكثير وراح يردد لمن له آذان صاغية : « يا للكلاب ، لقد أرغمونا على الارهاب ... أنا لست ارهابيا ... أنا أحد المدافعين عن أرضهم لا أكثر ولا أقل ... لقد ذبحونا ... ولكن أولئك الاطفال ما ذنبهم ، ما ذنب الاطفال في الحروب ؟ لو أتيح لهذه الطفلة أن تكبر لعلها ناصرت قضيتنا ... من يدري ؟ ولكن الحرب ... وسيد أحمد ، وكل المعدومين ، وعائلة سي الطاهر ... أما أن يقال عني اني أنا قتال الاطفال ، فلا ، لا أطيق ذلك أبدا ... » تقول سالمة وتقرأ وبعد أن ورثت الكراس الاحمر وعلب البق من أخيها ، ها هي تعود في يوم من الايام الى الطاهر الغمري فتجده ميتا ومضرجا بدمه الذي تقيأه من فمه وقد تهرأت رئتاه نهائيا . لقد كان يعلم هو بذلك وأبى أن يعالجه أحد بعد أن عالجه الحكيم فلا يريد طبيبا غيره يعالجه ... ولكن ما الحيلة وقد مات الحكيم منذ زمن طويل كما مات بو علي طالب وسيد أحمد ومليون شخص آخر ... وجدته سابحا في غدير من الدم . وعندها تفهم أنه قبل أن يغير مجرى حياته فيشتري ثيابا جديدة ويغير الاثاث من مكانه نزولا عند رغباتها ، كان يعرف علم اليقين وأحدس بحدسه المرهف أنه سيموت عن قريب ، لكنه رفض مساعدة لطيف له وراح يهزأ باختصاصه وبتخنثه وما كان ليعرف للتزمت معنى ولا للافكار المسبقة ، بل بالعكس ، فقد كان وهي كانت تقص عليه حياة لطيف وما كان يسبب له شذوذه من مهانة ، كان يشفق عليه ويكفر بنفاق هذا المجتمع المرتبك المعقد الذي أضاع معنى العمل وكيفية التصرف وقد أصبح سجينا بين مآذن التفاهة وصواريخ العلم والمعرفة ... يا له من شعب جاهل . فما له يبقى هكذا كالمصعوق مشدوها متحجرا

وقد انهالت عليه طفحات البراكين وحمم التاريخ المختلفة فراح يعيش في جوها ويعاني منها بل يدخل في حضاراتها ويعتصم في جغرافيتها ٠٠٠ يا له من شعب جاهل اذاك الذي بعد قرن ونيف من الجوع والخوف والتيه ، لا يعرف كيف يفعل وماذا يدري وهو لا يصدق نفسه انه توصل في الحقيقة وبكل معنى الكلمة الى دفع المستعمر خارج الارضية التي شاءت الصدفة والاقدار والهجرات والتقلبات والغزوات أن تكون أرضيته هو واقليمه وميدانه ٠ فالقطط نفسها (والقط الاسود مسعود لا يشذ عن هذه القاعدة المحتمة) حتى القطط لها ميادينها تحددها ببولها ، فلا يدخل أحد الا وتقوم القيامة وتندلع المعارك وتشتعل الحروب بدواماتها ومتاهاتها الدموية ٠٠٠ اذن يعلم الطاهر الغمري انه سيموت لا محالة وسالمة لا تقاوم ولا تعارضه عندما يرفض أن يفحص لطيف رئتيه لانه هو الطاهر يعرف قيمة الوفاء والامانة بالعهد حق المعرفة ولم يقدر أبدا أن يخون ذاكرة الحكيم وذكره ذاك الذي عالجه مدة سنوات ، مازجا بين العلم والطب والسياسة والفكاهة والعاطفة فلا يعرف كبتها البتة « كيف حال وردتيك اليوم ؟ ما حال وردتينا يا سي الطاهر اليوم وكيف الوضع عندكم ؟ ٠٠٠ الفلاحون الفقراء أمانة في أعناقكم لا بد من أخذهم على عاتقكم وأنت أدرى مني بهم ٠٠٠ والحزب أيضا هو أمانة ٠٠٠ كيف حال وردتيك ؟ ٠٠٠ لا بأس ، لا بأس في تحسن ملحوظ ٠٠٠ كيف كان اضراب الخماسين ؟ الجرائد كتومة لا تقول شيئا عنه ٠٠٠ كم كانت النسبة في منطقتكم ؟ » ويخلط هكذا بين هذا وذاك ٠٠٠ فيفحصه ويعالجه ويناقش في السياسة بدون ما هوادة ، ثم يصعد الى الجبل بعد مفاوضات أخوية واتفاقات مكتوبة وأخرى معنوية غير مكتوبة ومعانقات وتقبيلات ويكون مصيره أن يذبح بموسى حافية ٠٠٠ وعم الطاهر لا يزال وفيا للرفاق ٠٠ وما حدث أن قال لها يوما انه كان على اتصال دائم مع الحزب فما كان ليتحمل أية خيانة أيا ما كانت ويعتبر الخروج من الحزب وجها من أوجه الخيانة العظمى ،

وليس ذلك لما يحمل الحزب من مفاهيم سياسية ونظ.يات علمية فائقة خارقة به لانــه تعلـم منذ أيــام تدريســه القرآن أن العمل السياسي من خاصية أشخاص لهم نقائصهم وفضائلهم كما لهم مزاياهم وعيوبهم ، وانهم أيضا أصحاب أحشاء وامعاء وقلــوب وعاطفة ، واستيهامات وهواجس وأجساد ٠ وقد كان على يقين أيضا أن سالمة كانت في صميــم الموضــوع عندما مضت تتساءل قائلة : « ما لون عينيه ، عم الطاهر ؟ أريد أن أعرف ما لون عيني سيد أحمد وكيفية تسريح شعره ، وهل كان يحب امرأة وهل كانت تعشقه امرأة ؟ » وكان عم الطاهر ينفعل أو يتفاعل الغضب فيقول : « وما علاقة التاريخ والثورة بلون الاعين ؟ تعقلي بنيتي ٠٠٠ مهلا ٠٠٠ سعاد ، (فقلبي اليوم متبول مبلول) ويعترف أن التاريخ لم يكن فقط أوضاعا موضوعية وعوامل علمية وانما هو أيضا وليد الصدفة والذاتيات ، والا لما كان هو قد انخرط لا في جمعية ولا حزب ، ولعل حادثة ماي ١٩٤٥ التي راح ضحيتها كل الدوار وبقرت أثناءها زوجته وابنتاه ٠٠٠ ثم تصعد الى العرين وتغيب يومين ، يومين لا أكثر ، ثم تأتي فتجده سابحا في دمه ٠٠٠ « مات عم الطاهر » ٠٠٠ مات وترك لها يومياته ولياليه ٠٠٠ وها هي الآن مكبة عليها تقرأها وتعيد قراءتها ٠ وترك لها الدجاجة التي بحث لها طويلا عن اسم ولم يفلح فأعطتها هي لقب « الصفرة » لا تهكما به وانما هكذا ، بدافــع الصدفة ٠٠٠ والتاريخ أيضــا وليد الصدفة ٠٠٠ وترك لها أيضا علب الصمغ وأقلام القصب ، وترك لها ذكرياته التي تمت كلها الى الصراع القائم بين الفقراء والاغنياء ، بين المستغلين والمستغلين ، والتي تمت أيضا الى حزبه هو الى حزب الحكيم والذي هو حزب غيرهم ممن يمثلون على تلك الصورة التي مــا كانت تفارق جيب سترته قط والتي لم يلصقها على الحائط الا بعد أن أنهى صلته مع الحياة وفهم أنه على وشك فراقها فلا يعتم أن توافيه المنية ، فقبل بالرضوخ الى أوامــر سالمــة وارضائها وتنفيــذ رغباتها

بحذافيرها وقبل بالتوصل معها الى حل وسط حول تحديد التاريخ وكثيرا ما كان قد صدمها بتصريحاته الاستفزازية يوم كان يذهب الى أن التاريخ لا يصنع بل انه كالطحلب لا ينبته أحد ... وقد كان يغضب من رفضها ومن عدم موافقتها أقواله فكان يعتمد المغالاة في الرأي فيذهب الى أن التاريخ مخرأة ويفاجئها هي التي كانت قد تعودت منه الكلام اللين والحديث الطريف والتصرف اللطيف ، فكانت تسقط من حين الى حين في شراك حبه على أنها ترفض الانسياق وراءه مخافة أن تولد مثل هذه العلاقة العاطفية وضعية خاصة لم يعد بامكانها السيطرة عليها ، كما انها تعلم كل العلم أنه سوف لن يقبل بذلك اطلاقا ، فتقول له من حين الى حين : « نتزوج عم الطاهر » ... فيضحك قائلا : « لكنني متزوج ... آه ... أعني ... أرمل ... بنيتي ... » وتضحك هي بدورها من خرافاتها هذه وتخريفاتها ، فتعرض عليه أن يفحصه لطيف . فيرفض بشدة ويهزأ باختصاص أخيها : « يعالج أمراض النساء وأنا مسلول ، مسلول يا سالمة ... واني لو تركت أحدا يفحصني ويفحص رئتي لشعرت بالخيانة تجاه الحكيم ... وهذا أمر مستحيل ... أما فيما يتعلق بخنثويته فلا أرى أي مانع في ذلك ... أتحسبينني متزمتا لكوني درست القرآن ... بلى يا سالمة ... »

ويموت عم الطاهر ويترك لها يومياته ولا يوصيها بشيء ولا يترك أية وصية ... فتبقى مع ما يساورها من تساؤلات ومع حدادها فيما يمضي القط الاسود يدور من حولها ومعزوفة الالف تزرع اظافرها في لحمها الحزين . لقد راح عم الطاهر وانقضى معه عهد بكامله وجيل برمته ... ويأخذ الحنين منها مأخذه ومن قلبها ، وينثر مسحوق اللوعة البنفسجية على حياتها وكأنها اصبحت يتيمة للمرة الثانية من جديد ، بعد أن فقدت أخاها البكر وورثت منه لا العلب والكراس المكتوب بالحبر الاحمر فحسب ، بل والذكريات والروائح والاصوات ، فتنزلق من ميتة الى ميتة ، وتتدحرج من

توتة الى توتة ، وتبقى هي واللوعة في فؤادها ، ويحاول لطيف اقصى أجهده الترفيه عنها فيعلق قائلا : « لم يكن حزبيا وفيا فحسب بل وفنانا أيضا ، أتذكرين ما كتبه ماهلر حول الفنان وحول عزلته ولوعته ؟ » (الفنان رجل يسدد خطاه في الظلام ، فلا يعرف إلام يهدف ، وفيما اذا سيهدف يوما الى شيء ؟) يحاول ولا يفلح ... ولم تبك سالمة عم الطاهر ... لكن الحسرة كانت تبكي فيها ، فالصبابة شديدة لا تطاق ومعزوفة الالف تجدس عظامها وتقهرها ومن حين الى حين يبرق بصيص من الامل فتقول في نفسها : « كان عوده مستقيما وظله أيضا وذلك حتى آخر نفس من حياته ... » ولماذا أخفى عليها أنه ما انفك على اتصال بالحزب ؟ أكان يخاف مني ، أكان يشك في نزاهتي ؟ المفيد الآن انه مات كما أراد أن يموت وقد كان يدري أن رئتيه سوف تخونانه يوما وسوف تذبلان الى حد الموت . أجل لقد كان ظله مستقيما فكان موته طبيعيا وعاديا ... على أنه كان نوعا من الانتحار ، اذ انه بعد أن مات الحكيم أبى أن يرى طبيبا ، وقد كان ذلك نتيجة شعور بالذنب تجاه الآخرين هؤلاء الذين ماتوا كلهم فيما نجا هو من الموت آنذاك ... فندم على هروبه من وجه أعدائه يوم علم أنهم قرروا ذبحه لكونه منتميا الى عقيدة لم يسمعوا عنها شيئا كانوا ويخشونها بدون أن يعرفوا منها شيئا ، لا يعرفون . الام تهدف اليه ولا ما تحتوي عليه من مغاز ومعان ... لم يمت المسكين آنذاك ولكنه الآن انتحر انتحارا ، وها هي ليلياته التي تركها لي بين يدي الآن . فماذا أفعل بها ؟ ماذا ؟ لقد عاش وكأن حياته كلها ما كانت سوى هذه الاوراق المتراكمة التي قضى في كتابتها الليالي تلو الاخرى ، محاولا حشو فجوة التاريخ الهائلة وذلك ليس بقطن الصمت وسبيخ النسيان وصوف الخفية وكتان الكذب والتزوير ، بل بفيض من الجرأة ومن تفاصيل الامواج المتعاقبة فتكون أنهارا وبحارا وطوفانا ويتضح هكذا التاريخ على ما فيه من شحنة الرموز

والالغاز المتراكمة بين طياتها ، وتبقى الاسئلة مطروحة ونقاط الاستفهام قائمة تجرح الورق وتحرقه (هل يستقيم الظل والعود أعوج ؟) ويأخذ بتخطيط التاريخ ويقولبه مع ما ينطوي عليه من تلافيف ولولبيات على أشكالها وكأنها تحاصر الجمل وتخرق الكلمات وتضرب حصارا على هذا السرد الهائل فلا تعرقله ، لا تجزئة ولا تفصيل ، وتأتي الكتابة وكأنها جملة واحدة متواصلة ، لا فصل يمزقها ولا فقرة تقطع الامور بعضها عن بعض ، ولا يخفى على سالمة أن التاريخ هو عبارة عن سيل جارف متواصل لا يتوقف عن الدوران ولا يكف عن السير واللف بل يمضي في سيلانه فيمر في أروقة العالم وفي دهاليز الاشخاص وتعرجاتها الداخلية حيث يمطر في القلوب مطرا فاترا رزازا ، كما انه لا يخفى عليها أن الحياة انما هي وحدة متماسكة لا تجزئة فيها ولا انفصام ... وعلى هذه الوتيرة يكتب عم الطاهر يومياته ، يكتب ليلياته جملة واحدة متواصلة كما يفعل التاريخ في كتابته الاحداث فلا يعرف لكتابته حدا ولا طرفا ولا هدنة ولا هدوءا فيأتي صنيع الايام وضجرها وطحين الزمن وجريانه فيذر في الفضاء أولا ولا يلبث أن يتساقط على الانسان ويكسوه بعشب يستحيل ازالته ، وتأتي التجاعيد الرخوة فتغطي وجوه أولئك الذين يدعون بأنهم يصنعون التاريخ فيما التاريخ صانعهم ، التاريخ بما فيه من أحداث وحوادث وصدفة وحتميات ، ناهيك عما في الحكم من متاهات وما تحمل السلطة من اغراءات فيتعلمون مذاق العزلة المرة ووحشة الوحدة وانطواءها على نفسها مما يغذي عنجهيتهم وما فيهم من جموح الى العظمة والفخفخة والغطرسة المشحونة بالجنون ، وما أن يرمي التاريخ بهم في مزابل النسيان حتى يتسارع الناس اليهم ولا يتورع الاعداء والاصدقاء على السواء عن الانتقام منهم مظهرين ما كانوا عليه من علات وعيوب وآفات ونقائص وقد كانوا في الامس ينزلون أحكامهم تنزيلا فتهبط كالصاعقة من السماء ذاهبة بكل خلق ووجود ، وما

يلبثون أن تنالهم الايام وتطالهم بزنجار المـوت وصدأ الاعـوام وطحلب الحياة التي لا ترحم ولا تشفق لقـد حسبـوا أنفسهم - صانعو التاريخ أولئك - خالدين ملهمين أو مبعوثين لبـث رسالـة مـا والمناداة بها ويذهب بهم الامر الى النهاية فيعتبرون أنفسهم مـن جبلة الرسل ما بعثوا الا لانقاذ الانسانية جمعاء فيتباهون وينتفخون ولا يجعلون لغرورهم حدا فيما يمضي التاريخ ويقف لهم بالمرصاد يترقبهم على أرصفة المستقبل ويحطمهم شر تحطيم ويغطيهم مأمورهم بغطاء الفناء وبطبقات كثيفة من دخان النسيان الازرق فتكون عاقبتهم عاقبة من ظنوا أنفسهم خالدين لا أثر لموت فيهم ولا للمرض أو الخطأ وهم عن ذلك واقون واذا بالتاريخ يترصدهـم فيغرقهم في أوحال بولهم وغائطهم في دمهم ودموعهم · يا لها من سقطة رهيبة ··· انها سقطة من حسبوا أنفسهم على كل شيء قادرين وعلى استقامة الظل على هواهم وكما يشاؤون عازمـين يقررون وهم في الحقيقة معوجون يقررون تكييف معدن التاريخ على هويتهم وهم الى تحديد هويتهم مفتقرون ···

تطالع سالمة ليليات الطاهر الغمري وتفهم بشكل أوضح مما كانت عليه وأجلى ما معنى هذا التحديد الذي أعطاه عن التاريخ بضعة أيام فقط قبل أن توافيه المنية وكأنه أراد به تحذير المناضلين من مصيدة الحكم يوم راح يقول ان التاريخ لا يصنعه أحد بل هـو كالعشب ينبت ولا يراه أحد ينبت · وتقرأ وتقرأ وتتوغل في هـذه الكتابة التي هـي أشبـه ما تكـون بالنهـر المتدفـق بتشعباتها وتعقيداتها وتفرعاتها وطميها ووحلها وطمثها وأعشابها واسهالاتها وسيلاناتها وفيضاناتها فلا حاجة لها الى فصول ولا الى فقـرات وكأنه - هو الكاتب - يعتبرها مجرد تحيلات على الكلام وعلى اللغة أو تقاعسا من قبل من يكتبون وهم ذوو هزالة في الاسلوب ورداءة في الرؤيا وتحفظ في المشية وتحذر في المسير ، فلا يستطيعون العدو الطويل لما يفتقرون اليه من نفس طويل فلا يحاولون مسايرة أنهار الحياة وبحارها ، فلا عجب اذا ما كتبوا التاريخ وعبروا عن الحيـاة

فيما يمضي هو - الطاهر الغمري - يجوب الاقطار ويطوف الامصار ولا يسمح لنفسه بالاستراحة ولو برهة وجيزة من الزمن ولا بالترويح عن الذات ، فتأتي نظرته الى التاريخ وتأتي كتابته عنه قاسية متعجرفة صلبة قاطعة ، فتتذكر سالمة ما كان يدور بينهما من أحاديث حول كتابة التاريخ وكيف كان يمل من أولئك الذين يسميهم بالكتبة الهزل الذين يفتقرون فيما يفتقرون الى نفس طويل والى قوة في التعبير والى عنف الالفاظ والى جرأة في المواجهة والى اتساع في الآفاق والى عمق في المعرفة وتشعب في الثقافة ، فتأتي كتبهم صغيرة الحجم وجملهم قصيرة القامة وآفاقهم ضيقة الاطراف فيتخذون من الجهل الذي يتخبطون فيه درعا لهم يقيهم من جذاذ الكلمات ورمال الحروف اذ انهم لا يدركون من التاريخ شيئا بل تأتي نظرتهم اليه شحيحة ضيقة لعدم ممارستهم للحياة على غرار ما فعل هو عبر مسيرة شاقة وعرة قادته من مرحلة تدريس القرآن الى مرحلة الموت وحيدا منعزلا وقد تفتقت وتفتتت رئتاه بعد أن رفض تلقي اية معالجة من أي طبيب وأخذ أي دواء وما اختبر في نهاية المطاف الا سعادة واحدة امتثلت كلها بسالمة وتجسدت فيها مع ما تحمل من جمال وفوران وضوضاء وضجة ومن تمرد على الاوضاع ، فحركت فيه نطفة الحنان تلك التي كانت قد ماتت لديه منذ سنة ١٩٤٥ ، فجففت روحه ويبست عوده وتقلص عالمه ، فما كان منه الا أن انعزل وانطوى على ذاته واذا بسالمة تأتي بغوغائها وهيجانها وعبقريتها ويدون في صفحة من صفحات ليلياته انما المرأة العربية تمثل قوة ثورية جبارة بعد أن خسرت كل شيء وقد بدأ ذلك منذ غياهب التاريخ واستمر في تعاقب القرون والعصور ولم يبق لها من الثروات الا الحقد الصامت والضغينة الدفينة ، ولكم يشكل كلاهما ضغطا هائلا وطاقة جبارة لا بد من أن تتفجر في يوم من الايام ليس لتحقيق مصلحتها هي فقط بل لما فيه صالح الرجل العربي أيضا ذاك الذي طالما أعمته عنجهيته لمجرد حمله قضيبا

تافها بين فخذيه وشاربا غزيرا على شفته العليا ... فتقرأ سالمة وتقرأ ويزداد انسجامها مع ما تقرأ الى حد أن قادها الامر الى نسيان لوعة الفراق ومرارة الفقدان ... ألم يلعب هذا الرجل في حياتها دور الاب والعشيق والرائد والثوري ذاك الذي أبى أن يخون قضية وأن يجحد بصديق ، فترك نفسه يتآكله سرطان السل وفاء منه للحكيم الذي عالجه في أيامه وينال منه الموت وقد كان وفيا للافكار التي كان يحملها في صدره فلم يرض التراجع عنها ابتداء من ذلك اليوم الذي قرر فيه الانخراط في الحزب والكل يعلم أن قاطرة التاريخ تخرق فيافي العقائد وتفتت الآراء وتبعثر الاعتقادات علما بأنه لم يتجاهل ما ارتكب حزبه من أخطاء فراح يعترف بها بل يقربها ويركز عليها رغم ضريبة الدم التي قدمها رفاقه ورغم ما قاموا به من أعمال بطولية وما بذلوا من تضحيات وسخاء وقد كرسوا حياتهم في سبيل العقيدة والقضية ، فكان يشير الى الاخطاء ولا يرحم أحدا رغم ما يخالجه من حب لسيد أحمد ولبو علي طالب موبخا منذرا مخاطبا كل من له آذان صاغية فيذكره بأن الحكم يعطن ويعفن وكأنه يأتي بنظرية جديدة مفادها أن الثوري ما ان يقلب الوضع ويغير الامور ويحطم السائد والنظام القائم ، الا وعليه أن يقوم بعملية انتحار فيترك السلطة لغيره ممن هو أكثر منه تأهيلا .

ويترك الطاهر الغمري القطار ويترك سالمة كاليتيمة تحيط بها أنواع من الفزاعات اشكال من الرداءة والردة والتفاهة وما يواكبها من جهل ووصولية فيما تتراكم المدينة من حولها ويتدحرج الميناء على رأسها فيشطبه بكل ما فيه من خطوط وأشكال ورسوم ، فتمضي وتتحكم بالفضاء كما تريد وتخرقه وتخيطه وترتقه ثم ما تعتم أن تحطمه من جديد وتفتح في مساحاته فوهات لا تقدر عليها سبيلا وهي في سباق مع السحب في محاولة عنيفة للتغاضي عن كل هذه الاوحال المتراكمة يمازجها اللباد والمطاط والورق المزفت فيملأ أجواء الصمت

الذي قررت السكون فيه برفقة أخيها لطيف الذي أوقف اسطوانة معزوفة الالف واسطوانات الحياة العادية وقد قررت أن تملأ أذنيها بصوت الموت ، فتموت فيها كل حركة وتفقد حاسة الشم وهي تعلم أن الحريق قد شب في احشاء جسمها وراحت تتصاعد منه رائحة الشياط ، متيقنة في قرارة نفسها أن الشمس سوف تبدد كل هذا الصقيع الذي توغل في أطرافها وأن المطر زائل مثلما تدفق الطوفان الذي دام أربعة أشهر كاملة وقد بقيت هي في التوتة لا تغادرها فيما راح المطر يمس أذهان كل فرد من أفراد العائلة مسا من الجنون ساكبا اياه في سكان الحي أجمعهم وفي كل مواطن من مواطني البلاد طولا وعرضا وفي كل حي من أحياء المعمورة وقد ذهبت عمتي فاطمة تهرع من حجرة الى حجرة تجلجل وتشتم ولا تخاف الا السلحفاة (تحبو تتزبوا قبل ما تتعنبوا ، أولاد القحبة) فيما كان حميد يتنقل من مكان الى اخر لا يعرف للاستقرار في المكان الواحد معنى ، فيرمم الدار ويشحم الابواب ويطلي الجدران ويفرغ الساعة من أحشائها ومما حوت من الزمن الكامن فيها ، وقد عمدت هي الى اتخاذ التوتة مقرا لها فيحاول أخوها البكر انزالها منها متوسلا راجيا بلا جدوى فلا تجيبه الا بالرفض فما يكون منه الا أن يضطر الى الصعود الى جانبها جالسا معها الايام الطوال عاملا على وقايتها بمظلته الحريرية وبمعطفه الصوفي وعبثا يحاول ، وقد كان الخوف قد استولى على أبيها وتسلل الملل الى سكان الكون أجمعين فراحوا يتحدثون عن وشوك نهاية العالم ... وينتهي المطر والعالم لم ينته . بل يموت أخوها البكر ثم يسقط أبوها في جب الطفولة الابدية ، ثم تكبر هي وتزغب ثلمتها ، وتترعرع وتفهم أن الحياة انما هي كارثة رهيبة وأن عليها أن تشق طريقها في الحياة وألا تتوانى عن ذلك ، فتتعلم أن العزلة في الانسان انما هي غريزة وفطرة ، فتعشق من الرجال أعدادا ، تعشق وتترك ، تحب وتندم ، وان هي تنسى فلا تنسى أبدا يوم جنازة أخيها وقد كانت هي تحت التوتة برفقة

مهدي وسعيدة وما نسيت أصوات قراء القرآن وما يولده اصطدام الاواني بالاواني من ضجة ، فيصل كل ذلك اليهم من حجرة الدار والمطبخ وهي لا تعرف للموت من معنى لكنها توسم ببصماتها على بشرتها وفي بشرتها وبشكل نهائي وما عرفت من تلك الذكريات شفاء حتى راحت تلك الصور التي لا تفارقها تمزقها طيلة حياتها تمزيقا ، ويأتي الطاهر الغمري فتحاول وهي تستمع الى دروسه (أو ثرثرته ؟) حول التاريخ أن ترتب الامور والاشياء والاحاسيس والافكار التي مضت تملأ نفسها وجسمها وروحها فتذهب جهودها أدراج الرياح وقد كان ذاك الذي دخلت عرينه في يوم من الايام ، يهون من روعها ، يكسبها جرأة وتحديا فتبقى تحت تأثير جاذبيته القاهرة الجبارة ولا تفهم شيئا عن مصدر مغناطيسيتها ، واذا بعم الطاهر يموت يوما ، يموت من أحبته كما رغبت في أن تحب أباها (ولكن من أين لها أن تحب أباها مثلما أحبت عم الطاهر وكلمات الطفشة والطائشة تسطرت في ذهنها منذ طفولتها فطبعت حياتها ؟) يموت من عشقته كما كان بودها أن تعشق أي رجل بكل ما فيها من عنجهية وأنوثة وهمجية جنسية مذاقها الملح والدموع يمازجه الدم والسيلان الشهواني (ولكن من أين لها أن تحب كذلك وهي تعلم أنها لو ضاجعته لصار تافها كالآخرين كما انها تعلم جيدا أنه لن يقبل بمثل هذه العلاقة الجنسية وقد كان يقول : « بنيتي ... مجنونة ... اني متزوج ... أعني أنا أرمل ... » وكانت تسقط في غرامه كما كانت تفعل في سني تعليمها الثانوي وقد كانت تسقط في حبال الغرام لمراهق مثلها يناهز سنها بكل ما فيه من سذاجة وغرور وقلة خبرة (فلا يعرف كيف يقبلها ، ولا كيف يشم رائحتها ، فيكتفي بكتابة رسائل كان ينقلها من كتب اختصت في تقدمة نماذج عن المراسلات الغرامية) ويموت عم الطاهر وللمرة الثانية تصبح يتيمة بعد أن تيتمت مرة أولى بعد وفاة أخيها ذاك الذي في طفولتها ما كانت

تفتح له الباب الا بعد أن يكون الجرس قد رن رنينه للمرة العاشرة ناثرا دويه ورنته الحامضة في أرجاء المنزل وزواياه • ويموت عم الطاهر في غدير من الدماء (هل كان بوده أن يقلد الطريقة التي مات بها الرفاق ؟ وقد ذبح الواحد بسكين حافية (مثل الحكيم) وحرق الآخر بنيران معذبيه (مثل سيد أحمد) وتمزق الثالث تحت شظايا القنبلة الزمنية التي كان يصنعها (مثل بو علي طالب) فمات عم الطاهر بعد تقيئه فلذات رئتيه الذابلتين اذ لم يعد هناك من يقول له « كيف حال وردتيك اليوم ؟ وكيف الاحوال في منطقتك أنت أدرى بالفلاحين الفقراء ••• انهم أمانة في أعناقك سي الطاهر ••• ») يتركها شاهدة على ما تنبأ به ، وهي في الواقع تشاهد كل يوم كيف كانت تنبؤاته تتجسم وتتحقق ••• تفكر في ذلك كله فتدخل في اغماء وتخرج من اغماء فيما يحاول لطيف ما باستطاعته الترويح عنها وفيما عمد القط الاسود الى ملازمتها فلا يفارقها قيد شعرة ولا يخرج الى البستان ولا يحاول استفزاز السلحفاة • وتبكي وتضحك وتقول : « لقد مات أروع ميتة ، لقد مات مثل الآخرين ••• » وتطلب من لطيف أن يأتيها بالارقام القياسية الخاصة بسباق الـ ١٥٠٠ متر وذلك منذ ١٩٥٠ أي منذ أن بدأ سيد أحمد يتميز بتفوق هائل على العدائين الآخرين ، وتمكث هكذا الساعات والايام الطوال تارة تبغي الاستماع الى معزوفة الالف وطورا لا تريد ، تخرج في حضن الدار وتبقى هناك مطولا عاكفة على تأمل نملة في مشيتها على طحرة حشيشة الطوخ (أم سوخ ؟) وما مشية النملة هذه سوى عبارة عن مسلسل ومدرج جسدي كأنه زجاج على بلور ، تمشي تاركة وراءها نحتة لعابية مهذرية كحروق مطموسة وما يلبث أن يجف أثرها ويتحول الى نوع من الصحراء اللحمية ، وتبقى النملة هكذا مستلقية على رخام الفناء ممددة أطرافها (أو حلقاتها) فتأخذها سالمة على راحة يدها حيث ترتسم خطوط اليد الدالة على حياة المرء وعلى ما تنطوي عليه من علائم السعادة والشقاء وعلى ما تخفي من

أسرار مستقبلية وقد لخص كل ذلك بايجاز في خطوط معدودة متعاطفة متداخلة ترسم خيوطها في راحة يد الانسان فتقرحها تاركة فيها آثارا عميقة كثلمات المحراث في الارض البور ، واذا بسالمة تمرر لسانها على اللحمة المنتفخة حيث تتراكم عليها ليفات قنبية المعدن ، واذ هي على هذه الحال غارقة في تأملاتها فلا تسمع العجوز الصماء تلك التي لا تسمع الا ما تريد سماعه فتستطيع القيام هكذا بعملية تصفية وفرز ، لا تسمعها تطلب سيجارة ، وأين سالمة من السيجارة الآن وهي تسبح في عالم النمل فيتضح لها من خلاله ما في العالم من تفاهة وفي الانسان من سذاجة ولكم يماثل هذا النملة وهو يحاول عبور الكون في سبيل الاقتتات فما يلبث أن يفارق الحياة ويموت ، تتأمل في سر الحياة وتعبر بعينيها الكبيرتين المنفتحتين على صحراء الغفو الشاسعة ورماد سيجارتها يتعثر على زرقة فستانها ، أما العجوز فلا تصدق ولا ترضى بأن تكون سالمة ما سمعتها فتعاود طلبها مرة ثانية فلا ترد عليها على أن الحروف المنبجسة من فم العجوز تصل اليها ببطء على غرار الصور البطيئة في الافلام التافهة ولا تقدر على الوصول بين أعضائها ولا تفهم شيئا مما يصل اليها ، فتغضب الخادم وتتجه الى غرفة سالمة وتمد يدها في الحقيبة اليدوية وتسطو على علبة السجاير ، فتطمئن ويهفت خفقان قلبها وتهدأ الرعشة التي انتابتها والتي تنتابها كلما افتقرت رئتاها الى دخان مكثف ... تلك كانت النهاية وهكذا كان الامر ... ورفض الامام أن يصلي على جثمان الطاهر الغمري فأغرقت سالمة بالضحك مقهقهة من سخافة هذا الموقف وقد راح الغيظ يبلجها والحقد يجرفها جرفا . ودفن عم الطاهر في عزلة تامة . وكان كما أراد، اذ رفض أن يحاط الرفاق علما بمصيره ذاكرا في ليلياته انه يطالب بعدم احراجهم بعد مماته وقد أزعجهم كل الانزعاج في حياته . دفنت جثته بحضور لطيف وسالمة وقد كانت قد اخترقت العادة هذه المرة أيضا وصمدت أمام القبار الذي مضى يهدد بعدم دفن الميت ما لم

نغادر هي المقبرة اذ المقبرة ممنوعة على النساء عند الدفن ٠ ولكنها صمدت بعناد وما كان من لطيف الا أن اضطر الى شراء اتفاق القبار بمائة دينار ٠ ولم تبك سالمة في ذلك اليوم ، كما لم تبك عمتي فاطمة عند ممات الاخ البكر واكتفت سالمة بدمدمة هذه العبارة : « ألهاكم التكاثر ٠٠٠ » وعادت الى المنزل في سيارة لطيف وهي تردد : « مات كما أراد ، وكان ما أراد ٠٠٠ هذا هو المختصر المفيد ٠٠٠ مات وقد انتشر دمه من حوله ٠٠٠ هذا هو المختصر المفيد ٠٠٠ »

لم تكن سالمة في أية لحظة من حياتها على مثل هذا الوضوح الذي كانت عليه في تلك اللحظة وذلك على الرغم من أنها لم تنس موتاها لا ، ولا لوعتها ، فقررت أن تقرأ كل الليليات برمتها تلك التي كرس لها عم الطاهر ما يناهز العشرين عاما من عمره ، ومضت تتصفح وتقرأ ، تقرأ وتعيد القراءة فجمل عم الطاهر طويلة متشعبة ومتشابكة بعضها ببعض ، ومن الصعب قراءتها مع ما تحوي من أقواس واستطرادات والتواءات وكأنها جملة نهر أو نهرا أتى في قالب جملة واحدة ، تقرأ وتكتشف أمورا ما كان قد حدثها عنها قط وتفهم ما انطوى عليه تاريخ الاربعين سنة الماضية وما كان دوره هو ودور الحزب وما كانت اخطاؤه وما هي الاحداث التي ذابت تحت هيمنة الذين زعموا عن ادعاء أنهم يصنعون التاريخ ، فتقرأ وتلتهم الصفحات التهاما وقد كتبت بقلم القصب وحبر الصمغ الاحمر فالاخضر ، وكأنها تخاف أن يداهمها الموت قبل انتهائها من قراءة هذه الاوراق المتكدسة ، المتبعثرة ، فوضعتها فوق سريرها ولا تفارقها الا عند ذهابها الى العمل وما أن تكتشف في قراءتها أمرا هاما حتى تعمد الى قراءته بصوت عال على لطيف الذي كان يعمل على معاونتها على تفهم بعض المعاني المبهمة الغامضة وفك بعض ألغازها وتحليل بعض مقولاتها ، وخاصة اذا ما جاء الحديث عن سالمة فما كانت تفهم ما كان مراده من قوله بالضبط ، وهكذا تكتشف فيما تكتشف أنه امتنع عن ممارسة العادة السرية منذ

تعرفه عليها ، كما انه استمر في زيارة سيدي عبد الرحمان فكان يختلف اليه لا لسرقة الشمع وقد جهز بيته بمصابيح كهربائية وانما لترصد ما يقع تحت أنظاره من ظاهرات اجتماعية تمت الى النساء بصلة ، ولكي يفهم من خلال ما يلاحظه في وضعية المرأة اليومية ما هي وضعية البلاد العامة وكأن تصرفات المرأة انما تعكس المآسي التي يعيشها الوطن على اختلاف أنواعها ، وقد وقف مشدوها متلعثما ومترددا بين ما يراه من تطير وشعوذة وبين الدين والتقدم الاجتماعي والازدهار الاقتصادي والنمو الثقافي فلا يعرف ماذا يصد وكيف يسدد وقد أحاط الظلام به من كل جانب ، فلا يعرف حتى موقع لوحة التصويب والى أين يصوب ، وما هو الهدف وإلام يرمي وما هي القصدية التي عليه أن يقصدها ، فأصبح وكأنه في دوران ودوار ولف وتلفاف ... ويتحدث الطاهر أيضا فيما يتحدث عن طفولته وعائلته وما قال لها اية كلمة في هذا الشأن يوم كان يتحدث اليها وقد كانت هي تقص عليه تفاصيل حياتها وما أحاط بموت أخيها وورشة الخياطة وعام الطوفان وجنون عمتي فاطمة وما طبعت عليه من شراسة ، وورع أمها وطفولة أبيها تلك التي وقع فيها بعد تجاوزه الثمانين ببضعة أعوام ، ومع عام الطوفان واقعة التوتة وتعنت السلحفاة ويوم الجنازة وعلب البق والكراس الاحمر وشذوذ لطيف وغرامياتها هي وغيرها وغيرها من الامور الكثيرة ... ولكنه هو ما حدثها يوما عن مثل هذه الامور بل كان يقصر حديثه على أصدقائه في الكفاح ورفقائه في الحزب واخوانه في الثورة ويبذل ما في استطاعته لاعطاء فكرة موضوعية عن التاريخ وبلورتها ... أما عن طفولته وعن حياته الخاصة فلم يتبس يوما ببنت شفة ، بل كان يكتب ويكتب ... وصريف القلم .

التفكك

الثمن ٢٥ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - كورنيش المزرعة - بناية موسى - ت ٣٠٠٣١١